

سيرة الملوك النبأ عنها

في ثلاثين فصلاً

شوقي عبد الحكيم



الدار المصرية اللبنانية

سيرة المملوك النبأ عن
في ثلاثين فصلا

الناشر : العلم المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الحالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيصال : ١١٤١٢ / ٩٧

الترقيم الدولى : 6 - 307 - 270 - 977

جمع وطبع : مصرية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ربيع آخر ١٤١٨ هـ - أغسطس ١٩٩٧ م .

صورة الغلاف والرسوم الداخلية الفنان : خميس شحاته .

سيرة الملوك النبأ عنها في ثلاثين فصلا

شوقي عبد الحكيم

الناشر
دار الصحف ريتا اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الجزء الأول

الملوك التباعنة

خلال إقامتي في بريطانيا التي امتدت نحو ثماني سنوات ، كنت أتردد خلالها على مكتبة المتحف البريطاني ، عثرت على مخطوطة هذه السيرة الملحمية الكبرى « للملوك التباعنة » الذين ورد ذكرهم بالقرآن الكريم بضع مرات ، ولا نعرف عنهم شيئاً ، إلى أن وقعت هذه السيرة بين يدي ، فعكفت على دراستها ، وتعرفت من خلالها على ذلك التاريخ الغابر لأقوام وكيانات وقبائل جنوب الجزيرة العربية في اليمن ودول الخليج وعدن وحضر موت وسبأ وذي نسر ، لسير الملوك التباعنة الذين كانت لهم حضاراتهم الغابرة أو المندثرة ، جابوا ربوع الشرق الأقصى وأواسط آسيا ، ووصلت جحافلهم حتى تخوم الصين ، وأوصلوا التعريب إلى مناحي القارة الآسيوية ، متضمنة . . شبه القارة الهندية وأفغانستان ، والباكستان ، وتركستان وأذربيجان وبلوخستان ، وعشرات الكيانات الإسلامية التي تنتهي بما هو متعارف عليه بكلمة «ستان» داخل منظومة الاتحاد السوفيتي القديم ، كما نجدهم في الشيشان وغيرها .

ومن هنا - وبلا جدال - كان التعريب أسبق من الإسلام ، بل هو الذي مهد الطريق له ليواصل فتوحاته وانتشاره في المشرق والمغرب وعلى رأس من لعبوا واضطلعوا بهذا الدور هم ملوك التباعنة أو (التباعنة) الذين كان يحلو للتبع منهم القول « قد دعتنى نفسى أن أنطح الصين » .

وبالفعل كان يعد الجيوش الزاحفة إلى تخوم الصين ، ويواصل فتوحاته داخلها ، وهو ما كشفت عنه الحفائر الأركيولوجية التي أثبتت بها لايترك مجالا للشك ، وصول تلك الأقوام العربية المحاربة إلى تلك البلاد الموعلة في البعد ، والتي خلفت آثارها وتراثها الحضارى والإثنى في هذه البلاد ، ويكفى القارىء معرفة أن من بين أولئك الملوك (التباعة) (بلقيس ملكة سبأ) ومعاصرتها للملك الحكيم سليمان بن داود ، وهذا في أحقاب لاحقة ، كما يكفى معرفة أن حضارات بكاملها كانت موجودة ومتعارف عليها حفرياً في ربوع الشام وفلسطين ، وتعرف باسم (تدمر) وهو اسم إحدى الملكات اللائى يتتبع للملوك التباعة فهى ابنة حسان اليمانى المتعارف عليه شعبياً باسم « ذو اليمينين » وهو ماكان يطلق عليه .

كما أن من بين أولئك الملكات المتميات أيضاً للملوك التباعة الملكة المعروفة : (زانوبيا) التى قاومت الامبراطورية الرومانية طويلاً إلى أن وقعت فى الأسر وسحبت كأسيرة هى وعرشها إلى روما فى حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

أما آخر الملوك التباعة فهو الملك (ذواليزن) المعروف بسيرته الكبرى ، وكذلك ابنه الملك (سيف بن ذى يزن) وهذان الملكان بالذات لعبا الدور الأكبر فى التعريب داخل القارة الأفريقية ، بدءاً بمصر والسودان ، أو بالأصح بدءاً بالقرن الأفريقى المتاخم لليمن وأثيوبيا والسودان ومصر ، وبقية ربوع القارة الأفريقية بشكل عام ، حتى إذا ماجاءت الفتوحات الإسلامية وجدت الأرض ممهدة لاستنابات وانتشار الإسلام فى القارة الأفريقية أو جانبها الأعظم الذى لم يتدحر إلا مع بداية رحلات الاستكشاف الأوربية وماتبعتها من رحلات تبشيرية ، وتحول بعض هذه البلدان والأقوام الأفريقية إلى المسيحية^(١) .

كذلك ترد ماثورات التباعة فى قصة أوفابيوالة (زرقاء اليمامة) تلك الأميرة واسعة البصيرة والتى حذرت قومها من غزو الملوك التباعة ، حين

(١) بدءاً من القرن الثامن عشر .

صعدت إلى أعلى أبراج المدينة وظلت تهيب بقومها صارخة :
ياجديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير
ياجديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير
وبالفعل أنهى أولئك الملوك التباعة حضارات وأقواماً أو كيانات
سابقة ، مثل قبائل : عاد وثمود وجديس وطُسم والعماليق ورائش ، أى
حولى اثنتى عشرة قبيلة وكيان فنيت بكاملها من الوجود فى ذلك الوقت
المبكر السابق للإسلام أو ما تعارفنا عليه بالجاهلية وإن كانت تلك
الجاهلية تزخر بالعديد من الأحداث والحضارات والفتوحات الموهلة فى
القدم ، وفى العصبية والتطاحن العرقى والقبلى ، واعتبار الحروب
والقتال ، نوعاً من الرياضيات القومية ، اتساقاً مع مقولة الأب السالف
لهذه الأقوام الحميرية ، وهو يعربُ بن قحطان - أو يقطان - أبو العرب
أول من تكلم العربية :

- أيها الناس إن لم تقاتلوا الناس قاتلوكم

وإن لم تسبوهم سبوكم .

فقاتلوهم قبل أن يقاتلوكم .

فليس جمع خيراً من جمع ، ولكن جد خير من جد .

وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، نتعرض لآخر الملوك التباعة وهما
الملك ذو اليزن وابنه الملك التبع سيف بن ذى يزن .

فلقد لعب الملك (ذو اليزن) وابنه الملك سيف الدور الهام فى
التعريب داخل ربوع القارة الأفريقية ، وتذكر سيرتها أن كلامنها كان
يبحث عن «كتاب النيل» وهو مايمكن أن يكون مرادفاً للبحث عن
منابع النيل ، ذلك أنهما كانا متفوقين إلى أقصى حد فى تلك الفترة
الموهلة فى القدم بالنسبة للسدود المائية والتحسينات الزراعية ، ويكفى

أن نعرف أن سد مأرب كان واحداً من بين ثمانية وثلاثين سداً منتشرة في ربوع اليمنين وبلدان الجنوب العربي ، فقد كانت حضارة زراعية هائلة بما يسر لها من الحركة والتجوال والفتوحات ، وخاصة وأن هذه البلدان أيضاً هي التي كانت تشكل الجنوب العربي ، وكانت بلدانا أو شعوبا ذات صفة بحرية نتيجة لوقوعها على بحر العرب أو الخليج العربي ، واتصاله بالمحيط الهندي . من هنا كان يطلق عليهم « فينيقيو البحر الجنوبي » (٢).

فإذا ما كان هناك فينيقيو البحر الأبيض المتوسط في الشام وفلسطين فأولئك كانوا فينيقي البحر الجنوبي وكانوا كشعوب بحرية - تمكنوا من التوغل في ربوع آسيا الوسطى والشرق الأقصى حتى تخوم الصين ذاتها . والأكثر أهمية ما يذكره التاريخ - المندثر - لأولئك الملوك « التباعة » أن سبعة فراعنة خرجوا منها وحكموا مصر (٣).

ولعلني أسوق افتراضاً بسيطاً لا أعرف بالتحديد مداه وهو أن باليمنيين والجنوب العربي وعمان ، توجد جبال نحاس هائلة ، فهم يمتلكون إلى اليوم أكبر احتياطي نحاس في العالم كله ، بمعنى أن العالم يمتلك جزئية صغيرة ولكن الغالبية العظمى لاحتياطي النحاس في العالم مازال موجوداً في اليمنيين والجنوب العربي ، بما ستكشف عنه الأبحاث المستقبلية ، وهو ما كان يساعد على صناعة الأسلحة المستخدمة في ذلك الوقت من سيوف وخناجر مائتال ماثلة إلى الآن . (٤)

خلاصة القول أن هؤلاء الملوك « التباعة » هم أسلاف حضارة أكثر سبقاً وهي حضارة قحطان أو يقطان كما يذكر في العهد القديم ، هي حضارة لا أعالي إذا ما قلت : إنها انتقلت مبكراً ربما منذ الألف الثاني قبل الميلاد إلى أمريكا الوسطى والجنوبية وعرفت بنفس الاسم فيما بين

(٢) أي شعوب وكيانات البحر الجنوبي .

(٣) وهو ما يرد ذكره في سيرتنا .

(٤) كشعار طومى .

المكسيك وبيرو ، والملفت للنظر أن بها معظم الجسد الشعائري والعقائدي والفولكلورى أو التراثى - بعامه - للعرب ، كما أن بها أهرامات يبدو أنها نقلت بكاملها من مصر ، وربما هذا ما دعا أحد المستكشفين أو الرحالة النرويجيين منذ حوال عشرين سنة إلى محاولة إثبات كيف انتقلت هذه الحضارة وبخاصة أهرامات مصر إلى أمريكا الجنوبية ، وكان المقصود بها حضارة قحطان أو يقطان أسلاف الملوك « التباعة » .

إما بالنسبة لسيرتنا عن هؤلاء الملوك فتبدأ بإعداد الملك التبع « أسعد اليماني » لتسعة ملوك متحالفة تحت إمرته مثل أجامنون في حرب طروادة متخذاً قراره القاتل : (قد دعتنى نفس أن أنطح الصين) .

وهكذا واصل الزحف كملك الملوك - أجامنون - إلى تخوم الشرق الأقصى والصين ، إلا أنه وقع فريسة لخيانة أحد ملوك الصين ، الذى أوعز إليه بالمساعدة وتعرف الطرقات والمسالك ، بينما كان يضمّر له خيانة كبرى أوقعت به وبجيوشه فى الكثير من المآزق والخسائر حتى إنه فقد أربعة من أبنائه فى تلك الغزوة ، اعتاد كل مساء أن يُحضر رؤوسهم على صينية من الذهب الخالص مغطاة بالرماد ويظل يبكيهم نادياً قبل أن يأوى إلى فراشه .

وعندما تعرف على خيانة الملك الصينى استقدمه وقطع لسانه من دابره ثم وضعه فى قفص ضخم من الذهب الخالص وأجلسه مقرباً من مجلس حكمه كما كان يتعامل معه من قبل فى كل اجتماع من اجتماعاته حتى مجالس حربه ليصبح بلا فائدة تذكر ، فلا يتكلم أو ينطق وجعل منه عبرة للخيانة على هذا النحو ، إلى أن قرر مجلس حربه العودة بالملك التبع أسعد اليماني والانسحاب من مجاهل الصين والرجوع إلى اليمن والجنوب العربى .

وقبل أن توافى المنية ذلك التبع المتجبر أسعد استقدم ابنه التبع الذى سيخلفه على عرش حمير وعلى عرش التباعة وهو « حسان اليماني » الذى عرف فى الوجدان الشعبى من المحيط إلى الخليج بذى اليمين . قاتلاً له :

لا تضجعونى فيضطجع ملككم ، بل ادفنوني واقفا ليظل ملككم
شاخا .

وهكذا دُفن ذلك التبع السلف أسعد واقفا في أعماق الصخر .

وعادت الجموع إلى عدن وسبأ وذى النور وحضر موت بعد أن
وزعت الغنائم التي أشرفت عليها الكاهنة الأم الكبرى أو قائدة الجيوش
التي كان لها ثلث المشورة ، كما هو متفق عليه بالنسبة للكاهنات
المحاربات كائينا في حرب طروادة ، والجازية في حروب الهلالية ، وهي
(البسوس) .

وحين مات استدعت البسوس حسان بن أسعد ليكمل مشوار التبع
والده ، بضرورة الالتزام بوصيته وهي الذهاب إلى كاهنة « جبل ضهر »
وتنفيذ كل ماتشير عليه من مشورة قائلة : في كل ماتشير عليك به كاهنة
جبل ضهر اسمع لقولها . حتى إذا مذهب إلى كاهنة جبل ضهر بادرته
قائلة : لقد تأخرت كثيرا . . فقال : عن ماذا ؟ قالت : عن حكم حمير ،
فمن مغارة جبل ضهر هذه خرج سبعة فراعين عظام حكموا مصر ،
وأجلسته على كرسى من الذهب الوهاج مغطى بالحيات والعقارب قائلة
له أمرة : اجلس . فجلس ، وأشارت عليه بقتل أول من يصادفه حين
خروجه من باب مغارتها خارجاً ، وكان أول من صادفه هو أخوه الوحيد
المدعو « عمرو ذو الأزعار » إلا أنه تردد في قتله وأصابته همى حاوطته إلى
أيام وما إن فاق منها حتى احتضن أخاه عمرو ووضع خنجره في جنبه
وقتله .

وهكذا حكم ذلك التبع حسان الياننى ولقبه ذو اليمينين حمير
وتوابعها ، واتخذ وزيرا له اشتهر بالحكمة والعدل يدعى (يثرب) فقربه
منه إلى أن استقدمه ذات مساء وأنشد قائلا :

يقول التبع اليمنى المسمى بحسان فما للقول زورا
ملكك الأرض غصبا واقتدارا وصرت على ملوك الأرض سورا

وطاعتنى الممالك والقبائل وفرسان المعامع والنسورا
ولقد أُخبرت عن بطل عنيد شديد البأس جبارا جسورا
وقالوا إنه يدعى ربيعة مير قد حوى مدنا ودورا
تولى الأرض في طول وعرض فكم أخرج وكم شيد قصورا
فقصدى اليوم أغزوه بجيشى وأترك أرضه فقرا ويورا
أسير بهم إلى تلك الأراضى وأملك للقلاع وللقصورا
ويبقى الحكم لى برا وبحرا ويصفى خاطرى بعد الكدورا
وهكذا أمر ذلك التبع حسان بدق الطبول النحاسية العملاقة المعروفة
لدى «تباعنة» اليمن «بالرجوج» وهو أعظم الطبول ، كان يده عشرة
من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التباعة العظام ، وهكذا سار
بالجيش إلى أن افتتح الشام وفلسطين .
وكما هو معروف تتشابه أو تتزاحج - هذه السيرة المندثرة على طول
البلدان العربية ، والتي لم أعثر لها على أثر خلال سنوات جمعى
للمأثورات الشفهية والسير على مدى أربعين عاما ، مع سير أخرى
سوى في مخطوطة مكتبة المتحف البريطانى تتشابه مع سيرة أخرى تؤرخ
لحرب البسوس القبائلية الشهيرة ، التى امتدت ٤١ عاما على طول ربوع
لبنان والشام وفلسطين .
أما الجزء الثانى من هذه السيرة فيتضمن تاريخ آخر التباعة ، وهو
الملك ذو اليزن وابنه الملك سيف .

شوقى عبد الحكيم

القاهرة : يوليو ١٩٩٦



1

هروب التبع أسعد اليماني في الصين

حين استشرى السقم والمرض بالملك - التبع - أسعد اليماني ، الجد السالف للملك سيف بن ذى يزن وهو يغزو بجيوشه المتحالفة الجارة تخوم الصين أثر أمراؤه وقادة فيالقه الاجتماع والتشاور في ذلك المصاب الفادح الذى نزل بملكهم التبع أسعد ، ومضى يمتص منه رحيق حياته يوما بعد يوم ، حتى إنه لم يعد يقوى على القيادة والمتازلة واتخاذ القرار ، ومواصلة الزحف المتلاحق لافتتاح المدن على طول غرب آسيا وأواسطها مروراً ببلاد الهند والسند وأذربيجان وتركستان ، إلى أن وصلت جيوشه العربية إلى أعلى تخوم الصين .

وكان لا يكف لحظة عن معتقده الدفين الراسخ المتوارث عن جده الأعلى قحطان :
- أيها الرجال . . إنكم إن لم تحاربوا الناس حاربوكم ، وإن لم تغزوهم غزوكم . لا مكان لمغلوب على ظهر هذه الأرض وما عليها من بشر ودواب .

الآن لم يعد الملك - التبع . . . يقوى على مجرد الكلام ، بل لقد ثقل لسانه وبردت أطرافه ، ولم يعد يشير إلى نبض الحياة فيه ، سوى حدقتى عينيه الجاحظتين اللتين تتحركان في رية واستطلاع لكل ما يحيط به وهو راقد على فراشه ، حتى لوجهى ولديه «عمرو وحسان» .

وإن حدث ونطق لسانه سوءاً ، تعبيرا عن غله وحقده الدفين ، نطق باسم ذلك الملك الصيني الذى اتخذ دليلاً ، يقوده وجنوده داخل مجاهل بلاد الصين . فكان أن

غرر به الدليل الحليف إلى أن أفقده طريقه ومهدفه وأضاعه داخل تلك البلاد المترامية ،
بوهادها وجبالها الشاهقة وأنهارها وصحاريها الجرداء :

- ذلك الدليل الأسوي الحسيس .

ورغم أن التبع حسان ، أدرك بنفسه في نهاية المطاف خيانة حليفه ، فأوقع به انتقامه
على مرأى من قومه وقبائله وزوجاته وجواريه وأبنائه ، وذلك بأن استقدمه ذات ليلة
وواجهه بادعائه وخداعه ، وما انتهى إليه أمر الجيش العربى .

وحين أسقط في يد ذلك الملك الدليل المتآمر ، وحاول معاودة الدفاع عن نفسه ،
استل التبع حسان من فوره خنجره من وسطه وتقدم منه على مرأى من الجميع ،
واستخرج لسانه من فمه وقطعه عن آخره بخنجره المشرع :

- الآن أريحك من هذا اللسان الكاذب .

ولم يكتف بهذا ، بل إن التبع اليمنى سجنه داخل محفة أو قفص من الفولاذ للحكم
وأمر حرسه وحجابه بوضع القفص إلى جانب قاعة عرشه ، وهو بداخله حى يرزق
يرقب ويعى ما يحدث من اجتماعات وخطط - كما كان فى السابق - دون أن ينطق
بكلمة . . . بحرف .

ومن هنا اكتفى الملك أسعد بمراقبة تعبيرات وجهه وهو يسمع ويرى مسار الخطط
الغازية لبلاده ، دون أن يقوى على النطق والحركة . بعدها ساءت حالة الملك وحل به
السقم هو بدوره ، من صديقه الصينى . الحميم الذى أولاه كل ثقته ، ولم يحصد منه
سوى الخيانة والمرارة والضياع فى مجاهل هذه البلاد سنوات طويلة .

- أهكذا يصنع بالصدى !

فكثيرا ما كان التبع أسعد يمضى يشاركه طعامه وشرابه وحدهما داخل قاعة عرشه ،
كما كانا سابقا ، وقبل افتضاح أمره ، طارحا عليه كل ما يعن له من أمور حقيقية
سائلا :

- مارأى صديقى ؟

متلقيا إيماءاته من داخل سجنه وأصفاده متلمسا بنفسه صحة أقواله أو إيماءاته مدركا خسيسها من أصيلها ، وله طبعا القرار الأخير .

فحتى الخرائط ومسار المعارك ومعالم الطرق والمسالك والبلدان ، كان يدفع بها إليه ، طالبا مشورته وإشاراته :

- لعلى أصبحت أعرفك أكثر فأكثر عن طريق اكفهرارك قبل لسانك أيها الصديق الوفي . . الأخرس .

ويبدو أن كل ذلك ، لم يكف غليل التبع أسعد ، وهو الذى أخلص له ، منذ أن جاءه مخلوعا ذليلا ينزف كمدا مما فعله به ملوك الصين ، فكان أن احتضنه ورد إليه ملكه وكامل سلطاته وممتلكاته وبلاده ، وقربه منه السنوات الطوال قبل أهله وعشيرته ومستشاريه ورؤوس القبائل : بل وحتى ولديه عمرو وحسان .

إلى أن تكشف له وجهه - وجه الصديق الذى قاده إلى متاهات الصين ، كمثل غريق ، تودى به رياح السموم الهوجاء إلى الغوص فى رمالها ، هو وجنوده وقادة فيالقه بل وأربعة أمراء من أبنائه . . فلذات كبده :

- أهكذا يصنع بالصديق .

حتى إذا ما استفاق التبع المتجبر الغافل لما حل به ، واستدار مستطلعا وجه الصديق الحليف الدليل ، كان قد أضاع أخلص رجاله وجيشه وأولاده الأربعة .

وهكذا حطت عليه الموموم الثقيل ، فكان يأمر حجابيه بإحضار رؤوس أبنائه الأربعة على أربعة أوعية على شكل صوان مصاغة من الذهب الإبريز ومغطاة بالرماد الذى تعتليه الرؤوس باكيا متحسرا على مرأى من الصديق :

- واندماه !

وهكذا تهاوى التبع أسعد نهبا لأحزانه الدفينة ، حتى إنه - وعلى حد قول المقربين منه ، ومنهم ماتبقى من ذريته ، عمرو وحسان - لم يعد يقوى على إتيان الفعل ومعرفته :

- أين نحن ؟

ومن هنا جاء اجتماع الأمراء التسعة الذين كانوا تحت إمرته ، مطالبين بضرورة عمل شىء للخروج من ذلك المنزل القارى الذى لا قبل لهم به ، ولو استدعى الأمر ضرورة الانسحاب والعودة إلى ربوع اليمن ، مادام الملك - الغافل - أصبح لا يعي مجرد موقع جيشه من بحار بلاد الصين المتلاطمة ، ومادامت الخسائر أصبحت تلاحقهم من كل حذب وصوب ، « بل وتنشق الأرض عليهم انشقاقا كل مطلع فجر وغروب » .

حتى إذا ما استقر رأى الأغلبية على ضرورة الانسحاب والعودة إلى جزيرة العرب وربوعها شمالا وجنوبا ، لم يجد ولداه - عمرو وحسان - بُدًا من تأييد قرار العودة ، ودون حاجة لأوامر التبع السقيم المريض .

فالأكثر حكمة فى مثل هذا القرار ، هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مغانم تلك الحروب القارية التى طال أمدها فى ربوع آسيا الوسطى والأناضول حتى مداخل الصين ، والعودة بها إلى اليمن وجزيرة العرب .

كما أن الأكثر أهمية هو تقبل الأمر الواقع باحتضار « التبع المتجبر » لدفن جثمانه واقفا أو منتصبا حسب وصيته بين رفات أجداده التباعدة ، كما أشار فى وصيته :

- لاتضعونى فيضطجع ملككم ، بل ادفنوني واقفا ليظل ملككم شامخا .

ومن هنا أعدت المراكب تمهيدا لرحلة العودة إلى ربوع جزيرة العرب وموانئها البحرية . فسيقت وحملت الغنائم والأسلاب ، وحمل التبع الراقد بعرشه ورؤوس أبنائه القتل وأسراه ، وسجينه الملك الأسيرى مقطوع اللسان إلى ظهر السفن دون إعلامه « بقرار العودة والاندحار المفاجئ » .

وأقلعت السفن عائدة باتجاه المحيط الهندى وبحر العرب ، يسبقها الرسل إلى ربوع الجزيرة العربية وكياناتها شمالا وجنوبا ، إلى حضر موت وعدن وسبأ والحجاز وذى نصور .

فأقيمت الأفراح والزينات لاستقبال الرجال من المحاربين وعلى رأسهم التبع اليمنى الغازى أسعد وولده عمرو وحسان .

وهكذا أفلح الجميع في إخفاء تحركات الجيش المنسحب العائد عن التبع القائد رأس التحالف القبائلى العربى ، إلى أن حطت السفن رحالها على شواطئ بحر العرب ، وخرجت الجموع المنتظرة من زوجات وأمهات وأبناء وعجائز لاستقبال الرجال العائدين . حيثئذ أدرك التبع الراقد ما حدث .

فما كان منه إلا أن حل وثاق صديقه وأسيره الملك الآسيوى مقطوع اللسان وأكرم وفادته هو وأهل بيته :

- أنت الآن ضيفى . . أيها الصديق .

وما أن انتهت مراسم توزيع الغنائم وأسلاب الحرب الطويلة المضنية على رؤوس القبائل والعشائر والكيانات المشاركة التى أشرفت عليها الأميرة « البسوس » أخت التبع المريض ، حتى تفاقمت حالة الملك الصحية .

حتى إذا ما أدرك هو بدوره - أى التبع - مدى اقتراب منيته ، استدعى ابنه الأكبر حسان ، ومضى يتطلع فى وجهه طويلا مسرا إليه فى ضعف بوصيته الأخيرة قائلا :

- اذهب إلى جبل « زهر » بالقرب من صنعاء وأطرق باب سيدة الجبل بكهف « بنور » ، وأبلغها باقتراب منيتى وموتى

تنهد التبع طويلا فى إعياء ، وهو يجاهد فى إطلاع ابنه الأكبر حسان اليانى على وصيته الأخيرة ، وكان قد اصطفاه ليخلفه على عرش التباعة - ملوك اليمن العظام - من بعده :

- لا تخبر أحدا بما تسمعه أذنك منى ، قبل أن تجتمع بسيدة جبل زهر .

أشار مهددا بطرف إصبعه :

- وفى كل ماتقوله لك . . اسمع لقولها .

بدا وجه الملك التبع الوالد أسعد ، لابنه حسان وإهنا متحسرا كئيبا تحت أنوار الشموع والقناديل .

ظهر له كمن يندب حاله وانقضاء أجله وهو يتمتم لنفسه :

- كل شيء احتلنا عليه . . إلا الموت . . غلبنا .

وحين حاول حسان الاقتراب أكثر لإراحة رأس أبيه ، اعترضه الأب مشيراً عليه بلهجة التأكيد :

- اسمع لقولها .

وهو يعنى بذلك سيدة جبل « زهر » .

أوما حسان لوالده منسجبا . مستديرا باتجاه باب القاعة ، لتقع عيناه على شقيقه الأصغر « عمرو » الذى بدا مأخوذا مكفها من هول احتضار الوالد التبع .

توقف حسان فى مواجهته كمن يستطلع تعبيرات وجهه قائلا لنفسه :

« أترأه كان يسمع متلصصا ماجرى بينى وبين أبينا »

وحين حاول عمرو الإفلات من نظراته والدخول مستطعلا حالة أبيه ، اعترضه حسان مستديرا مشيراً إلى غطيته الذى ارتفع شخيرة قائلا له :

- دعه . . ينام .

وهنا اندفع الأمير حسان كالتائه الغائب عن وعيه ، من هول تلك اللحظة التى أنها دهر بحاله والتى أنصت فيها إلى وصية والده « التبع المتجبر » متجولا وحده داخل دهاات القصر الشاهقة ، مبعدا عنه كل من حاول الاقتراب منه مستفسرا عن حالة الملك من أمراء وشيوخ قبائل ومستشارين .

كان كل مايشغل بال حسان ويستولى على كل فكره وخلجاته ، تلك المهام الجسام لنى ستلقى على كتفيه والتى تنهاوى تحت ثقلها هامات أعلى الجبال قبل الرجال ، وهى أن ينام الليل ويصحو ، آخذا مكان أبيه فى قيادة تلك الجموع المتنافرة ، من قبائل وأقوام ، وأن يقتل ويغتال فى وضوح النهار دون أدنى رحمة .

تساءل!

- كيف ؟

وهو الذى حاول جاهدا طويلا الابتعاد عن شهوة الحكم والتسلط ، منشغلا بقراءاته وأسفاره البعيدة . . لكن دون طائل .

أعاد مسترجعا كلمات أبيه ، وذلك الوجه القبيح الكئيب ، لسيدة جبل ضهر . كيف له أن يسلم أمره أو قياده لامرأة متوحشة قاسية الملامح ، تقبع داخل كهفها أو جحرها كمثل حية رقطاع ، « تتغذى بمنخ البشر » ، كما يقولون . وكيف له أن يتقبل وصاياها ونصائحها :

- كارثة .

وقبل أن يفيق حسان من طلاس أفكاره كانت الأصوات النائحة قد ارتفعت من كل جنبات القصر تندب موت والده التبع أسعد .

وعلى الفور دوى قرع الطبول العملاقة من خارج القصر وأعلى سفوح الجبال المحيطة معلنة موت الملك التبع أسعد . وكان صدى دوى الطبول يتردد فى كل مكان كالهدير .

وسرى الخبر كالنار فى الهشيم من مدينة إلى أخرى ، ومن مضارب قبيلة إلى مايجاورها ، فارفعت أصوات النساء النائحات وعقدت اللقاءات بين شيوخ القبائل وأمرائها ، وارتفعت أصوات المنشدين بالأشعار الجنائزية التى تتحدث عن مآثر التبع الراحل وطموحاته وفتوحاته التى لم تفت فى عضدها سوى الخيانة التى تعرض لها من ذلك الدليل الأسوى . يل لقد وصل الحماس والحنق ببعض الأمراء وشيوخ القبائل إلى حد المطالبة بإحضار ذلك الدليل الأسوى - مقطوع اللسان - والانتقام منه علنا وعلى رؤوس الأشهاد :

- اقتلوه . . اقتلوه !

وهنا تدخل الأمير الوريث « حسان » حائلا فى حزم من وصول الجموع الثائرة التى امتلأت بها ساحات القصر إلى مطمورة ذلك الدليل الأسوى لتصب عليه نقيمتها دون رحمة ، صارخا بها :

- ارجعوا . . حذار .

فما فائدة الانتقام ، بعدما نفذ المكتوب وأصبح الملك التبع جثة مسجاة ستوارى
الثرى بعد لحظات .

بل إن الأمير حسان عاد مذكرا الجموع المتراخمة الغاضبة بمدى مالحق بذلك الدليل
الأسوى سلفا من عقاب ، مشيرا إلى إقدام والده الراحل على جز لسانه في إحدى
نوبات غضبه منه ، صارخا ! - يكفى الآن ماهو فيه . أما الآن فهو ضيف حمير . .
أسمعون ! .



2

وصية كاهنة الجبل

اتخذ الملك التبع الجديد حسان وجهته ذات مساء إلى جبل « زهر » مكدودا نهبا لخواتره المتضاربة . - كانت أضواء المصابيح والشموع المشعلة تضيء سفوح الجبل العملاق ، الذى تغطت متعرجاته وسفوحه وتضاريسه بالمضارب والخيام ، يؤمها أتباع تلك السيدة - سيدة الجبل - من مرضى ومجاذيب ومعلولين .

وكانت جوقات الغناء الجماعى ذات المسحة الدينية الشعائرية تعلو من هنا ومن هناك ، وهم يستخدمون فى غنائهم وإنشادهم إيقاعات الدفوف الطاغية المثيرة لكل المشاعر الجسدية ، حيث تتمايل عليها الجموع ميمنة وميسرة فى غياب كامل عن كل وعى ، وهى الجموع من سكان ذلك الجبل ، من فقراء وأتباع ومعلولين ومشعوذين ودراويش ومرضى .

وما أن واجه حسان الجبل ، حتى توقف بحصانه ، لايعرف أى المسالك يسلك . وأخفى من فوره وجهه بشاله مبعدا ملاحه عن العيون المستطلعة وأطلق العنان لحصانه راكضا من حول الجبل المائج بالحركة والغناء والحياة .

استوقفته فى بعض الأماكن أصوات ذلك البكاء والعيول على أبيه التبع الراحل مشيرين إلى فرسه الحمراء :

كأنك « ياحمرا » بتصيرى

تحت رياح التندابات .

غاب الى يعرف مقدارك

يملاً لك لحد عبارك

وان خست من القمع يزيدك .

وما إن تلمس طريقه المؤدى إلى حيث مغارة تلك السيدة المتشبة بالدم ، حتى مضى من فوره صاعدا لا يلوى على شىء إلى أن توقف مستطلعا ودخل المغارة الموحشة الحجرية ، المحاطة بالتماثيل الرخامية والمرمرية العملاقة ، كمثل معبد شاهق .

ترجل عن حصانه ، وتقدم منه على الفور من اقتاد الحصان إلى طاولته وربطه مقدما له الطعام فى صمت وقور .

واستغرق التبع حسان طويلا فى تأمل تلك المنحوتات التى صيغت من نفيس الأحجار الصلدة نصف الكريمة ، لمعبودات وثنية ورموز وأشخاص ، تعرف فيها على حدوده التباعدة اليمينيين الذين حكموا طويلا تلك البقاع . تعرف على « شداد بن عاد الكبير » وعلى « يشجب بن يعرب بن قحطان » ، وعلى الكثير من تماثيل والده التبع أسعد بالذات .

ودمعت عيناه حين شاهد منحوتات إخوته الأربعة الذين أودت بحياتهم تلك الحرب الأخيرة المشؤومة فى ربوع الصين والشرق الأقصى ، فكان موتهم السبب الرئيسى فيما حل بأبيه من أحزان ثقيلة عاتية ، أنزلت ببصره وجسده السقوم ، خاصة حين كان يجىء برؤوسهم - المحنطة - المحفوظة ، على أوعيتها الذهبية ، ويتأملهم فى حسرة نادما باكيا ، الليلة بعد الأخرى ، حتى إذا نام تحاصره الأحلام والكوابيس دون مهرب . واشتدت عليه أحزانه وأسقامه حتى أودت بحياته قبل الأوان .

وتهاوى حسان جالسا ، وهو يرقب منزلق ذلك الجيل الهائل الذى تبدت له نيرانه المشتعلة على طول سفوحه وأخاديه كجمر هائل متقد :

- يالها من ليلة .. ججم !

غمغم لنفسه مكتئبا آخذا رأسه بين ساعديه الاثنتين فى حيرة :

- الجحيم بعينه . . حكم حمير .

وكان قرع الدفوف العملاقة وأنين الرباب يصم أذنيه الاثنتين . وبدا المكان موحشا إلى حد دفع به دفعا إلى تحسس حسامه وخنجره ، تأهبا للدخول :

- تلك المرأة اللغز !

طالعه من جديد منحوتات إخوته الفرسان الأربعة الذين التهمتهم نيران الحرب الأخيرة المسعورة الواحد عقب الآخر ، كمثل عقد منفرط :

- الرحمة !

وما إن تحرك منفلتاً داخلأ إلى أغوار ذلك الكهف الرطب ، حتى طالعه صورته المنعكسة على جدران الحجرية المشطوفة التى صيغت من نادر الأحجار الملونة والنفيسة ، مابين المرمر الأملس كمثل مرايا عاكسة ، واليشب والعقيق والسليلاني والياقوت الشديد الاحمرار .

تبدى له وجهه وهيئته منطبعة عبر مئات المستنسخات ، التى لم تكن أبدا تعكس حالته الآنية ، بل عبر آلاف مؤلفة من الانفعالات والتبديلات التى لم يكن يعرفها أو يشهداها من قبل فى نفسه :

- غرائب !

وسريعا ماانفتحت تلك المغارة المتعرجة المسالك والدروب التى تغطت جدرانها بالرؤوس البشرية الحقيقية المسمرة بالجدران ، والتى لايزال بعضها يقطر بما يشابه الدم الأحمر ، كما لو أن حادث قتلهم قد وقع لتوه ، غمغم حسان لنفسه متسائلا :

- أسرى !

بل إن أصوات العواء والنحيب والتوسل ، من داخل ردهات الكهف ذاته وصلت مسامعه ، طاغية على أصوات الدفوف العملاقة الخارجية .

توقف ملتاعا مأخوذا ، إلى أن جاءه صوت المرأة :

- حسان ؟!

- أجل !

- تأخرت طويلا !

اندفع داخلا لايلاوى على شىء ، إلى أن وجد نفسه داخل بهو فسيح لا يحده البصر ،
أحالاته ألسنة النيران العملاقة إلى نهار جلى واضح المعالم والتفاصيل .

وفى آخر المكان انتصبت المرأة كمثّل عملاق وقد تناثرت جدائل شعرها العسجدي
الضارب إلى الحمرة حتى ليكاد يغطى جسدها كله ، واقفة على شبه درج يقود إلى
عرشها الباهر الذى لا يقل كثيرا عن عروش التباعة ذاتهم ، بيدها مغرفة ، ومن هنا
وهناك تحالطت روائح الشواء مع البخور المعبق داخل المكان :

- أقول تأخرت كثيرا .

نطق سائلا :

- تأخرت عن ماذا ؟

أجابت بصرامة :

- عن حكم حمير .

قال :

- انا الآن تبع حمير .

عاجلته نازلة عن صرحها فى حزم :

- لن تحكم حمير إلا إذا سمعت كلامى ونفذته بكل دقة يا حسان بن أسعد .

وما أن اقتنصت عيناها الواسعتان عينيه فى وقفته حتى اعترته رعدة هائلة من قمة
الرأس حتى أخصى القدم :

- تعال .

تقدم منها طائعا كمثّل منوم ، إلى أن توقف مطرقا وهى تسر إليه :

- تذكر جيدا أنه من هنا ، من مغارة جبل ضهر « خرج سبعة فراعنة عظام حكموا
نيل مصر وديارها » .

أصم العواء الطاغى الذى لم يكن يعرف له مصدرا أذنيه من جديد :
- أحقا ؟!

وحين قاربته المرأة أحس دفئا يشيع فى جسده وأطرافه ، وأحس بها مثيرة فى فرائها
الأحمر القانى محاطة بالسنة لهبها وطلاسمها :
- اجلس .

أشارت إلى كرسى بديع التكوين جانبا ، وهاله أن الكرسى يعج بمئات الثعابين
والحيات المنتصبة على قوائمها ، وقد انفتحت أفواهها وحلوقها ، وتمددت ألسنتها ،
كمن تعاني جوعا هائلا منذ دهر :
- اجلس .

تراجع مأخوذا من هول المفاجأة غير المتوقعة التى واجهته بها تلك المرأة الدموية
اللغز :
- أين ؟

- هنا على كرسى التباعة العظام .

استدار من جديد مبتعدا متحسسا مقبض سيفه ، فى ذات اللحظة التى خطت فيها
المرأة جالسة بكل ثقلها على الكرسى نفسه وفوق رؤوس الحيات الجائعة الزافرة ، التى
خف فحيحها مستجيلا إلى مثل خوار خافت :

- اسمع جيدا ما أقول يا حسان بن أسعد .

جاءه صوت أبيه المحتضر محذرا بطريقة لم يعهدها من قبلُ فيه ، وكانت تلك آخر
كلماته :

- فى كل ماتقول لك سيدة الجبل . . اسمع جيدا :

تساءل غير مصدق :

- ماذا يحدث ؟

عم صمت طويل ، بدا فيه وكأن المرأة - الكاهنة - تستعرض أمامه قدرتها المعجزة غير العادية في الجلوس على الكرسي الملىء بالحيات أمامه وأكداس حليها الذهبية اللامعة ، تضوى وتلمع كمثل جمر متقد على أسطح جسدها البرنزي القاتم : جيدها . . ذراعها ، خلاخيلها .

بل إن ماضعاف من اندهاش التبع حسان . هو استسلام تلك الحيات منتصبه الرقاب ، فاعرة الأفواه لجلستها على هذا النحو المشع بكل جسارة وتحذ .

- ماذا يحدث ؟

تساءل بينه وبين نفسه ، في ذات اللحظة التي اعتدلت فيها المرأة على ذلك الكرسي - المرعب - الذي ادعت منذ هنيهة بأنه « كرسى التباعة العظام » وأنه ما من حاكم لحمير ، توانى عن الجلوس عليه على ذات رؤوس الثعابين والحيات .

- اسمع جيذا لما أقول :

من جديد اختلط صوتها ، بوصية أبيه الواهنة له ، والتي ربما كانت آخر مانطق به من كلمات قبل أن يغمض عينيه ، نائها في غيبوبة احتضاره إلى أن تلاشى عن الوجود :

- في كل ماتقول لك سيدة جبل زهر . . اسمع لقولها .

مضت توغل في تأمله طويلا صامتة ، ومتشاعلة بتلميس رؤوس حياتها بكف يدها . . في حنو .

- تقدم يا حسان بن أسعد .

انتصبت من جديد واقفة متجهة إليه جاذبة في شبه أمر :

- اجلس . . قلت اجلس !

تهاوى من فوره جالسا على الكرسي الذى تهاوت رؤوس ثعابينه متراجعة مستسلمة منكسرة . بينا دفعت له المرأة بإناء ليعب مابه من شراب :

- اشرب .

وقبل أن يفرغ الإناء في جوفه عاجلته قائلة :

- اقتل من فورك أول من تصادفه ، حالما تتخلى عنى خارجا من هذا المكان .

انسل حسان ينزف عرقا ، مستندا بجدران المغارة ، بينما طالعه صور وجهه على الأحجار البلورية ، أكثر وحشة وتشويها حتى إذا ما قارب مدخل المغارة ، استل من فوره خنجره من غمده متقدما من أول من صادفه متسللا داخلا :

- من ؟!

ووصلت دهشته أقصى مداها حين ارتفع ساعده مشيرا محذرا صارخا :

-أنا عمرو .. أخوك .. يا حسان .. احذر !

اندفع منسلا خارجا باحثا عن حصانه ملقيا بجسده بكامله فوقه ، مطلقا له أقصى عدوه نازلا عن ذلك الجبل المشؤوم . بينما طرقات الدفوف العملاقة تحاصر سمعه ، كمثل طبول رجرج أو طبول حرب همجية مستعرة .

ما إن أفاق حسان من تلك الزيارة - الكابوس - وأحداثها ، تنفيذاً لوصية أبيه التبع الراحل ، حتى غمغم طاردا عنه تصورات وهواجسه المرعبة السوداء :

- لا .. لا .

حتى اندفع داخلا عابرا ردهات قصره باتجاه غرفة نومه ملقياً بنفسه بكامل ملابسه ودروعه على فراشه محموما مغمغما :

-أقتل آخر من تبقى من إخوتي عمرو شقيقى .. حدقة عيني ؟!

تسللت إليه ابنته الوحيدة المقربة « تدمر » التى اعتاد استشارتها فى كل صغيرة وكبيرة ، فجذبها فى حدة محتضنا إياها مسرا إليها بأحداث تلك الزيارة الموجهة التى نفذها بكل الدقة حسب وصية الوالد الراحل ، إلى أن وصل بها إلى حد إقدامه - منذ هنيهة فقط - على قتل أخيه الوحيد الحبيب « عمرو » :

- لا . . لا . . لن افعل وليذهب عرش حمير إلى الجحيم .
- انفلتت ابنته « تدمر » من بين أحضانها وهي تخفى عينيها بأناملها العشر ، كمن ندع مانعة شرا جاثما :
- عمرو . . عمى . . لا .
- هبت من فورها مبتعدة ، إلى أن استدارت سائلة والدها :
- هل كانت « السيدة » على علم بموعد قدومك إليها ؟
- أبدا . لا أحد يعرف . . حتى أنت ياتدمر ، فأنا لم أخبر أحد إطلاقا هذا النهار .
- واجهت تدمر الجدار وهي تدقه بقبضتها في عصبية :
- وما الذي أتى بعمرو تلك الساعة ؟
- لا أعرف
- عم صمت ثقيل داخل المخدع .
- وحين تناهى إليهما - جسان وابنته - سماع اقتراب أصوات خارجية وحفيف أقدام زوجته وجوارياها ، اندفعت تدمر من فورها خارجة مغلقة باب المخدع ، مانعة الجميع ، حتى أمها ، من الاقتراب من غرفة الوالد التبع وهو على تلك الحال . . نهبا لهواجسه التي تطحن رأسه ، صارخة في صرامة :
- أبى ليس مريضا ولا شىء من هذا . . لكن حذار من الاقتراب الآن . . ابعادوا جميعا .
- عادت من فورها ، إلى حيث أبيها المتوكل الذى من فوره مضى متقلبا على فراشه ، كمن يعانى ألما معويا يمزق أحشاءه :
- ابعادوا الآن .
- اندفعت تدمر جارية باحثة عن طست وإبريق الاغتسال المصاغ من الذهب لإبريز ، دافعة به تحت ذقنه وفمه لتلقى « القىء » الذى تزاخم فى حلقه وفمه مسترجعا :

- شربت من يدها . . لا أعرف ماذا شربت من يد تلك السيدة المرعبة .
عاد الملك يتلوى من جديد معاودا القىء وكأنه يستخرج أحشاءه عن آخرها :
-علقم !

جرت تدمر باحثة عن قطعة من الليمون ولما لم تجد :
- ليمونة . . ليمونة .

اندفعت متجهة إلى الباب المفضى إلى المطبخ الملحق بالمخدع ، ومرة أخرى عادت تصرخ في وجه كل من حاول الاقتراب من غرفة أبيها :
- حذار . . الليلة . أبى ليس مريضا . . ابعدوا .
عادت إليه بعصير الليمون وبعض الأعشاب قتناولها التبع شاربا ، مكوما كل وسادات المخدع من فوق رأسه ووجهه الغارق في بحار العرق ، لإيقاف الصداع والألم ، وسرعان ما علا غطيظه وصراخه :

- لا .

ما أن أفاق الملك - التبع - الجديد حسان بن أسعد اليماني ، من كابوسه ومرضه وما ألم به عقب زيارته المشؤومة لمخارة سيدة جبل زهر ، تنفيذا لوصية والده الراحل ، حتى مضى من فوره مستشيرا أصدقاءه ومقربيه وكل من يثق فيه من قريب أو بعيد بما أشارت به تلك المرأة الطاغية :

-ماذا أفعل ؟

- هل أنفذ الوصية .

- أأقتل أخاي . . عمرو ؟

- أنفذ الوصية . !!

-مستحيل . . مستحيل . لن يحدث أبداً .

- ماذا في أيدينا . لا مهرب . . إنها الوصية .

- الوصية . . أخى . . لحمى .

- الوصية .

حيثئذ استبد الجنون بالملك الذى أخذ منه الخوف والفرع كل مأخذ ليس فقط من الوصية والجلوس على رؤوس الأفاعى الكاشفة عن أنيابها ، بل من كل ما أصبح يحيط به ، وما هو مقبل عليه ، وتلك المهام الجسام ، التى وجد نفسه فجأة مطالباً بها ، منذ رحيل والده التبع أسعد عقب كارثة ضياع جيشه وتيهه فى ربوع الصين :

- أخى .

كان يمضى متفرساً فى الوجوه المحيطة به ، التى تدفع به دفعا . إلى حيث هوة الانتشاء بالدم . ودم من . . آخر من تبقى من إخوته الخمسة وبعد أن فقد إخوته الأربعة الذين التهمتهم الحرب المستعرة فى أقاصى المعمورة .

هنا يحل الصمت بالجميع وكأنهم يتخلون عنه ، لاذين بذلك الصمت المستسلم الكتوم المتأمر .

وحتى ابنته المقربة « تدمر » وعمته « البسوس » لاذتا كلتاها بذات الصمت المطبق دون نطق أو محاولة مد يد العون لغريق يهذى وحده على مرأى من الجميع .

وكان الأمر لايعنى أحداً غيره ، وهو الذى مازال ينزف ليل نهار باكيا افتقاد إخوته الأربعة .

وظل حسان هكذا أياما امتدت لشهور لا يذوق للنوم طعما ، بل بدا هزيعا إزاء مهماته كتعب وريث لعرش التباعة القساة القلوب والسواعد والأطباع .

هكذا بدا حسان فى نظر نفسه وسيدة « جبل ضهر » التى لها على الدوام الكلمة العليا ، على حد قول والده تبع أسعد ، قبل أن توافيه منيته :

- فى كل ماتقول لك سيدة جبل ضهر . . اسمع لقولها .

كيف أخى ؟

وتعبد حسان عديم الالتقاء بأخيه عمرو ، والتطلع فى حدقتى عينيه كمثلى مذنب

أثيم ، بعد أن صادفه للحظة على عتبات مغارة جبل زهر . إلى ان حانت لحظة التقائه به حين تسلل إليه عمرو بنفسه عن طريق عمته البسوس التي لم يكن يرجى لها مطلباً .

فتقدم منه عمرو متضرعاً معاتباً في حنو سائلاً :

- لماذا تخفى نفسك عني . . هل حدث منى ما يسيء يا أخى حسان ؟

فما كان من حسان إلا أن انتفض واقفاً معانقاً شقيقه الأصغر ، متحسناً بيده اليمنى مكمناً خنجره .

مترجعاً :

- حبيبي عمرو . . أنت في عيني . . أنت حذقة هينى .

بل إن حسان أثقل على عمرو بالرجاء في أن يتقدم ليأخذ مهام الملك الجديد بدلاً منه .

عندئذ بكى عمرو على صدر أخيه الأكبر حسان أحر البكاء وأشقه ، متصوراً أن أخاه الأكبر إنما يفتقد ثقته ويتخيله طامعاً في حكم حمير ، وهو الذي يحفظ له كل تقدير وإعزاز مدى العمر .

وحاول حسان جاهداً إفهام أخيه ثقل ما هو فيه وما يجثم على كاهله ، ولكن دون جدوى إلا أن « عمرو » بدا كمثّل ضحية وديعة مستسلمة تأخذ طريقها إلى محرقها صاغرة :

- أنت أخى . . أخى .

وتعقد الموقف بين الشقيقين ، وهو الموقف الذى كانت عمتها « البسوس » تنتظر نتائجه بفارغ الصبر من خلف حبالها داخل أستار قصرها الذى جرى فيه اللقاء بين الملك حسان وأخيه الأصغر كانت البسوس مثلها مثل مالف التباعدة لاشيء يعنيه في ذلك العالم الواسع سوى الاستبداد وغاياته في حكم تلك القبائل المترامية على شواطئ الخليج العربى والجزيرة واليمنين .

وهكذا فشلت خطتها هذه المرة أيضا في استعجال وحسم أمر « تاج حمير » الذى لن يكتمل نصابه إلا عقب الالتزام بالوصية ، مهما ثقلت المهام إلى حد إراقة الدم الواحد ، وهى التى كان يروق لها أحيانا إشعال نيران المحارق فى الأجساد من بهائم وطيور وبشر . كانت البسوس أو سعاد التى تعرف بأسمائها المتعددة ، قد آثرت فى سنواتها الأخيرة التفرغ الكامل لرعاية شئون « عرش » التباعة « وما يتطلبه ذلك من تدخل فى أدق المشاكل والقضايا التى لاتنقطع ، كتلك التى عادة ماتنشعب وتستجد بين القبائل والعشائر والبطون والأقوام المترامية على طول الجزيرة العربية شمالها وجنوبها ، والتى يضمها ذلك التحالف القبائلى الحميرى أو القحطانى .

ومنذ شبابها المبكر كانت شديدة الحساس حفاظا على تقاليد عرش التباعة ، لذا أثرت رغم زواجها من أحد أمراء بلاد « السرو وعبادة » ، أى (الأردن اليوم) واسمه « سعد » ، وانتقالها منذ البداية للعيش فى بلاده ، والعودة معا للعيش فى سبأ ، بعد أن شق عليها الابتعاد عن متابعة مايستجد من مشاكل حكم حمير وصراعات أقوامها . وفى البداية رفض زوجها « سعد » مطلبها ذاك وهو الانتقال ببيتته وكيانه وممتلكاته للعيش فى وطن الزوجة ، إلا أن مرضا ثقيلا ألم به فجأة فى السنوات الأخيرة التى سبقت وفاة أخيها التبع أسعد ، عقب كارثة تشتت جيشه فى ربوع الصين .

هنا استسلم لها الزوج واستجاب لأطماعها ومنطقها فى رعاية شئون حكم حمير بعد موت التبع ، فوافق على الانتقال معها إلى سبأ والعيش بها . ووصل الاندهاش - بالعمة - البسوس أقصى مداه ، وهى ترقب من خلف ستارها وخبائها ، مايحدث بين الاخ وأخيه من تعاطف .

وأفزعها أكثر ذلك التراخى الذى يديه الأخ الأكبر حسان نحو أخيه الأصغر محتضنا إياه مارين على طول ردهات القصر ، فى ذلك الأصيل الذى بدت فيه الشمس الغاربة ، عبر الشرفات والنوافذ ، قانية الاحمرار كمثل جمر نار متأجج .

وأدهشها ضعف حسان وهو يتوسل إلى شقيقه الأصغر « عمرو » فى التقدم لياخذ مكانه ويعتلى عرش « التباعة » معبرا بكل جوارحه عن شقائه وما أصبح يعانيه من آلام ليس فى مقدوره احتياها :

- أنت أخى .

غمغمت البسوس وهى تفح فى غل :

- عشنا وشفنا .

قالت لنفسها :

- أعلى هذا النحو من الرقة والسباحة يجىء تبع حمير . . المنتظر !

وواجهته البسوس بهذا القول - المزرى - ساخرة إلى حد أن حسان انسل خارجا من قصرها دون رجعة :

- عمتى . . اتركينى .

واستبد بالبسوس الغضب من تصرفات ابن أخيها حسان على هذا النحو - الحنون - الأرعن ، حتى إنها لم تحاول أن تثنيه عن عزمه فى الخروج من قصرها رافضا غاضبا على هذا النحو . وكل ماقالته له هو :

- انتظر . . أنت ملك حمير .

وهى التى مادبرت هذه الوليمة التى استدعت إليها - الضحية - أخاه الأصغر عمرو ، إلا بناء على طلب ، كليهما ، من قاتل وقتيل إن صح القول .
خاصة عمرو ، الذى أصبح فى أيامه الأخيرة يعانى وحدة قاسية أقرب إلى الذنب من إشاحة أخيه الأكبر عنه على ذلك النحو .

وهو - أى عمرو - الذى اتخذ على الدوام صديقه ومثله الأعلى ، وكان أكثر أهل حمير حماسا وتوقدا بتنصيبه ليعتلى عرش « التباعة » مكان أبيهما الراحل أسعد .

بل وحتى عندما حاول الأخ الأصغر عمرو اللحاق بأخيه ، وقبل وصوله إلى ركه عند البوابة الخارجية ، منعه عمته البسوس محتضنة إياه وهى تداعب بأناملها خصلات شعره الفاحم المجعد :

- ارجع يا عمرو يا حبة عيني .

فلم تكن البسوس تكن كرها أو حقدا للأخ الأصغر ، بل هى الوصية :
- أنا لن أرتقى يوما حكم حمير .

هكذا صرخ فى لوعة .

فالأمير الصغير الهائم دوما عمرو ، كان على الدوام الأكثر قربا من
البسوس . أرضعته صغيرا إلى أن شب ونما بين صدرها وجوانحها تحنو عليه الليل
بطوله :

- الوصية !

بكت بين ساعدى عمرو . الذى بدا لها - على عادته - نائها لايدرى مايجرى
ويحدث من حوله منذ افتقاد التبع الأب :

- ما الخبر . . ألعلى آخر من يعلم ؟

- حاول ثانية الانفلات من عمته البسوس وابنة أخيه «تدمر» والجميع :

- ماذا دعا أخى حسان . سأذهب إليه الليلة بقدى هاتين .

- لا يا عمرو . - لماذا . . تمنعوننى عن أخى . . صديقى ؟

مضى عمرو فى انفعاله وثورته يتطلع الى الوجوه المشدوهة من حوله دون أن يعى
مايعترى الموقف كله من غموض ، مما ضاعف من إحساسه الدفين بأنه هو وحده
وليس أحدا غيره السبب الرئيسى لكل مايجرى من نزاع وتطاحن . فما كان منه إلا أن
انفلت خارجا مسرعا مصمما على اللحاق بأخيه واستجلاء سبب غضبته وانسحابه على
هذا النحو المكفهر .

امتطى ظهر فرسه - سحب - مطلقا العنان لكوكبة فرسانه فى إثره ، إلى أن وصل
قصر أخيه التبع الحاكم حسان ، مترجلا مقتحما ردهات القصر الذى أصبح يشيع فيه
الصمت المحمل بالأسى ، نتيجة لأحزان التبع الجديد وصراعاته .

إلى أن لحق بأخيه حسان داخل مخدعه ، وكان ساعتها يستبدل فى إعياء أرديته
ولباسه ، استعدادا للإغفاء دون أن يراوده النوم كالعادة .

حتى إذا ما طرق عمرو الباب فاتحا داخلا ، استدار إليه حسان مرتعدا محملا بكل غضب صارخا مخفيا وجهه بين كفيه كمن يعانى ألما دفيناً يطحنه طحنا :

- ابتعد عني . . ابتعد !

تراجع عمرو كالمشدود من قسوة طرد أخيه له من بيته على هذا النحو الفادح :

-أبتعد عنك يا حسان . . يا أخى . . تطردني ؟!

- اذهب . اذهب عني . لا ترنى وجهك !

صرخ الملك التبع ملتاعا :

- امنعوه .

هنا اندفعت جوقة الحرس التى انشقت عنها الجدران محيطة بعمرو المرتعد وهم يسحبونه فى رفق إلى حيث البوابة الخارجية لقصر التبع .

فهو متعب هذه الليلة .

وبدأت حالة الأخ الأصغر عمرو الصحية تسوء تباعا . وكان شاعرا رقيق الشرائل ظل طيلة سنوات شبابه منكبا على الأسفار والترحال فى مناهات العالم القديم مشرقا ومغربا ، بحثا عن كنوز المعرفة ودفائناتها والاستفادة من كل مايجيء به من إبداعات .

فهجر نابذا منذ صباه صراعات القصور تلك ، متخليا هائما لا يبغي من عالمه سلطة أو جاها سوى مصادقة المخطوطات التى كان قد احتمل لتملكها كل الصعاب ، ولو كانت فى متاهى الأرض

لذا لزم عمرو فراشه داخل قصره عقب تطاول شقيقه الأكبر عليه إلى حد طرده دون رجعة من مخدعه :

- أبعدوه ! وبكته زوجته - وابنة عمه - الصغيرة ، حاملة بين صدرها وليدهما !الطفل الصغير ذو اليزن « دون أن تدري لمرضه المفاجيء سببا واحدا يشفى غليلها ، سوى تلمس بعض شذرات تحبب من هذيانه الليل بطوله .

- تطردنى يا حسان .. يا أخى .

ودون علم منه قررت الزوجة الحزينة حمل وحيدهما الرضيع، « ذو اليزين » وزيارة أخيه الأكبر - تبع حسان - وإبلاغه بما وصلت إليه حالة أخيه الأصغر عمرو ، الذى أصبح معلولا شاحب الوجه لا يقوى على مجرد المشى أو الكلام .

حتى إذا ما استقبلها التبّع الجديد وعلم بما انتهت إليه حالة شقيقه الأصغر المعلول ، تضاعفت همومه وعصفت به أحزانه الدفينة من جديد ، إلى حد أنه مضى فى ثورة غضبه يمزق حلته الملكية وتاجه وأرديته وهو يطؤها بقدميه الاثنتين كمثّل مخبول على مرأى من حرسه وحجابه وأهل بيته .

ولم تفهم الزوجة الوداعة سبب انفلات ثورته على هذا النحو ، دون أن يقدم على قرار زيارة أخيه أو استدعاء طبيب مداو قادر على شفاء علله .

فما كان منها سوى البكاء دفاعا عن زوجها عمرو فهو ليس خائنا أو متآمرا :

- فلماذا يتآمر الجميع عليه ؟

وهنا لم يجد حسان له مهربا ، سوى امتطاء حصانه والتوجه إلى « جبل ضهر » واقتحام غار سيدته الدموية تلك ، وإعادة طرح قضية أخيه عليها ، وكيف أنه الآن طريح الفراش يعانى سكرات الموت :

- أجل الموت المحقق .

واجهها محتدا جائئا على ركبتيه :

- كل ما أطلبه منك ، هو إعفائى من الوصية .

قالت مشيرة إلى يديها الاثنتين :

- لا أملك .

سألها : .

- وإذا ما انقضى أجل عمرو .. أخى ؟

أجابت في حزم :

- لا مكان لك في إرث التباعة .

اندفع غاضبا ليلوى على شىء خارجا ، إلى أن قفز هائجا على ظهر حصانه ، نازلا متعرجات جبل ضهر ومسالكه ، ودقات الدفوف العنيفة تجيئه مهيجة لكل حواس وكأنها صادرة من رأسه ذاتها .

زار عمته البسوس محاولا إيجاد مخرج لما هو فيه ، فتلقى منها ذات كلمات سيدة جبل ضهر ، وكأنها - المرأتين - وجهان لعملة واحدة :

- لا مكان لك في حكم التباعة .

اندفع حسان صارخا بأقصى قواه ، معاودا تمزيق أرديته على مرأى من عمته البسوس وابته « تدمر » .

- لا مكان لى في إرث أبى . . سوى يارقة دم أخى الوحيد . . لحمى - إنها الوصية . الدهر .

وهكذا أعاد إليه أصدقاؤه ومقربوه ذات المعنى ، إلى حد أنه أقدم في إحدى سوررات غضبه على إشهار سلاحه في وجه ثلاثة منهم وإراقة دمائهم :

- لا مهرب .

- الوصية .

اندفع من جديد ممتطيا حصانه ضاربا عرض الحائط بكل ماسمع مقرا زيارة أخيه عمرو المريض المعلول .

وما إن وقعت عيناه عليه . . شاحبا معلولا يهذى عبر بحار عرقه على فراشه ، حتى تقدم منه حسان لاثما محتضنا بكل قواه ، وكان ساعتها يجاهد في أخذ أنفاسه الأخيرة دون نطق .

وسريعا ما أمستل حسان خنجره من غمده ، وذبح أخاه « عمرو » من الوريد إلى الوريد ، صارخا في أقصى جنونه على مرأى من زوجته المحتضنة لوليدها ذى اليزن :

- عمرو . . أخى !

3

التبع حسان اليانى يوم زفاف اليمامة

دوت طبول « الرجروج » العملاقة التى كان يشارك فى قرعها ثمانية من الرجال الأشداء .

احتفالا بذلك الحدث الكبير الجلل ، وهو جلوس الملك حسان اليانى على عرش التباعة .

وسرى الخبر أول الأمر من جبل ضهر المتاخم لصنعاء ومنه إلى بقية بقاع حمير ، فى عدن وحضر موت وسبأ وذى الرمحين وصرواح وإرم ذات العماد :

- الآن أصبح حسان اليانى حقا ، تبع حمير المهاب . ارتفعت الرايات والبيارق والزينات ، وامتدت حلقات الرقص والسمر ونحرت الذبائح من نوق وجمال وماعز .

كل ذلك كان يحدث مدويا فى أذنى التبع الجديد حسان كعويل . . وليس أبدا إيدانا واحتفالا باعتلائه عرش « التباعة » العظام . .

فلم يكن قد أفاق بعد من هول أحزانه الدفينة التى تزايدت منذ إقدامه على قتل أخيه الوحيد المريض « عمرو » فى فراشه ، وعلى مشهد من زوجته وطفله الوحيد « ذى اليزن » ييكى فى حرقه على صدرها :

- « أقتل أخى عمرو ، بيدى هاتين ؟ »

ظل التبع الجديد لأيام لا يذوق للنوم طعاماً ، بل حاول جاهداً ألا يمس يديه الاثنتين
- الملوئين بدم الشقيق أى شىء .

ورفض استقبال أى من المقرين منه فيما عدا ابنته « تدمر » التى حاولت بكل
ماأوتيت من حكمة ورجاحة عقل التخفيف عن والدها ، مدعية أن لا دخل له يذكر
فيما حدث ، بل إن عمها الراحل الحبيب « عمرو » كان من جانبه يسعى إلى الموت
سعيًا ، شأن كل الضحايا والقتلى .

وراحت « تدمر » تلثم فى حنان كفى والدها طريح الفراش - حسان - وساعديه فى
حنو ، وهى تدرك ببصيرتها الصائبة ماأصبح يعانیه من فعلته الشنعاء التى شارك
الجميع فى دفعه إليها دفعا :

- أخى عمرو ماذابقى لى ؟

بل إن الأميرة تدمر ، شاركت والدها مقاطعة كل ما يحدث من احتفالات تنصيبه .
وتوافدت الوفود ما بين ملوك وأمراء وشيوخ قبائل وفرسان من كل صوب وحذب
باتجاه قصر الملك التبع حسان إلا أنه رفض استقبال الجميع .

وزين قصر عمته البسوس بالزينات البهيجة وعزفت الموسيقى داخل ردهاته وعمت
الأفراح كل كيانات حمير فى اليمن والجنوب العربى وشواطئ بحاره الجنوبية ابتهاجا
باليوم المنشود الذى لا بد وأن ينعم فيه الجميع بدفء الأمان المعزز دوماً بسطوة « التباعة »
وملوكتها منذ شداد بن عاد الكبير .

ومن هنا تجددت التحالفات ، وبدأ فرسان القبائل يأخذون طريقهم إلى الميادين
لمواصلة تمارينهم استعدادا لإعادة انتصاب الرايات التى نكست طويلا ، منذ موت
التبع أسعد وتنفيذ ابنه ووريثه حسان لوصيته - المفزعة - أيا كانت ، حتى وإن تمثلت
فى قتله لأخيه الأصغر عمرو الحبيب .

فالآن فقط يمكن لحمير أن تسلم قيادها للتبع الجديد المتجبر القاسى القلب ،
يقودها إلى حيث يشاء دون كثير عناء .

أما عن حال التبع الجديد « حسان » فقد لازمته الاحزان القائمة التى وصلت إلى أعماق أعماقه عقب إقدامه على قتل أخيه الأصغر - الوحيد - عمرو . وهو راقد على فراش المرض . بخنجره المسموم . وذلك بقطع رأسه من الوريد إلى الوريد ، ووضعها على « طست » من الذهب مغطى بالرماد ، مثلما فعل أبوه - أسعد - مع رؤوس أبنائه الأربعة يبيكه أحر البكاء كلما عم المساء .

- ألا سحقاً ليوم أصبح يأكل فيه بعضى بعضا . أيها الحبيب عمرو .

وهكذا فرض الملك حسان حصاراً صارماً حول نفسه فى عزلة داخل قصره الحصين . فلم يعد يكلم أحداً ، حتى ابنته تدمر التى هى أقرب إليه من نفسه ذاتها .

حتى إنه لم يسمح لوفد من آلاف الوفود التى سعت إليه لتقديم الهدايا وفروض الطاعة بمقابلته ، مشيعاً أنه مريض ملازم لفراشه حسب مشورة الأطباء .

إلا أن الوحدة الصارمة التى فرضها على نفسه ، كانت قد أحدثت مفعولها من حيث التحولات التى حدثت داخله ، ليخرج بعدها على شعبه وقبائله ، حساناً آخر جديداً ، عابس الوجه ضائقاً مستهدفاً للبطش ، أينما ساقته إليه قدماءه .

وهكذا بدأ أولى خطواته الانتقامية بقتل جميع من أشاروا عليه بتنفيذ تلك الوصية المشتومة بقتل شقيقه عمرو .

فلم يستثن منهم واحداً ، مهما تعاظمت درجة صداقته وقرابته منه .

كان يبعث إلى الواحد منهم بسيفه طالباً مقابلته ، وقبل أن تعبر قدماءه عتبة الديوان الثالث داخل مقر الحاكم يكون قد قضى نحبه .

وكان هذا سببا رئيسيا فى تزايد بطشه وهيبته التى أصبح يحسب لها كبراء حمير قبل صغارهم كل حساب .

وكانت أخبار بطشه بأقرب مقريه ، تصل مسامع عمته البسوس أولا من عيونها المنبثة عليه حتى داخل قصره ومضجعه ، فيصل بها الانتشاء أقصى مداه : !

-هاهو رأس حمير الحقيقى شديد البأس .

- بل لكم غنت البسوس أن يزداد انتقام ابن أخيها التبع حسان أكثر فأكثر ، حتى يلو أصابها هى ذاتها الدور ، إلا أنها أكدت وصيتها لمقربيهها وهى الحفاظ على ذلك لوليد الصغير الذى لا يزال بعد رضيعا - ذى اليزن - ابن الأمير - الضحية عمرو ، والتي كانت البسوس قد انتزعت انتزاعا من صدر أمه ، قبل أن تعود إلى قبائلها بوادى الحجاز باكية فجيعتها فى افتقاد كل من الزوج والإبن .

وهكذا عكفت البسوس على تنشئة الرضيع ذى اليزن فى كنفها مولية له رعايتها القصوى ، بعيدا عن العيون ، وبخاصة عيني - عمه - التبع حسان ، وبعدما اعتراه من تحولات ورغبة جامحة فى الارتواء بالدم المراق ، نازعا عنه كل بادرة لرحمة ، حتى قيل عنه إنه أصبح لايرحم حتى نفسه ذاتها :

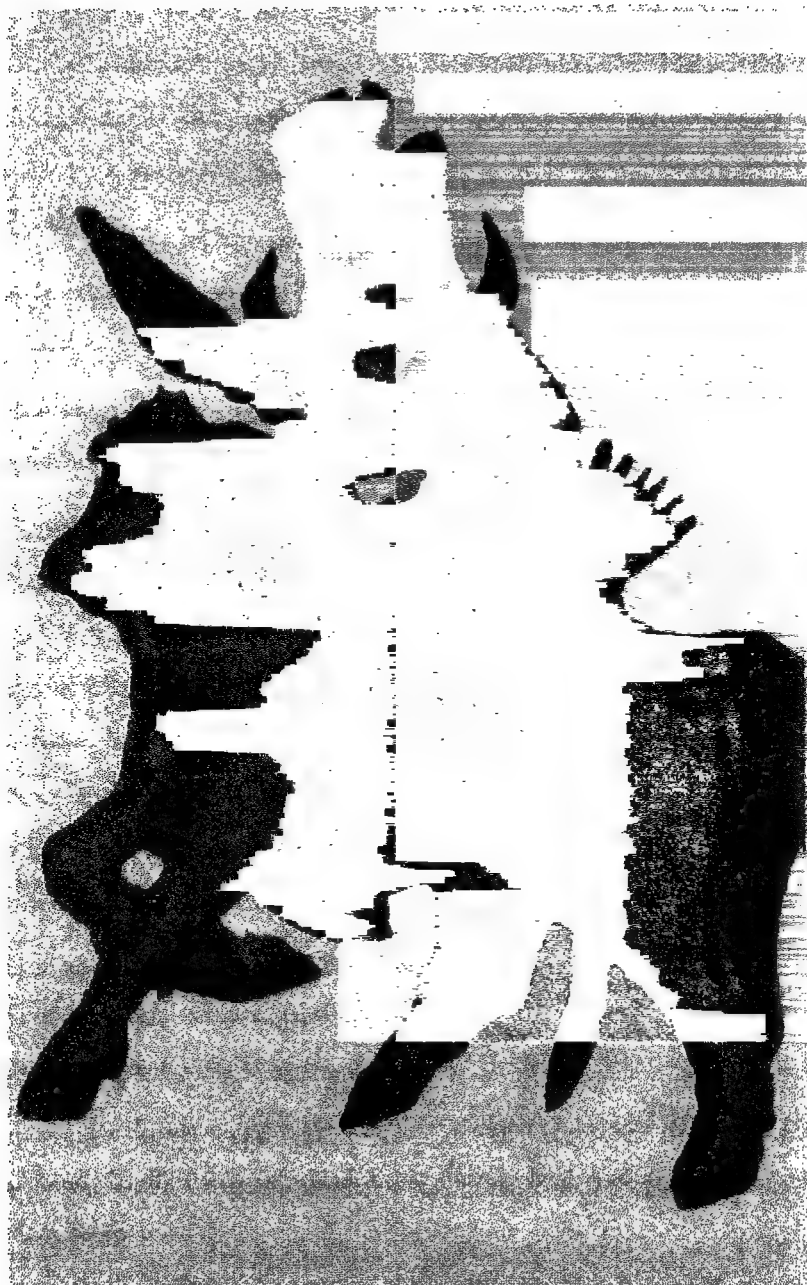
- هكذا تريدوننى !

- فلقد كان دائم السخرية المريرة لنفسه :

- كل ما أبتغيه هو أن أحوز طاعتكم قبل إعجابكم . . فهكذا أرادت حمير بى المسير . وشيئا فشيئا تحلى التبع حسان اليمانى عن عزلته واصطفائه لنفسه فقط يحادثها مناجيا بلا عون أو صديق .

فخرج على قومه أكثر صلفا ونجرا ، وبدأ بإعطاء القسط الأكبر من جهده لإعادة تنظيم وحرص صفوف قوات جيشه التى أوهنتها وأودت بمعظم فيالقه الحروب الطويلة المضنية التى خاضها والده - - التبع أسعد - فى أواسط آسيا والشرق الأوسط . . واتخذ لنفسه وزيرا حكيما يدعى « حنظلة » أجمعت مشورة الجميع ، وأولهم ابنته ومكمن سره « تدمر » عليه .

وكان ذلك الوزير الحكيم « حنظلة » على معرفة واسعة بقبائل وعشائر اليمن والجنوب العربى ، وتحالفاتها العلنية والسرية . كما كان حنظلة على معرفة بالقبائل والأقوام المجاورة والمتاخمة - لحمير - وما تطمح إليه فى إضعاف الحميريين وتفكك تحالفاتهم بانتظار اليوم الموعود للوثوب عليهم ، وخاصة عقب كارثة إحباط جيوشها التى قادها التبع أسعد حين أوصله طموحه إلى « نطح » أسوار الصين ذاتها :



- « قد دعتنى نفسى أن أنطح الصين »

ثم ما انتهت إليه تلك الغزوة المغامرة التى تسبب فيها ذلك - الدليل - الآسيوى الخائن الذى أسلم له الملك أسعد مشورته وقياده ، فأفقده اتجاهه إلى حد التيه الكامل هو وجيشه فى غياهب تلك البلاد والوهاد لسنوات ثم اتخذ قرار العودة إلى جزيرة العرب فى غفلة منه .

وانتهت تلك الحملة بانتقام التبع أسعد من دليله وحليفه الخائن بقطع لسانه والمرض كمدا حتى الموت .

وهكذا مضى ذلك الوزير حنظلة ، يسوق للتبع حسان ما يستجد من أخبار القبائل والأقوام الطامعة ، متعرفا على مكامن ضعفه باستثارة التحديات .

إلى أن نجح أخيرا فى إقناعه بالتخلي عن عزلته ودفائن أحزانه والاستبصار بالأخطار المحيطة والمحدقة بأمن حير ، وأهمها تلك القوة الضاربة التى بدأت تدب بين قبائل «جديس» وهم من العرب البائدة وأميرتهم الحكيمة عميقة البصيرة « زرقاء اليمامة » .

وكيف أن قبائل جديس نجحت أخيرا عقب حروبها الطويلة مع قبائل « طسم » فى إحداث النصر الساحق لجديس إلى حد فنائها لقبائل « طسم » وتشتيت فلولهم على طول جزيرة العرب شرقا وغربا حتى قيل فيهم :

- « لعبت بهم أيدي جديس » وكانت زرقاء اليمامة أكثر استبصارا بالخطر ومدى استفحاله منذ المهد .

كانت على الدوام مدركة خطر حمير وتبعها الجديد « الفتى » الذى لم يكن يرغب أبدا أول الأمر أن تعلق هامته سواء داخل أقوام وكيانات جزيرة العرب ، أو فيما يتاخها من أقوام فى الشام وما بين الرافدين وأفريقيا .

وكانت زرقاء اليمامة - وكما تروى سيرتها - لانتام الليل ، منذ أن علمت ووصل أسماها أخبار اندحار الحميريين وتقهقرهم من أقاصى آسيا ، بعدما حدث من خداع لمكهم التبع أسعد .

وكانت على دراية بأن ما حدث لحمير ، ليس أكثر من كبوة أو عشرة طريق ، تمهيدا

لإعادة جمع الشمل والالتئام توثبا لإعادة التطاول ومواصلة الغزو والتفوق واستهداف الحروب الدموية ، التى لابد وأن تسحق يوما أول ماتسحق عشائرها وبنى جلدتها . خاصة وأن « جديس » وبعد امتصاصها لطاقات مناوئتها « طسم » أصبحت الآن تشكل قوة فنية ضاربة على طول جزيرة العرب بشقيها الشمالى والجنوبى .

فها هى مدينة اليمامة الآن عامرة مزدهرة ، ملء السمع والبصر .

ومن هنا فلن يهدأ للحميريين وملكهم الجديد حسان ابن أسعد بال ، قبل أن تطأ جيوشهم الجرامة أرض جديس ، لاسيما وأنها عادت محملة بكل جديد من حروبها الآسيوية ، التى لم تطحنها ، بقدر ما أعادت فتح شهيتها من جديد للفتح والدم المراق .

ولكم نهت زرقاء اليمامة الأذهان والعقول لما يحدث ويجرى من حولهم ، مطالبة بعدم انتكاس السلاح والخلود إلى لذائذ غنائم حريمهم مع طسم التى انتهت باستئصالها من الوجود .

- ففجعة حمير لن ترحم . . . وهذا قدرنا .

لكن من يسمع ويرى . والجميع تأخذهم نشوة النصر المعجل الساحق فى جديس .

من يمكن له أن يصدق يوما . . بل لحظة انتكاس الرايات الخفاقة داخل مدينة اليمامة إثر النصر الساحق على جديس .

والصوت الوحيد المحذر لزرقاء اليمامة ، يبيئهم بلا صدى مبنيا فى اعتقادهم على مجرد دلائل وظواهر لا أساس لها من جانب حمير وتبعها الجديد حسان وهو الذى لم يفق بعد من ضربات الآسيويين ، التى أودت بأمرائهم وفيالقهم .

لكن من يسمع ويرى ؟!

ذلك الذى يدبره الحميريون وملكهم . حسان لهم فى الخفاء من اجتياح وعدوان . وهو ماحدث بالفعل من جانب التبغ حسان الذى بدأ فى أيامه الأخيرة صحوته وعيناه

الاثنان تحطان على جديس وعاصمتها اليمامة التى أصبحت مضرب الأمثال بين العرب نظرا إلى ماتمتع به من ثراء وسطوة .

لذا أثر التبع حسان اليمانى ووزيره الأول المقرب « حنظلة » اللجوء إلى الحيلة ، وهما يعدان العدة لاجتياح اليمامة عاصمة جديس . خاصة وأن قبائل حمير بجيشها لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتها وتوحيدها لاستئناف القتال ، بعد الخسائر التى كانت منيت بها فى حروب الآسيويين .

وخاصة أكثر أن هذه الغزوة المقبلة تحيىء كأولى غزوات « حسان » كحاكم جديد لحمير وتوابعها ، ومن الأسلم أن تحيىء وما يترتب عنها وعليها ، بأقل الخسائر الممكنة .

لذا فمن الأرجح فى مثل هذه الحالة ، مهادنة « جديس » وحاكمتها الزرقاء وإخفاء نوايا العدوان ، الذى أثر التبع حسان أن يجرى ليلا ، وبطريقة مفاجئة لاتسمح - للعدو - لشحذ قواته وكتائبه خاصة وأنها - أى قبائل جديس - لاتزال تشرع أشرعتها ، عقب الانتصار الساحق على مناوئتهم من قبائل طسم .

وهكذا أجرى الإعداد للعدوان سرا ، مصحوبا بالنوايا الحسنة المعلنة لسكان اليمامة وأميرتها الزرقاء وهو ما أدركته زرقاء اليمامة ببصيرتها النافذة .

فما من رسالة - معسولة - أصبحت تتلقاها من حكام حمير ، إلا وأثارت سخطها وطاقتها فى استنهاض الهمم ، بازاء الخطر المرتقب القادم ، الذى أصبح يطرق كل بيت وخباء ومضرب فى جديس ، لكن من دون نائيل يرجى :

- خذوا حذرکم الليلة قبل الغد .

- ولا من مجيب أو سميع يرجى .

ذلك أن جيوش الملك حسان وإمعانا فى السرية والمفاجأة ، منعت قرع طبول « الرجروج » التى غالبا ما كانت تسبق زحفها .

بل هى اقتلعت خلال زحفها ليلا أشجار غاية بكاملها بحيث تستر الجيش الزاحف تحت فروعها وهو يواصل تقدمه فى ببطء شديد دون أدنى جلبه .

حتى إذا ماشاهدت زرقاء اليمامة - خدعة - الجيش المدجج الزاحف . أهابت
بقومها صارخة معتلية أعلى قلاعها :

يا جديس . . يا قوم !

لقد سارت إليكم الشجر :

وأنتكم حمير !

لكن صرخات زرقاء اليمامة المحذرة جاءت متأخرة جدا ، وبعد فوات الأوان .

ويقال إن حسان اليماني أذل جديس حتى العظم إلى أن أفناها عن الوجود .
وضاعت سدى تحذيرات زرقاء اليمامة لسنوات ويقظتها في التنبيه بالخطر الجاثم المهدد
لقومها ومدينتها ، منذ أن استقام من جديد عرش « تباعة » اليمن ، عقب الموت . .
الكمدى - المفاجيء للتبع أسعد اليماني . وتولى ابنه الأكبر حسان مكانه .

لكن من كان يسمع ويعى ، والجميع في اليمامة قد أعماهم النصر السابق المعجل
علي بقية مناوئهم من قبائل طسم إلى أن حلت الكارثة ووقع ما كانت تحذر منه زرقاء
اليمامة .



4

الهجوم الليلي والتخفى بأفصان الأشجار

على ذلك النحو المتآمر الفادح ، جاء اجتياح التبع اليمنى « ميت القلب والحواس »
حسان بن أسعد لقبائل « جديس » سكان اليامة ، سهلا مسيرا كمثل نصل سكين
يقطع زبدا .

فمع الهزيع الأخير من الليل المظلم الدامس وبعده قام جيشه بالتخفى من الرأس
حتى أخمس القدم بأفزع الأشجار وغصونها من دون بذل أى محاولة لقرع الطبول أو
إحداث أية جلبة ، وبالصمت الرهيب الذى كان يلف المكان ، أطبق حسان على
الجديسيين من العرب العاربة وهم داخل مضاجعهم ليطحنهم جيشه الزاحف كمثل
غابات وحشية مطبقة من كل صوب وحذب على الأسوار والبوابات والدور والمضارب ،
وسيوف جند الملك حسان تعمل فى الرقاب النائمة ، مشعلين النيران والحرائق أينما
حلوا .

بل إن التبع حسان وجنده ، تعمدوا استدراج كلاب قبائل جديس بالاحتتيال عليها
فرموا اللحم المسموم لها ، حالما قاربوا مضارب أعدائهم وفرائسهم ليلا ، مما ساعدهم
على اقتناص النصر بأقل الخسائر .

ومن هنا كانت الفاجعة التى حلت بقبائل جديس ، ليُذبخوا رجالا ونساء وأطفالا
داخل مضاجعهم ليلا غيلة على ذلك النحو الغادر من جانب ذلك الملك المتجبر
وجيشه الزاحف الذى طحنهم طحنا على مرأى من أميرتهم « زرقاء اليامة » التى أعيتها

كل حيلة في تبصيرهم . فلعلها الوحيدة التي اعتلت رأس فرسانها وحرسها الخاص ،
وتصدت للحرب والقتال من جهة ، ومن جهة أخرى صارخة في بقية رجال جديس
ومحاربيها النائمين والغافلين :

- يا جديس . . يا قوم !

لقد سارت اليكم الشجر . .
وأنتكم حمير .

لكن من يمكن له أن يسمع ويعى في تلك الساعات السابقة على انبلاج النهار ،
وقد نفذت أسهم الحميريين ، وعملت سيوفهم في رقابهم ، عبر تلك المذبحة الليلية
التي عمت ، كالطاعون ، ساحات مدينة اليمامة وباحاتها ومضاربها ومنازلها وخيامها
دون رحمة أو شفقة .

ورغم كل محاولات زرقاء اليمامة وثلة لاتذكر من فرسانها ووصيفاتها من النساء ، في
التصدى والمقاومة لجيش الملك حسان العارم ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم .

فماذا تجدى مجرد كتيبة في مواجهة جيش غاز متكامل البنيان ؟

إلا أن مقاومة زرقاء اليمامة ورجالها أفزعت التبع حسان ذاته في تلك الليلة الحالكة
الظلمة ، لدرجة دفعت به إلى البحث بنفسه عن مصدر تلك المقاومة الخطرة ، ورغم
كل ما اتخذته من احتياطات سرية ، إلى أن تصدى لها بنفسه وصولاً إلى أن أوقعها جريحة
تنزف وهي لاتزال تقذفه بأشنع سبابها ، تحت سناك خيله المدججة .

ولكم كانت دهشة الملك الغازي حسان اليانتي الكبرى وهو يرنو إليها من أعلى
هامة جواده ، ليتعرف عليها في لباس الحرب :

- امرأة ؟ !

- أجل امرأة . . أيها المتآمر . . المدجج بالليل والأشجار .

ضحك التبع حسان طويلاً ، إلى أن استلقى على قفاه .

- لم أضحك منذ زمن !

- غدا تضحكك الأيام والليالي أكثر فأكثر يا حسان .

وحين حاول جنوده الاعتداء على زرقاء اليمامة والإجهاز عليها منعهم بنفسه :

-دعوها فهي حليتي !

فما كان من زرقاء اليمامة إلا أن زحفت إلى أن قاربته ، بعد أن راقبت في عينيه نظرا إلى جمالها الباهر وذكائها المتوقد ، وذلك التحدى البديع الذى يغطى ملامحها وخلجاتها .

حتى إذا ما حاول التقرب منها ، طعته بخنجرها إلى حد جرحه ونزف دمه .

عندئذ عملت سيوف حرسه وفرسانه فى جسدها إلى أن قضت الزرقاء نحبها على تراب مدينتها اليمامة ترويه بدمها .

وجاء انتصار حسان اليماني الساحق على اليمامة المظلى بالخدعة والغدر وبالتالى كسر شوكة « جديس » على طول جزيرة العرب . مجرد فاتحة طريق لشهيته المتعطشة للدماء والتفوق على الآخرين ، ومن ثم الحفاظ على سلطة أسلافه « التباعة » .

فاجتاح نجران ودان له بحر العرب والعجم ، وأفنى أقواما وقبائل من العرب - التى عرفت فيما بعد بالبائدة ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة وكيانا منهم جديس ، وجهرم والعماليق ورائش وبقياء فلول طسم .

ولم يكتف بهذا ، بل تطلعت أنظاره الشرهة التى لا تعرف الاكتفاء إلى مواطن الزرع والضرع أو أرض « اللبن والعسل » فى الشام وفلسطين ، حرصا منه على الإبقاء على رايات السبئيين ، ومن انحدر من نسلهم من « التباعة » ملوك حمير وكهلان . الخفاقة مشرعة خفاقة .

فمن نسل حمير جاء ملوك بنى قضاة والكلابيين ، أما من الشق الثانى للتحالف أى كهلان ، فقد انحدرت سبع بطون . تضخموا إلى قبائل وأقوام ، وهم : طيء ومذحج ، وهمدان ، وكندة ، ومراد ، وأنهار ، والأزد .

ومن الأزد انحدر فيما بعد الغساسنة - ملوك الشام - عقب خراب سد مأرب . كما انحدرت منهم قبيلتا : الأوس والخزرج ملوك يثرب - أو المدينة المنورة - كذلك انحدرت قبائل خزاعة ، سدة أو « كهنة » الكعبة فيما قبل الإسلام .

فمن الأسلم التعرف على تلك البنية القبائلية القرابية التي انتظمت تحت رايات ذلك التبع الغازى حسان اليانئ . قبل إقدامه على نقل حروبه وفتوحاته خارج جزيرة العرب فى الشام وفلسطين وأفريقيا التي ستكون من نصيب ذى اليزن الذى رأى مصرع أبيه وشهده بعينه منذ أن كان رضيعا بين أحضان أمه ، مصرع والده « عمرو » ، حين جثا على أنفاسه أخوه الأكبر التبع حسان ، لاثما محتضنا فى البداية ، إلى أن استل خنجره من غمده وذبحه من الوريد إلى الوريد . وبعدها انقاد الملك التبع حسان لذلك الجنون الغاضب ، فمضى يمزق ملابسه - الملكية - ويهتك عرشه - أى عرش التباعة - بعدما امتدت يد الغدر والاعتيال لرقبة أخيه الوحيد المقرب « عمرو » .

ذلك أن الملك حسان ، وبعد أن انتظمت تحت راياته معظم تلك القبائل والأقوام بدأ يشاور وزيره الحكيم « حنظلة » سائلا ، بعد أن رضيت عنه حمير واعتلى عرش « التباعة » كاملا ودانت له أقوام وكيانات الجزيرة العربية :

هل هناك أعظم منى فى الأرض ؟

فأجابه وزيره حنظلة متحرجا :

- يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة ، يقال لهم « بنو قيس » أو القيسيون ، وهم من بنى مضر .

فاستشاط الملك حسان هائجا قائما عن عرشه نائرا فى وجه وزيره المنكمش الذى تراجع منزعجا من صراحته للتبع حسان ، وهو الذى لم يضلله يوما بخادعا ، استرضاء لمروءته :

- عفوا يامليكى . . إنها الحقيقة ليس إلا .

أعاد حسان صراخه المدوى فى ردهات قصره ، معترضا على ما تجرأ وزيره على البوح به فى مجلسه :

- أتقول الحقيقة ؟

لحظتها لاذ الوزير العجوز بالصمت ، بينما اندفع الملك حسان مقررا الحرب والخروج إلى ما وراء البحار متشدا :

- يقول التبع اليمنى المسمى . .
- بحسان فما للقول زورا .
- ملكى الأرض غصبا واقتدارا . .
- وصرت على ملوك الأرض سورا .
- وطاعتنى الممالك والقبائل . .
- وفرسان المعامع والنمورا .
- وقد أخبرت عن بطل عنيد . .
- شديد البأس جبار جسورا .
- فقالوا إنه يدعى ربيعة . .
- أمير قد حوى مدنا ودورا .
- تولى الأرض فى طول وعرض . .
- فكم أخرج وكم شيد قصورا .
- فقصدى اليوم أغزوه بجيشى . .
- وأترك أرضه قفرا وبورا .
- أسير بعدتلى إلى تلك الأراضى . .
- وأملك للقلاع وللقصورا .
- ويغنم عسكرى منهم مكاسب . .
- وأعطىهم بنات كالبدورا .
- فبقى الحكم لى برا وبحرا . .
- ويصفو خاطرى بعد الكدورا ! .

وحين حاول حنظلة الانسحاب ، استوقفه لي طرح عليه مدى أخطار ما هو مقبل عليه في تلك الحملة ذلك ان التغليين من بنى ربيعة سكان تلك البلاد ، وكذلك أبناء عمومتهم « بنى مرة » الذين عرفوا بالبكرين ، ما هم سوى شعوب بحرية ، ولن يتم الوصول إليهم سوى عن طريق البحر وهم سادته منذ أقدم العصور .

ومرة أخرى استشاط التبع حسان غضبا في وزيره المعارض لرغباته وطموحاته على ذلك النحو الصادم المحبط .

فما كان من الوزير حنظلة ، إلا أن شرح له أمر أولئك الأقوام ، ومدى وعورة الطريق إليهم ، وهم الذين جابوا ربع العالم القديم ببحاره ومحيطاته شرقا وغربا ، بسبب تجارتهم الواسعة وعمق معرفتهم بالبحر وأغواره .

وواصل الوزير العليم إخبار التبع بكل ما يعرفه ووصل إلي علمه عن « سكان الثغور » ومدى تفوقهم واتساع علمهم بكل صغيرة وكبيرة مجالها البحر وأخطاره .

يضاف إلى ذلك قدرة تلك الشعوب من « تغليين وموارنة » على القيام بالخدع والحيل ، التي أكسبتهم من قبل ، النصر على كل طامع في بلادهم وثرواتهم .

وفي النهاية تفهم الملك حسان مغزى حديث وزيره حنظلة ، وهو أهمية الإعداد البحري لتلك الحملة التي سيسيرها إلى الشام وفلسطين لحصارهما ، بالإضافة إلى حاجته الملحة والضرورية في الاستزادة بالمعرفة اليقينية لظروف وطباع ومدى بأس تلك الأقوام التي هو مقبل على غزوها .

وأبقى الوزير الحكيم حنظلة على تحذيره من ذلك الخطأ الجسيم ، وذلك في الإقدام على غزو أقوام ومحاربتهم لا تكتمل معرفته بها ، كما حدث في حروب الآسيويين على مشارف الصين ، ومدى ما تكبده الجيش اليمني من إحباط وخسائر .

وبهذا القول الحصيف تمكن الوزير من كبح جماح رغبات التبع حسان وطموحاته وحتى « لا تقع القأس في الرأس » كما حدث في السابق .

ومن هنا أرسل حسان برسله إلى تلك البلاد ليأتوه بأخبارها ودقائق مسالكها وحكامها :

كما أمر التبع حسان من فوره بالانكباب على تجهيز السفن والمراكب البحرية التى ستحملة وجنوده وعتاده ، إلى ربوع الشام ولبنان وفلسطين . حتى إذا ما استكمل بناء السفن والمراكب ، وعاد رسل الملك محملين بالأخبار والمعلومات عن كل صغيرة وكبيرة في ربوع الشام وفلسطين ، وأرسل الملك حسان بنفسه لى ابن أخته - الملك الرعينى - المعين من قبله على الحبشة والسودان ، يخبره بأهمية تجهيز المؤن والرجال لإمداد حملته في الشام وفلسطين ، وبعد ذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الملك للخروج بحملته ، بعد أن استقر رأيه الذى رجحته عمته البسوس ، بتعين ابنه الأكبر - الصحصاح بن حسان - ليخلفه مكانه على حكم حير ، فى غيابه .

وانشغلت البسوس بتعليمه وتلقينه نصائحها وتعاليمها بما يسهل عليه ملء فراغ أبيه فى غيبته

وكانت البسوس قد أولت كل رعايتها لابن ابن أخيها الأمير عمرو المقتول وهو ذو اليزن الصغير.



5

حصار الشام وفلسطين

وما أن انتهى التبع الغازى حسان اليمانى من إعداد سفنه ومراكبه التى وصل عددها إلى بضع مئات لنقل جنوده وكتائبه المحاربة لمحاصرة مدن الشام وفلسطين ، حتى تفرغ بمساعدة عمته « الأميرة البسوس » لتنصيب ابنه « الصحصاح » ليخلفه على حكم اليمن وبقية أقوام الجزيرة العربية التى تم له فتحها بحد السيف والخنزاع .

وهكذا تم إعداد الحملة ، وإرسال الرسل إلى حلفاء الملك حسان وولاته فى : « السودان والحبيشة والصومال » خاصة - ابن أخته - الملك الرعينى ، الذى سبق أن نصبه والده - تبع أسعد - لحكم هذه البلاد ، قبل إقدامه على حروبه فى ربوع آسيا الوسطى والشرق الأقصى وخيانة دليبه وحليفه الأسيرى الذى كاد يودى به وبجيسته . فطالب التبع حسان واليه الرعينى بإمداد الجيش بالمؤن والرجال ، حيث إنه فى طريقه إلى بلاد الشام لفتحها .

وفى البداية حاول الرعينى من جانبه إحاطته علما بمدى ما تنطوى عليه هذه المخاطرة الكبرى ، خاصة وهى تجيء فى أعقاب الهزيمة التى سبق أن منى بها جيش والده فى ربوع الصين ، « ودماء قتلائنا لم تجف بعد » إلا أن تشدد التبع حسان فى مطالبه للرعينى دفعت بالأخير إلى تلبيتها كاملة غير منقوصة .

وهكذا توافدت وحدات وكتائب المحاربين الأفارقة من سودانيين وأحباش وصوماليين على مقر الملك حسان ، بعتادها ومؤناتها وأسلحتها ، مما عضد من عزم التبع

حسان ، فأمر من فوره كبار قواده باستقبالهم وتهيئة مضاربهم ، وإعادة تدريبهم خاصة على أساليب الحرب والحصار البحرى الذى هم مقبلون عليه ، فى ربوع الشام وبلاد « السرو وعبادة » بوادى الأردن وفلسطين .

ومن جديد أقيمت المضارب والثكنات لإيواء القبائل المحاربة المتدفقة والقادمة من حول مأرب .

واستشار التبع حسان وزيره الأول « حنظلة » فى مسألة الاستعداد للرحيل البحرى ، عبر أقصر الطرق والمسالك التى ستقوده وجيشه بصورة آمنة إلى المناطق المطلوب فتحها فى الشام وفلسطين ، وبأقل خسائر ممكنة ، اعتمادا على عنصرى المباغته والحركة .

ورغم توجس الوزير الحكيم من الإقدام على تلك الحرب ، وماتنطوى عليه مغامرتها ، إلا أنه أثر - هذه المرة - التكتم الحذر على مشاعره ووجهة نظره حيال إصرار التبع وطموحاته التى لا تنتهى ، خاصة وأنه ليس هناك من أسباب حقيقية تدفع إلى اندلاع مثل هذه الحرب - عبر البحار - التى عادة ماتحمل فى طياتها الكثير من الأخطار التى لا طاقة لأحد على تحملها .

ولكم حاول الوزير المستشار التوسل بالعقلاء المقربين من الملك حسان لإثناؤه عن غرضه ، فلم يجرؤ أحد منهم على إعلان رأيه الصريح ، مقدما مصلحة « حمير » على أطماع الملك التبع الشخصية وشهوته الجارفة للتسلط .

فحتى عندما أفضى الوزير حنظلة بدفائن مشاعره حول تلك الحملة - المغامرة - للبسوس ، عمة التبع حسان ، التى لها الكلمة العليا فى مثل هذه الأحداث الجلييلة من هجرة وحرب ، أثرت الصمت بدلا من الاعتراض أو مجرد التروى وإعادة تدارس الأمر قائلة :

- أصبح الأمر متأخراً جداً ، بعدما عزم التبع على المسير ، وبعدهما جهز كل شىء .

غمغم الوزير متوجسا :

- على هذا النحو يجرى مصير حمير وأرواح رجالها وأقدارنا جميعا .

قالت :

-لعلك الأقدر من غيرك على معرفة معاندة التبع حسان وتصلبه .

عندئذ تنهد الوزير الأول :

-إذن ليكن مايكون .

حتى إذا مادقت طبول الحرب واعتلى الملك حسان اليانئ سفينة المقدمة ، مودعا الجماهير الغفيرة التى لا يحدها بصر ، انطلقت السفن باتجاه ساحل الشام وفلسطين بغرض فرض الحصار البحرى وإعلان الحرب على التغليين من بنى ربيعة وبنى مرة .

قال الراوى :

وكان ربيعة - أى أمير بنى ربيعة - فى ذلك الزمان من كبار أمراء العربان . وكان أخوه « مرة » - انتسابا إلى بنى مرة أو الموارنة - من الأمراء والأعيان .

« وكانت منازلهم فى أطراف بلاد الشام ، وكانا - أى ربيعة ومرة - يحكمان قبيلتين من العرب هما بكر وتغلب . وقد ولد لربيعة خمسة أولاد مثل الأقمار وهم : كليب الأسد الكرار ، وسالم البطل الشهير الملقب بالزير ، وعدى ودرعان وغيرهم من الشجعان »

« وأما أخوه الأمير « مرة » فله بدوره عدة أبناء شجعان ، منهم : همام وسلطان وجساس ، وبنت نبيلة جميلة يقال لها (الجليلة) » .

وعلى عادة ما هو متبع بالنسبة إلى التزاوج القبائلى - وبالتالي السياسى - المتبادل بين القبائل المتحالفة وأبناء العمومة ، فقد تزوج الأمير همام بن مرة بـ « الضباع » من بنى تغلب .

وأحب كليب الجليلة بنت مرة ، وكان يجرى التجهيز لزواجهما ، بعد أن فاتح والده - ربيعة - والدها - أى والد الجليلة - الأمير مرة فى أمر زواجهما ، حين انتقل إليه من فلسطين ووادى الأردن . إلى بيروت والبقاع .

فما كان من « الأمير مرة » إلا مباركة الأمر سوى أنه لزم الصمت مفكرا فى كيفية حمل الخبر إلى ابنته - الجليلة - وإقناعها .

فهو يعرف عن ابنته الكبرى الجلييلة ، مدى صلابة شخصيتها ودقة اختيارها لمصيرها خاصة إذا ما كان الأمر متصلا بما يهفو إليه قلبها من حب وزواج .

حتى إذا ما أقدم على مفاحتها . رحبت من كل قلبها بالزواج من الأمير كليب بن ربيعة محتضنة والدها في حنو بالغ . إلى أن فوجيء الجميع بذلك الخبر الدامى المفزع الذى روعت له بلاد الشام وفلسطين ، وهو اقتراب الحشود البحرية التابعة للملك التبع حسان اليماني الذى يعمل تحت إمرته عشرة من ملوك جزيرة العرب الأشداء

وهكذا وقع خبر الغزوة البحرية للتبع حسان كصاعقة مفاجئة صادمة للجميع ، وبخاصة لكليب بن ربيعة التغلبي وحبيبته الجلييلة بنت مرة ، وهما يتأهبان لعقد القران الذى أصبح حديث البشر من عامة لخاصة في ربوع لبنان ودمشق وفلسطين .

وتوالت أخبار الجيش الغازى فيما بعد . وكيف أنه انقسم إلى قسمين كبيرين . ميمنة وميسرة . . متملكين خلال زحفهما على طول الشواطىء ما يقابلها من مدن ويقاع «بحد السيف المهند . حتى إنهم ملكوا معظم البلاد وأطاعتهم العباد» .

« هكذا ضرب التبع المستبد الغازى حصاره البحرى حول بلاد الشام ، فأحاط بها من جميع الجوانب بالمراكب والكتائب » .

إلا أن تملك العاصمة السورية دمشق قد جرى إنقاصه برا . وكان واليها من قبل الملك ربيعة ، يدعى «زيد بن علام» . الذى قاتل قتالا مريرا . وألحق الكثير من الهزائم بجند التبع حسان . الذى حاول بكل الطرق والوسائل استمالته ومحالفته دون جدوى .

كما أن التبع حسان بعدما عانى طويلا فى حصار دمشق ، أرسل لرأس بنى ربيعة طالبا مفاوضته . إلا أن الأمير ربيعة رفض تماما الدخول معه فى مفاوضات أو حتى مجرد اللقاء به ، طالما أن التبع اليمنى قد جاءهم غازيا . وواصل حربه واختراق حصاره وإلحاق أفدح الخسائر بجنده وعتاده البحرى ، مما دفع بالتبع الغازى الى اللجوء إلى الحيلة والمكيدة فاتجه من فوره إلى بنى مرة - فى لبنان - لاستمالتهم مقدما تنازلاته المرضية

للقيسيين في الحجاز ولبنان ، فعين الأمير « مرة » والد جساس وإيا على تلك البلاد .
وكان « يسكن مع قومه في نواحي بيروت ويعلمك والبقاع » .

وجعل واليه الأمير القيسي « عيس » أميرا على فلسطين وبلاد السرو وعبادة ، وهي
مملكة النبطيين أو العرب الأنباط الأردنيين .

كما أقام التابع الغازي حسان . واليه الأمير المسمى « عدنان » على الفرقة أو الجزء
الثالث المتبقى من جيشه الغازي . على « أن يقيم في العراق بتلك المنازل والآفاق .

وهكذا تفرغ التابع الغازي لمحاربة التغلييين من بني ربيعة فشتت فلولهم في السهول
والوهاد . مجندا كل طاقاته وأياديه الطولى للحاق برأسهم المدبر ، وهو الأمير ربيعة
وولده الأمير كليب .

فلم يهنا للملك حسان بال . طالما أن بذرة المقاومة ماتزال مستعرة ممثلة في ربيعة
وابنه الأكبر كليب . ومن حوّلها الرافضون^(١) لعدوانه المتسلط على بلادهم .

إلا أن التابع تمكن من أسر « ربيعة » والد كليب . حين أمر رجاله بإلقاء القبض
عليه « ومن معه من بني قيس الطناجير ، فقيدوهم في الحديد والجنائز ، وشنق الأمير
ربيعة وصلبه على بوابات دمشق » .

وأمر حراسه وعيونه بإلقاء القبض على من يبيكه مصلوبا ، أو يرثيه بيت أو شطر
من شعر .

عندئذ فقط وبعد تخلصه من رأس المقاومة وهو الأمير التغليي « ربيعة » . « صفا
بال التابع حسان ، فشيد لنفسه قصرا حصينا مرتفع البنيان ، جعل أبوابه من الذهب
والفضة » .

وهكذا استرخى طويلا وعن رضاء معتليا كرمى التباعدة العظام ، لا يشغل باله
سوى البحث والغوص في مختلف اللذائذ التي تفيض بها وتطرحها بلاد الشام وفلسطين
.. أرض اللبن والعسل .

(١) من الفلسطينيين « المؤلف » .

وهو مالم يرض عنه أبدا وزيره الحكيم « حنظلة » . الذي كثيرا ماتسلل إليه بالنقاش بهدف محاولة إثنائه عن الاسترخاء الذي أصبح فيه التبع حسان ، فمن الأفضل وبعد تحقيق هدف الحملة ، العودة إلى ربوع اليمن والجنوب العربي ، على ألا تغيب العيون الساهرة على الحفاظ على ذلك الفتح وتعزيزه في هذه البلاد والوهاد .

بل لقد توسل الوزير حنظلة لتعزيز رأيه ذاك بعمته البسوس ، التي رجحته إلى حد أنها كررت عليه طلب العودة إلى ربوع اليمن ، ولكنها عبثا حاولت لإصراره على عدم العودة

فلقد كان حنظلة على شاكلة زرقاء اليمامة . التي أرداها التبع تحت سنابك خيله وهي تكيل له السباب :

- الغلبة لله . . أيها الخصي .

كان مستبصرا بالخطر الكامن المستتر البادي في الأفق الذي أصبحت - تبيته - هذه البلاد الشاسعة المتضاربة التضاريس ، مابين البحر الهائج المتمرد ، والبوادي وحياة المدن والجبال الشاهقة ، والتي لن يهدأ لأهلها بال إلا بطرد الغزاة واسترداد أراضيهم وكياناتهم ، مهما طال البقاء للتبع وصفا باله وزمانه .

وكان للوزير الحكيم كل الحق في تصويره الذي تمرد عليه التبع المفتون بما حققت سواعده .

ذلك أن التغلبين ومجاورهم من بنى مرة ، كانوا قد عقدوا النية والمقصد على الانتقام لموتاهم وتحرير بلداتهم من مدخل « الحيلة والخداع » الذي شرعه وتبيحه كل حرب ، بدلا من المواجهة غير المتكافئة مع التبع الغازي وجيشه والتي أصبح لا طائل منها .

وهكذا تربصوا في الخفاء للانتقام ، بينما أظهروا الخضوع ومداينة التبع علنا وفي وضوح النهار.

وجاءتهم فرصتهم سانحة دون كثير عناء ذات يوم حين وصلت إلى أذني التبع حسان أخبار ذلك الزواج - السياسي - بين الأمير كليب بن ربيعة الذي اغتال التبع

والده صلبا على بوابات دمشق ، وبين ابنة عمه الاميرة الجليلة بنت مرة ، التى تحدث الشعراء بجملها وفتنتها الآسرة .

فما كان من التبع إلا أنه استشاط غضبا وطلب عدم إتمام الزواج مهما كلف الأمر من تضحيات .

بل أرسل من فوره يخبر والدها باستعداده هو ذاته - حسان - للزواج من الجليلة ، بدلا من ذلك « العاصى » المدعو كليب .

من هنا حانت ساعة انتقام « كليب » من التبع واقترب موعد تنفيذها بكل حرص ، معلنا للأمير « مرة » والد الجليلة ، مدى حرصه على أهمية التعجيل بهذا العرس - العجب - بين خطيبته وحبيبته الجليلة وبين ذلك الملك حسان المنتصر ، معلنا فى تهكم :

- أين نحن من عتبات الملك حسان وتزايد عجب الأمير مرة أكثر ، حين طالبتة الجليلة ذاتها . التعجيل بإرسال موافقتها على الزواج من التبع حسان .

بل هما - أى كليب والجليلة - وضعوا خططهما لإتمام ذلك العرس ، ودعما خططهما بإرسال مختلف الشعراء والدلائن الذين لاهم لهم سوى التحدث بمحاسن الجليلة ومفاتنها وصوتها الشجى النادر الذى تحن له طيور السماء الصداحة قبل البشر .

أما التبع حسان فكان كلما وصلته أخبار الجليلة ومدى حسننها وبديع شهاثها كلما تزايدت لوعته ولهفته ليحوزها حليلة ، محققا بذلك هدفين :

أولهما الحيلولة دون إتمام ذلك الزواج بين الجليلة ابنة الأمير مرة حليفه وواليه على بيروت وطرابلس والبقاع ، وبين ذلك « المارق » الذى سبق له صلب والده ربيعة .

وتانيهما هو الاستحواذ على تلك الأميرة الباهرة الجمال والشأثل الجليلة بنت مرة ، طالما أنه عقد النية على حكم بلدانه الشاسعة من مقره الذى راق له بدمشق فى بلاد الشام .

6

تحقق نبوءة زرقاء اليمامة

طغى الملك التبع اليمنى حسان بن أسعد ، عقب استيلائه على ربوع الشام ووادي الأردن ولبنان وفلسطين ، في حملة مباغته غادرة ، أراد بها أن تكون مجرد مهرب ليس إلا من ذلك الذنب الغائر عميق الجذور الذى تسلط عليه عقب إقدامه على قتل شقيقه الوحيد عمرو .

كذلك جاءت هذه الحملة في أعقاب اجتياح جنوده ليلا متخذين من أغصان الأشجار خباء ، لقوم « زرقاء اليمامة » وما أحرزوه من نصر اختلسه التبع حسان اختلاسا ، والناس نيام .

من هنا حق له وبعدها خفت كل الأصوات المعارضة في دمشق وفلسطين من التغليبيين ، وبعد مهادنته « لبنى مرة » في ربوع لبنان ، أن يتضاعف عسفه وطغيانه ، وانحرافه في ملذاته المتسمة بالجشع .

ومن هنا أيضا جاءت استرخاءة التبع الغازى حسان البيانى ، التى أقلت إلى حد الفزع وزيره الأول حنظلة الذى حاول جاهدا تبصيره بمغبة تلك الحالة التى استسلم لها - التبع - وسرت عدواها بالتالى في جسد جيشه الغازى ، بل ومن بقاء لاطائل منه ولا نفع في ربوع تلك البلاد .

كان الوزير الأول واسع المعرفة - على أقل تقدير - بطبائع المهزومين ، خاصة على طول تلك البلاد والوهاد ، وما يمكن أن يدبروه ويحكيوه في الخفاء ، ستفصح عنه الأيام

والليلالى الحبلى بحسب توقع أميرة اليامة « الزرقاء » وسبابها حين واجهته جريجة تنزف
تحت سنابك خيله فى دروب اليامة ليلا :

- غداً تريك الأيام والليلالى الحبلى يا حسان الكثير من خباياها .

كان الوزير على دراية بمدى فداحه الكارثة التى تنتظر التبع ورجاله ، فى دمشق
ولبنان وفلسطين مسراً لنفسه :

- أحقا ما يحدث . . يالها من كارثة .

فهى فعلا كارثة لابد وأن يصادفها - يوما - كل غافل . . أو مغفل :

- مثلما حدث تماما لأبيه التبع أسعد حين واصلت جيوشه الزاحفة مشارف الصين
إلى حين استسلامه مسلما مقاليد أموره ، لأحد الملوك الآسيويين الأسرى الذى اتخذه
دليلا وحافظا لأسراره يسيره على هواه ، فما كان منه إلا أن ضلله وضلل جيشه لسنوات
فى ربوع الشرق الأقصى ، فكان انسحابه وموته - المبكر - حزنا وكمدا .

وها هو التاريخ يعيد نفسه تماما مثلما حصل مع الأب أسعد الذى غرق فى غفلته
وترك دليله « مقطوع اللسان » يتحكم فيه كما شاء ، ثم ليغرق الابن - حسان - فى غفلة
مماثلة مع قبيلة بنى مرة التى أسلم قياده لها طالبا مصاهرتها بالزواج عنوة من أميرتها
« الجليلة بنت مرة » ضاربا عرض الحائط بقصة حبها ، التى باتت مضرب الأمثال ،
لابن عمها الفلسطينى كليب بن ربيعة الذى صلب والده على بوابات دمشق عاريا
مسمرًا على مرأى ومشهد من سكانها الدمشقيين :

- ما الجدوى ؟

وهو - أى التبع - يعرف أكثر من غيره مدى دموية أولئك الأقوام فى دمشق
وفلسطين وتربصهم للانتقام مهما طال الزمن .

منذ أن عزم التبع حسان على مصاهرة « آل مرة » وبعد أن فشلت محاولات الوزير
حظظة فى تغيير رأيه عقد النية على مجرد تلبية كل أوامره ورغباته التى أصبحت لا تنتهى :

ما يأمر به . . مشيرا !

بدءا من تحضير قوافل الجمال والخيول المحملة بأكياس وصناديق الهدايا التي كانت تنوء بثقلها الجمال ، بحيث أثر الجميع استخدام الفيلة المجلوبة من مجاهل الهند والبنغال والتركستان ، مرورا بالعزائم والحفلات والاستقبالات التي لا تنتهى تكريرا لآل مرة وانتهاء بالعرس المرتقب الذى لن يقتصر الأمر فيه على الحفلات وإعداد المأكولات والمشروبات ، بل سيشمل أيضا بناء القصور والسرايا وتأثيثها وتزيينها احتفالا « بعرس التبع » الذى أصبح يترقبه الجميع فى دمشق وبيروت وعمان والقدس واليامة وتدمر ووادى الحجاز ، ناهيك عن اليمن ومدنها فى حضر موت وسبأ وتعز ومعين وقيتبان .

فها هى الجموع تتطلع متلهفة إلى عرس التبع من الجليلة بنت مرة التى كان الصغير والكبير يتحدثان عن ندرتها وفروسياتها - بين نساء العالم :

تقول العجوزة التى شاهدت ،
 مليحة تريح العنا والصدور ،
 يا أمير تبع يداك فيها السعد ،
 وأقبل الخير لك والسعود ،
 أتوك « بنو قيس » أهل السباح
 وجابوا لك الخيل ثم النقود ،
 وجابوا « الجليلة » لشخصك حليمة ،
 بخدين حمر وعينين سود ،
 وقامة طويلة كعود القنا ،
 فوق الكتاف ترخى الجعود ،
 بشعر طويل ورمش كحيل ،
 بلا جر ميل تصيد الأسود ،
 وذات شفايف رقاق نظاف ،

عقايل طرايف تزيل النكود ،
 لها وجه كبدر بليلة قدر ،
 ووجنات حمر كما الورود ،
 وجسم رقيق وريق رحيق ،
 وأسنان لولو سبت الورود ،
 لها عنق كعنق الغزال ،
 وطوق الذهب يوقد وقود ،
 كتاف كالعاج كمثّل الزجاج ،
 والنقش موج فوق الزنود ،
 وكفان أطرى من الياسمين ،
 من قد حواها ينال السعود ،

وهكذا أسلم الملك حسان كل حواسه ، لمن يأتيه بجديد عن مدى حسن عروسه
 المرتقبة الجليلة بنت مرة وروعته .

لذا توافدت الوفود من كل صوب على قصر التبع تلهج متغنية بمحاسن الجليلة
 ومآثرها التي لا تقتصر بحال عند الجماليات البدنية ، بل من حيث راحة عقلها
 وصائب حكمته وشعرها وغنائها وفروسيته في الصيد والقنص ، عبر غابات أرز لبنان
 ومروجه المكتظة بالأشجار .

وهكذا تغنى الجميع بالعروس المرتقبة على عتبات قصر التبع الغازي :

قد زين بنو قيس لك عروسا
 تحبّي لأجلك كل هم وقود ،
 للمك حقا قد أحضروا
 مليحة خلاها تزيل الحقود

فارسل وراءها وخلي المحال

واسمع كلامى واجلى الصدود .

وخلال تصاعد تلك الحمى المستعرة بالغناء والإنشاد للإعلاء من شأن الجليلة بنت مرة ومحاسنها ، كل ليلة على بوابات وأعتاب قصر التبع ، لم يجد الوزير الحكيم «حنظلة» منفذا لإعادة اجتذاب اتهامات الملك لشئون حكم تلك البلاد المترامية الأطراف .

ومن هنا تزايدت المشاكل ، متراكمة بلا حلول ، سواء على طول ربوع بلاد الشام ، أو ما يستجد من صراعات في اليمن وجنوب الجزيرة والسودان والقرن الأفريقى .

بل إن التبع أثر تكثيف وقته بكامله للاستعداد لإقامة عرسه المرتقب وتلبية رغبات - العروس - التى لا تنتهى . فهى لم تعد مقصورة على الهدايا وإقامة القصور والبساتين وشق الطرق ، بل تعدت كل هذا لتصل إلى أخص خصائص الحكم ذاته ، بتعيين مقربيها على طول المدن والثغور والبوادي والحصون ، إلى درجة دفعت بالوزير «حنظلة» إلى التساؤل الملح ، عن أحقية تلك المرأة في مد وإرساء أصابعها العشرة في كل شئون الحكم وهى ماتزال بعد خارج جنبات هذا القصر - الحاكم - تساءل

- ترى ما الذى ستفعله يوما ، حين تترجع على هامة عرش التباعة ؟

من يدري ، بل من يمكن له مجرد النطق بأهوال الكارثة المنتظرة المخيمة التى ستحل على رؤوس الجميع .

غمغم الوزير لنفسه متحسرا :

- من يدري بأبعاد وأهداف سيطرة بنى مرة عن طريق تدعيم رجالهم وأعوانهم على طول البلاد وعرضها ، ثم ذلك الفشل الذى منى به التبع والجميع على مدى الشهور الأخيرة ، لاستطلاع ما حل بخطيتها السابق :

- كليب بن ربيعة !

ذلك اللغز الكبير الذى تقطعت أخباره على حين غرة ، فلم يعد اسمه الذى لم يكن لينقطع له دوى يسمع أو ينطق به أى لسان .

- ما الذى يحدث . . فى الخفاء ؟

على هذا النحو واصل الوزير « حنظلة » طرح تساؤلاته بينه وبين نفسه ، دون أن يفصح عنها للتبع حسان لامن قريب ولا من بعيد بعد أن أعيته كل الحيل فى تبصيره ، بما أصبحت حقا تحبئه الأيام والليالى ، على حد قول ، تلك الأميرة المقتولة :
-زرقاء اليمامة .

وهكذا أعطى الملك حسان سمعيه - وقبل كل شىء - لكل من يجيئه بأخبار الجلييلة ورجاحة عقلها وشعرها ومعلقاتها المتداولة عنها ، حتى إذا ما كتبت تحاطبه مرة ، أطارت صوابه برصانة شعرها وموسيقاه ، والأدهى من ذلك صوتها ومدى نقائه وطلاوته ، كما حدثه بهذا الجميع :

مقالات الجلييلة بنت مرة ،

حسان . . أنت قيدوم السرايا ،

تحكم فى القبائل والعشائر ،

كل المدائن والقرايا ،

وحكمك نافذ فى كل أرض ،

وتخدمك القبائل مع الرعايا .

لكم حلم التبّع حسان بأن يسمعها (أى الجلييلة) تغنى له ليلا معلقته عنه بصوتها الشجى الذى يشمخ فى نبرته شموخ أرز لبنان .

وها هى الجلييلة بذاتها أصبحت فى الطريق إليه محملة بمئات الصناديق من هداياها وممتلكاتها وخيولها وهوادجها ، لتحط على عتبات قصر التبّع .

وهكذا انشغلت العاصمة دمشق عن بكرة أبيها تبيت وتصحو على انتظار العروس وما تحمله ، ليأتى العرس بعدها بصخبه وسمره ومباهجه التى لا تنتهى .

- تلك الليلة الليلاء . . المرتقبة .

ولعلها فعلا ستكون ليلة ليلاء بعدما أصبحت هاجس أفكار الوزير حنظلة ، دون ان يعرف لذلك سببا واضحا :

- هل حقا ما يحدث ويجرى ، أن تصفو القلوب بين الأغنام والذئاب على هذا النحو؟ !

تساءل الوزير وهو يدور في جنبات القصر الشاهق صادرا تعليماته وأوامره التي تلقاها من التبع بحيث يجرى تنفيذها بكل دقة وحزم ، مع مراعاة اليقظة الكاملة لخبايا تلك الليلة المنتظرة التي أصبح يتوقعها الجميع على أحر من الجمر .

فالتبع الغائب عن كل وعى وإدراك ، أصبح لا حلم له على طول ملكه المتراعى سوى انتظار تلك الليلة التي ستأتيه بالجليلة بنت مرة .

وهنا يكون قد حقق هدفين بحجر واحد ، أولهما استحواذه على الجليلة بنت مرة بجملها ومواهبها ومدى الشعبية الجارفة التي تتمتع بها على طول هذه البلاد التي جاءها غازيا فاتحا .

ثانيهما هو نجاحه في ضرب وفرط عقد ذلك التحالف بين « بنى مرة » وبين « بنى ربيعة » التغلبين الفلسطينيين :

- وهو ما لم يدركه الجميع .

هكذا أسر الملك حسان لنفسه ، مبرا مدى انكبابه على استعدادات التحضير لعرسه وزواجه من ابنة آل مرة

بل وبهذا المنطق المتعقل نفسه واجه التبع حسان وزيره المقرب « حنظلة » في محاولة لتبصيره بأهدافه من إنجاح خطوات ومراحل هذا الزواج بالشكل اللائق ، واعداد ومتعهدها بالتفرغ لحل كل ما استجد من مشاكل ، وعلى رأسها بالطبع تشتيت فلول « بنى ربيعة » وأميرهم المتمرد في شعاب الجبال المحيطة :

- كليب بن ربيعة ، وشقيقه الأصغر الملقب بسالم أو الزير سالم .

فكيف للملك حسان ، أن يغفل لحظة عن كليب ، وذلك الانتقام المبيت له ،
 خاصة وهو الذى - أى حسان - سبق له صلب والده - ربيعة - على بوابات دمشق .
 بل إن التبع أرسل فعلا بقواده وعيونه من كل حذب وصوب لترصد أخبار كليب
 وتصيده أينما كان ، فى لبنان أو وادى الأردن وفلسطين أو شمال الجزيرة العربية .
 لكن الغريب هو انقطاع أخبار كليب وكل أثر له من كل تلك البقاع والوهاد ،
 خاصة عقب إعلان التبع الزواج من الجليلة - خطيبة كليب السابقة - وموافقة أهلها
 وموافقتها هى ذاتها على ذلك .
 وهكذا فشلت كل محاولات التبع حسان للإيقاع بكليب ، أو حتى مجرد معرفة
 ماحل به ، سواء عقب مقتل والده ، أو عقب تخلى الجليلة بنت مرة عنه ، مفضلة
 الارتباط والزواج بالملك الغازى المنتصر:
 - فلعله الآن ، نهبا لأحقاده ينهشه الندم .
 لكن كيف للتبع حسان أن يهدأ بالا ، طالما كليب بن ربيعة حر طليق ، هو ورجاله
 من بنى ربيعة .
 كيف له ان يهدأ ويصفو بالا ، وهو الذى سبق له التمثيل بأبيه وإخوته باستثنائه هو
 وها هو اليوم يسلبه حبيبة قلبه ، الجليلة بنت مرة ، التى أصبح ينام ويصحو على أخبار
 محاسنها ، وهى فى الطريق إليه إلى دمشق وغوطتها الساحرة .



7

خديعة التبع المتعبر

كانت خطة الأمير الفلسطيني « كليب » التى رسم أبعادها وخطواتها مع حبيبته «الجليلة بنت مرة» تتمثل أولا فى قبولها وترحيبها الشديد بالزواج من الملك التبع حسان :

- فليس فى الوجود كله ، من هى أحسن وأرفع حظاً منى . . أن تمتد إلى شخصى الضعيف أنامل « ملك الملوك التبع حسان » .

باغت كليب الجليلة مقررا :

- وأرجو ان تنسينى تماما ، وكما لو أننا لم نلتق من قبل .

- كيف ؟

- سأختفى عن كل الأنظار .

تساءلت الجليلة وهى تتطلع ببصرها عبر الأفق اللانهائى غير مصدقة :

- كل الأنظار . . أين ؟

قاربها كليب مهونا وهو يأخذ أناملها بين كفيه فى حنو :

- سأخبرك يا جليلة فى الوقت الملائم بمخبئى وأين سأكون .

أعادت الجليلة التساؤل :

-وحدك ؟

- لا . . بل أنا ورجالى الذين سأعيد اختيارهم هذه المرة بكل حذر .

من جديد قاربته الجليلة فزعة مما يحدث :

- لكنك تعرف ياكليب أكثر من غيرك ، بمدى الخطر الكبير الذى لا مهرب منه .
فالتبع لاینام الليل بحثا عنك ، ورجاله وعيونه وبصاصوه أصبحوا لايتركون شبرا فى
الأرض بحثا عنك . . وعن رجالك .

ابتعدت الجليلة قليلا عنه محتطفة حقيرة من أحد الأركان ، مخرجة مجموعة
من الأوراق - الجلدية - دفعت بها إلى كليب قائلة :

- وهذا ماتوصل اليه رجالنا ، وعاد إلى به رسل من داخل القصر الحاكم ذاته . .
ولك أن تتصور بنفسك عقب قراءة كل هذه المدونات ، مدى ماوصل إليه جنونه
للإمساك بك .

تناول كليب لفة المخطوطات التى دفعت بها الجليلة بنت مرة إليه ليدفع بها بدوره إلى
أحد حرسه و« ناطورجيته » الذى تناولها متعجلا جاريا معاودا حراسته وتطلعه عبر
جهات الأفق الأربع ، معتليا أعلى ربوة مشرفة على مكان لقائهما فى تلك الليلة التى
غاب قمرها .

كانا يجلسان على شاطئ البحر ، داخل كشك تحيط به حديقة قصيرة الشجر ،
على ربوة عالية مشرفة على البحر الهادر المتلاطم الذى تحده فى شبه قوس مراكب الملك
الغازى حسان على طول مرمى البصر ومن الجهات كافة . وجرى لقاء كليب والجليلة
بأقصى درجات « الحيلة والسرية » بعيدا عن عيون الملك ، وبصاصيه المندسين فى كل
شق ، بحثا - وقبل كل شئ عن كليب ، بعد صلب التبع حسان لوالده الأمير ربيعة
على بوابات « أمية » عاريا مقلوب الرأس رغم انه كان نصف ضرير .

كما تم اللقاء بينهما فى أقاصى فلسطين ، فى مدينة عكا بالذات التى قدمت إليها
الجليلة سرا متخفية تمتطية حمارا :

- أنساك ؟

واجهته بسؤالها هذا فى مكمنه وهى تركز أنظارها على فرورة رأسه وشعره المجعد الأسود المسترسل على حلقات حول وجهه المتوقد بذلك الذكاء المشع والطافح بعلامات الجمال والرجولة التى لا يكل منها أى نظر .

عادت الجلييلة تنقل نظرها بين كليب وبين سفن التبع الراسية فى البحر بأضوائها المنعكسة على صفحة المياه نتيجة النيران التى أوقدها بحارتها التى طاول بعضها عنان السماء فى ليلة الصيف تلك كى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها . فبدت انعكاسات اللهب أشبه بمليون أفعى مجنونة تلهب ظهر البحر بسياط من ضوء .

وعادت الجلييلة تسأل :

- أنساك يا محفوظ (أحد ألقابه الكثيرة) . . كيف ؟

ولن أزورك حتى هنا فى عكا ؟

- لن تجدينى فى عكا ، بعد الليلة .

- سيظل قلبى معك أينما كنت .

- ولكن هكذا سنقتل معاً إن لم يكن اليوم فغداً

فوجئت الجلييلة بذلك كمن تستيقظ من حبه وسباتها متسائلة :

- نقتل ؟

قاربها كليب إلى أن احتوى وجهها المعبر اليقظ بين كفيه الدافئتين :

- جلييلة لا تخافى ، وبإيجاز دعينى أكرر لك إنسى من الآن ما بيننا .

انفلتت من بين يديه جارية نحو الماء وهى فى حالة من الذعر الكامل كمن يعانى من نزيف حاد جاء على حين غرة :

- معنى ذلك أنك ستلقى بى فى أحضان ذلك التبع لأصبح ضمن حريمه ونسائه وخصيانه ، أليس كذلك يا محفوظ ؟ (١)

(١) أحد أسماء كليب .

اندفع إليها كليب مقارباً موضحاً ، وقد عرف قصدها وما يعتريها من اضطراب
وسوء فهم :

- الاول نخلص بأقل خسائر من ذلك الطاغية . . حسان .

واجهته :

- وبعدها ؟

- نحكم هذا العالم معاً . . يا جليلتى .

تطلعت الجلييلة ببصرها نحو البحر الهادر والافق الرحب وهى تشعر بحب غامر
وشوق عارم نحو ابن عمها كليب وكانها فى تيه حقيقى .

فلقد كانت الجلييلة بنت مرة تجمع بين دفتى شخصيتها الى جانب ذلك الجمال
الأنثوى الباهر ، المجلل باتساع المعرفة فيما أنشدته وعرف عنها من أشعار ومعلقات ،
انتشرت إيقاعاتها بين جموع البشر وبكل ماعرف عنها من رصانة أقوالها ومنظوماتها :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا ،

تعجلى باللوم حتى تسألى ،

فإذا أنت تبينت الذى

يوجب اللوم . . فلومى وأعدلى ،

وإذا أخت امرئ ليمت على

شقق منها عليه . . فافعلى ،

لم تكن لطموحات الجلييلة بنت مرة حدود تقف عندها لذا آثرت الاكتفاء بما قاله
كليب لها حيث اعتبرته نوعاً من الضمانة التى بموجبها ستواصل مسيرتها المحفوفة
بالأخطار كى تنفذ غاياتها كافة والتى منها الاستحواذ على سلطة ذلك التبع الطاغية .

أما كليب المنكوب فى مصرع أبيه أمير بنى ربيعة والفار من وجه سلطة الطاغية فهو
بالطبع الأكثر حيلة ودهاء وبالتالى مناوئته للخلاص من نير الظلم الذى حل بربوع

هذه البلاد ، بجبالها ووهادها وبحارها ، إثر الغزوة الضارية المفاجئة التي حلت مثل كابوس ثقيل لا قبل لأحد به ، وهما على مشارف الأسابيع الأخيرة لعرضهما وزواجهما الذي كان قد طال أجله .

وهو الزواج الذي تعاهد عليه القومان - بنى مرة في لبنان ، وبنى ربيعة في فلسطين - ليكون آخر المطاف ونهاية لتلك الحروب والمنازلات والغزوات التي كانت مستمرة بينهما ، لسنوات طويلة سوداء ، عانى منها الفريقان الأمرين .

أما ما غاب عن أذهان الجميع ، خاصة والديهما - ربيعة ومرة - حين تعاهدا على ذلك الزواج - السياسى - ، هو حكاية حبهما الجارف معا الذى ولد معهما - الجليلة وكليب - منذ مطلع شبابهما ، على مشارف بيروت ، ووهاد صور ، ومروج البقاع ، حيث كان يتم لقاءهما معا . وكأنهما بهذا إنما يتحديان تلك الحروب والمناوشات والغزوات الملفقة بين قوميهما .

إلى أن حانت مناسبة الاتفاق على زواجهما فضحكا معا طويلا ، بل إن كليبا داعب والده وشيوخ قبائله في البداية برفضه ذلك الزواج المصطنع إذ كيف له الرضوخ وتقبل الزواج من فتاة - بيروتية - لم يرها أو يسمع بها أو يهفو إليها قلبه .

وهنا دبر له بعض شيوخ قومه وأبناء عمومته أمر لقائه بالعروس الشاعرة الباهرة الجمال التى تلهج الشفاه والأفواه بمحاسنها على طول البلاد وعرضها ، حتى إذا ماتيسر لقاءهما ضحكا طويلا معا حتى استلقيا على ظهوريهما .

بل إن الجليلة بنت مرة استعذبت تلك اللعبة طويلا ، التى تتيح لها فى كل مرة الالتقاء - بحبيبيها - كليب على مرأى من الجميع ، حتى ترضى عن اقتناع من الزواج وربط مصيرها الأزلى به :

- فأنا لست سلعة أو بضاعة لإيقاف رضى الحرب على جثتى !

حتى إذا ما افتضح فى النهاية أمر لعبتهما وعبثهما تنفس الجميع الصعداء مستبشرين بوضع حد لتلك الغزوات والمنازعات بين أبناء « البيت الواحد » فأنشد الشعراء الجوالون

وتغنوا بقصة حب الجلييلة بنت مرة وكليب . . المرافقة للسلم بدلا من الحرب والعدوان .

إلى أن حل بالجميع ذلك العدوان الغاشم الذى قاده التبع حسان اليماني ، فجاء ضاريا مؤذياً بأمن الجميع .

كان والد الجلييلة الأمير « مرة » المتعاون مع التبع قد أعطاه كلمته بتجهيز الجلييلة له .
وها هى الجلييلة ستزف إليه .

هنا انتصبت الجلييلة كمن تحتضن هواء البحر بأكمله فائلة لكليب :
- ها أنا جاهزة .

استدارت فى أقصى كمدها مقاربة كليب المتنمر فى إثرها معلنة .
- العروس

واجهها كليب بدوره قائلاً :

- إذن فلن يعرف أحد .

غمغت :

- سوى العروس !

هنا اجتذبتها كليب من يدها إلى دأب الكشك المزين بأشجار الورود والرياحين جنباً إلى جنب مع اللبلاب بعيداً عن العيون ليزف إليها بتفاصيل الخطة .

وتقضى الخطة بأن يجرى تجهيز العروس الفاتنة ذائعة الصيت والجمال وزينة كل النساء بحيث تأتى من بيروت إلى حيث عاصمة التبع حسان فى دمشق ، محملة بهوادجها وخيولها المطهمة وصناديقها الثقيلة مع جوقه من وصيفاتها وغللمانها ، بما يسمح بتسلل الكثير من رجال كليب المقاتلين الممتازين ، فى الوقت الذى سينتشر معظم جيش - من التغلين - على التلال المحيطة بدمشق ، وسيتم كل شيء كما يريد له التبع أن يجرى ويتم بطريقة طبيعية .

-طبيعى .

سوى أن كلييا سيفتعل معركة على مشارف دمشق ، تسمح من جهة بتسلل رجاله الى داخل صناديق محتويات العرس وأثاثه العملاقة ، وتسمح فى ذات الوقت بتسلل كليب ذاته . باعتباره مضحك أو مهرج أو خصى الأميرة الجليلة المقرب . الذى يضحك الحجر قبل البشر ، متنكرا بكامله تحت هلاهيله وجلود الحيوانات والأصباغ ، متخذاً اسم « قشمر بن غرة » ، الذى يلعب بالبيضة والحجر فى ذات الآن .

يضاف إلى ذلك ، اضطراب التبع حسان إلى إرسال معظم حرسه الخاص ورجالهم لتخليص - العروس - الجليلة من أيدي قطاع الطرق وعصاباتا لتأديبهم هنا سيخلو لنا الجو للتسلل إلى حفلة العرس لتسليه التبع الذى لاينام الليل حباً فى اللهو والسمر .

- وهذه ليلة عمره .

بهرت الجليلة من خطة كليب إلى حد دفع بها إلى القول بثقة ودون تردد :

- التى فيها سنقصف عمره .

استدارت لكليب مشجعة :

- انتقاماً للدم الذى أهدره فى بيروت والبقاع ودمشق والقدس وأسدود فى فلسطين . واجه كليب الجدار كمن يكبت مشاعره فى صعوبة بالغة :

- أبى عريان مقلوب الرأس معلق على بوابات دمشق .

قاربتة الجليلة :

- أعمامى وأولاد أعمامى ، وأربعون فتاة من آل مرة .

أخذت الجليلة بيده معاهدة :

- فى كل بيت مأتم . . منذ وصوله .

استرد كليب يقظته وحلمه الكبير ذاك قائلاً فى حزم :

- إذن فهي فرصتنا الوحيدة يا جلييلة .

- لا تخف .

واجهها كليب مطوقاً رأسها ، حتى إنه أسقط خبائها عن رأسها .

- انت الشيء الوحيد الخائف عليه .

لكزته الجلييلة ضاحكة مسرة :

- لا تخف . . فلقد أصبح لاينام ليله ، وفي كل يوم تصلني هداياه من قطعان الجمال والأقيال . . مما تشتتبه النفس .

ضاحكها كليب :

- هكذا الأمر إذا . .

داعبته :

- أليس هذا ماتطالبنى به ، أن أسحره سحرا بكل مأوتيت وهكذا أصبح التبع - المفترس - حسان بن أسعد مجرد خاتم في إصبعي .

- هائل .

واستطرد كليب مع الجلييلة شارحا بكل دقة تفاصيل خطته ومسالكتها خلال مراسيم هذا العرس الدامي المرتقب وكيفية إعداد رجاله ببالغ السرية والكتان . وحتى كيفية تصميم صناديق جهاز العرس وخصوصيات العروس الجميلة .

وكذلك حادثها عن مدى إعداداته لكتائبه المرابطة على طول الطريق بين بيروت ودمشق بسرية مطبقة .

وكانت الجلييلة كثيرا ماتستوقفه مستوضحة طارحة مختلف ظروف الاحتمالات ومنها إمكانيات الانكشاف والفشل لخطتها بالغة السرية على نحو يثير كل همية كليب وتوقده ، وإحكامه لاحتمالات الوصول الى رأس التبع الطاغية الغازي ليجزها جزاً متخذاً مكانه إلى جانب الجلييلة في حكم الشام وفلسطين ، وإنهاء سطوة ذلك الغازي الذي

أتت جيوشه على كل أخضر ويابس في بلادهم ، والذي يصل به تسلطه الى حد
التفريق بين حبيها وهما اللذان سبقا ان تحديا به كل الحروب والعداوات بين قوميهما .
حتى إذا ماشارف اللقاء بين الجليلة ومحفوظ أو كليب بن ربيعة نهايته وطواهما
الصمت الطويل داخل ذلك الكوخ المشرف على البحر المتلاطم قاتم الزرقة ، وهما
هائمان في أبعاد خطتهما وتفاصيلها ، احتضن كليب الجليلة مودعا ، إلى أن حملها حملا
بين ذراعيه ، ليركبها حمارها المطهم ، عبر الصمت والظلام المخيمين .



8

العريس الدامى

لعلها كانت أصعب عملية اضطلع بها وزير التبع حسان ، تلك التى كلفه بإنجازها منذ أن التحق بخدمته ، وهى عملية الإعداد لمراسيم زواجه تلك الليلة الليلية .

فمنذ مطلع النهار ، وطلبات الملك وأوامره المتسمة بالعصبية والقسوة لوزيره «حنظلة» لا تنتهى ما بين اختيار المدعوين من ممثلى القبائل والعشائر والأمراء والقواد ، والتوقف طويلا أمام كل اسم ولقب وقبيلة وقوم . واستقبال الوفود المحملة بالهدايا ، ونحر الذبائح وإعداد قصور الضيافة ، واستقدام كبار الفنانين ، من شعراء ومغنين ومنشدين وراقصين لإحياء الحفل ، من مصر وسورية وفلسطين وربع اليمن . ناهيك عن مطالب العروس ذاتها ، وأهلها - بنى مرة - التى أصبحت فى الأيام الأخيرة لا تقف عند حد ومطمع .

والملفت فى الأمر أنها مطالب غريبة تدفع إلى كل سخط وشك ، إلا أن « التبع » لم يعد يسمع لأحد نصحا أو مجرد رأى بسيط سواها :
- الجليلة بنت مرة ومراسيلها ومعلقاتها الطاغية .

تلك الأميرة - اللبنانية - التى سحرته بشعرها ومعسول قولها ، قبل محاسنها ، فكان أحبها التبع من قبل أن يراها أخذاً بالقول المأثور « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » .

حتى إذا ما سنحت - للتع العاشق - رؤيتها بطريقة مباغته ساحرة للمرة الاولى ،
أردته من فورها صريع هواها وعشقها .

ذلك ان الجليلة بنت مرة - وكجزء من خطتها - في تملك قلب التبع حسان ، دبرت
خطة ذكية مفاجئة ، لا تخلو من أخطار ، لتلتقى به متنكرة على هيئة أمير فارس
شاب ، مع مطلع نهار خرج أثناءه التبع محاطا بفرسانه وكوكبة قوداه المقربين للصيد
والقنص في أحد مروج لبنان .

وهنا تحنت - الجليلة - تلك اللحظة للالتقاء بالتبع ، وهو يطارد أحد الحبوانات
الرية . فرزت له من بين الأشجار ، بعد أن أردت فريسته بسهمها ، فما كان من
الملك التبع سوى الترحل مندهشا من مواجهة ذلك الفارس الماهر المجهول الذي قاربه
مواجهها :

- من أنت ؟

.. - أنا قدرك .. أيها الملك .

وبعدما فاق التبع حسان من هول المفاجأة على هذا النحو استل حسامه ، كما لو
كان على موعد مع لحظة اغتيال غادرة مباغته :

- قدرى ؟!

- أجل .. يامليكى .

حتى إذا ما كشفت خبائها عن وجهها الباهر الجمال مرخية خصلات شعرها
العسجدي الضارب الى الحمرة ، متقدمة في حياء مغمغة :

- أنا .. الجليلة بنت مرة !

- أميرتى الجليلة ؟

- أجل .

وضحكا طويلا وهما يطلقان لخصيانتهما العنان إلى أحد المروج المهجورة .

توقف الملك حسان منبهاً في أقصى نشوته من تلك المفاجأة العذبة التي أرادت بها الجلييلة أن تدخل السرور على قلب الملك :

- متى ينتهى كل شىء لنسعد معاً يا جلييلة طيلة عمرنا ؟

- أنا طوع يمينك يا مليكى .

ومنذ تلك اللحظة والملك حسان ، لا ينسى مقدار السعادة التي غمرته كما لم تغمره من قبل إثر لحظة الفرح تلك التي جعلته ينتشى بالحياة وجورها الذي يضيفه الحب قبل أى شىء آخر .

ولم يطل لقاؤهما ، ذلك أن الجلييلة تعمدت إنهاء ذلك اللقاء الخاطف المفاجئ ، حين ودعته معاودة تنكرها بعدما خلعت عليها قلادته الملكية فأطلقت عنان حصانها مسابقة ريح الصباح . . مخفية ، تاركة التبع العاشق ، ليلحق بركبه وفرسانه ، كمثّل طائر هائم محلق بين أرز لبنان الساحر المتعانق في شموخه إلى عنان السماء .

حتى إذا مالحق فرسان الملك حسان به ظل يضحك في فرح متشّيا ، مما أثار فضول مرافقيه ، عندما فاجأوه مع غروب الشمس تمهيدا للعودة إلى دمشق محملين بأسراب صيدهم !

- نريد أن نعرف صيد التبع اليوم .

- أروع صيد .

إلى أن نطق أحدهم هامسا في أذن الملك ، مما ضاعف من سعادته :

- لعلها الأميرة . . الجلييلة ؟ !

فكان كلما اقترب موعد وصول موكب العروس وتوابعها من بيروت إلى دمشق ، كلما تضاعفت أعباء الوزير - حنظلة - نتيجة أثقال الملك التبع المتوتر عليه بالمطالب واستكمال الاستعدادات :

- ألن تنتهى اليوم . . أما من مهرب ؟

حتى اذا ماتدافعت وفود الرسل المذعورة الغارقة في سيول دمائها قبل عرقها ، بل ومنهم من قطع لسانه من جذروه ، عائدين معلنين الأنباء السوداء عن تعرض موكب «العروس» لعصابات قطاع الطرق ، ونهب كنوزها . . بل وأسرها على طريق بيروت - دمشق ووصل توجس الوزير الى أقصى مداه :

-كيف حدث هذا . . الجليلة ؟

وهاج الملك التبع حسان وماج على طول جنبات قصره وقلاعه حين وصله الخبر ، الى حد التطاول بل والتعدى بالقتل لبعض مساعديه وحاشيته ، فلم يسلم من غضبه الجارف أحد ، حتى الوزير حنظلة ذاته :

-لزوجتى . . حللتى . . يحدث كل هذا !

بل إن حنظلة وجدها فرصة ذهبية لمواجهة التبع الغازى ، وتبصيره بما ينتظره من الأعياب أهل هذه البلاد من آل مرة والبكرين والتغليبين . فمن الواجب عليه - أى التبع - التنبه والحرص - ولو - على الدم الذى أريق وسفح على مشارف تلك التلال والوديان والبقاع وصحارى الأدوميين ، حتى استتب له الأمن بعد فتحها وحكمها .

إلا أن الملك لم يتح لوزيره كلمة عاقلة واحدة مواصلا هياجه كمثل جمل متقمم مفلوت العيار ، وهو يسعى إلى حتفه سعيا ، بكل ما أوتى من جبروت :

- كيف يحدث ماحدث . . لزوجتى ؟

صادرا من فوره أوامره ونواهيه لكبار قواده وفيالقه وحرسه الخاص ، وكل من طالته يده ، لإنقاذ العروس وإحضارها أينما كانت .

والأدهى من ذلك أن تغيب كل قوة وحامية بسرعة الرياح ، ثم تضى الساعات ولا تعود بخبر:

ما الخبر ؟

هنا يشتعل غضب التبع وانتظاره أكثر فأكثر مرسلا بمجموعة أخرى فى أعقابها :

- ثلاثة قواد يرحلون . . ولا يعود منهم أحد بالخبر اليقين ؟

حتى إذا ما حط المساء جاثما ، وضجت مدينة دمشق عن بكرة أبيها متندرة بعرس
التبع الغازى الذى استحال إلى كارثة :

- فضيحة !

انشقت الأرض فجأة عن العروس وموكبها الهائل ، فى حالة من الذعر والفوضى
الشديدين .

حتى إذا ماتسلل موكبها من جمال وخيول بأحمالها إلى داخل عتبات قصر التبع
الحصين دون أدنى رقابة ارتقت العروس من فورها بين أحضانها باكية كمثلى مراهقة
غريرة .

وأمام انبهار التبع حسان من جمالها وروعته وكامل زينتها وإيوائها العذبة
وتدللها ، أمر من فوره بإدخال صناديق عرسها ووصيفاتها وتوابعها من خدم وحشم ،
مشيرا :

- أقيموا الأفراح .

وعلى الفور علت الزغاريد والغناء ودقت الدفوف ، وامتدت سباطات وموائد
الطعام . . وهجت الألسن بكل لهجة ولكنة ولسان بمحاسن العروس . . والعرس ،
إلى ان اختلط الحابل بالنابل ، فى تلك الليلة التى اعتراها التوتر والمفاجآت منذ مطلع
النهار ، بما ينبىء عن اختتامها بحادث جلل .

هكذا بدا الأمر للوزير وهو يرقب مجريات أمور هذا اليوم الرهيب وما سيتهى إليه .
تساءل الوزير وهو يرقب متطلعا فى وجوه أهل العروس وأقاربها وخدمها وحشمها
ومهرجيتها متسائلا :

- كل هذا الجيش !

مضى يرقب ما يحدث على مشارف مخدع التبع ، الذى استسلم للجليلة ، الى حد
إجلاسها إلى جانبه على « عرش التباعة » ويستغرق من فوره من تتبع مضحكيها
وسمارها الستة وهم يقفزون متراقصين عابثين هنا وهناك على أصداء الموسيقى
الصاخبة .

وعن للوزير السؤال عن أحدهم وكان أبرزهم حركة وقرباً إلى قلب العروس - الجليلة بنت مرة - :

-ف قيل له إن اسمه « قشمر بن غرة » ، وهو مضحك الأميرة .

انسحب الوزير محاولاً جذب انتباه التبع لما يجري فما كان منه إلا انه أغلظ له القول ، إلى حد الإقلال من شأنه أمام الجليلة التي بدت للوزير ساعتها وعيناها لا تغفل عن مهرجها « قشمر بن غرة » مما دفع بالوزير إلى الانسحاب حفاظاً على ماء وجهه ، وهروباً بجلده مما يحدث .

وراحت الجليلة تروى على التبع نكات ومداعبات مهرجها وتهكماتهم الذكية وخاصة هذا « القشمر » . مشيرة إليه بساعدها الخمرى اللون البض الملمس

فاندفع « قشمر بن غرة » من فوره قافزاً راقصاً هازلاً تحت رقع ثيابه ، متمنطقاً جلد النمر ومتقلداً سيفه الخشبي وسوالفه مدلاة كمثل « كبش » :

- من يناديني . . من . . من ؟

- اسمع يا قشمر .

- سيدتى . . مولاتى .

مضى المهرج مشهراً سيفه الخشبي ، ممتطياً عصاة الجريد كمثل فارس مغوار يجرى فى هزل .

وحين أغرقت الجليلة فى الضحك إلى حد الارتواء امتدت يد التبع ساندة لها فى حنو:

- حقاً إنه يضحك طوب الأرض يا جليلة .

- حقاً بهلول نادر .

- يزيل الغم ويفرج الكرب .

واندفعت تحدث التبع المتشئ عما حدث لها من رعب خلال الطريق ، إلى أن ضاقت بها السبل فأعادها إلى حيث البهلول والمرح والغناء وليلة العمر هذه :

- لننس مامضى يا جليلة يا حبيبتى .

هنا كان المهرج قشمر قد أوصل الجليلة والجميع إلى أقصى حالات الاستغراق في الضحك الذى لم يخل من مجون ، إلى أن تجرأ معبرا عن نفسه بعد تصنعه الخوف والهلل طويلا من التبع وهيبته وتاجه .

« فمضى من فوره راقصا بسيفه الخشبى ، وكان تارة يبخلق عينيه ، ويدق الأرض برجليه ويديه ، وتارة يقول :

- اين الفرسان الفحول . . اين ابن عطبول؟

« وكثيرا ما يرقص ويضحك بلا سبب ، وهو راكب الفرس القصب ، إلى أن اندهش التبع من أعماله ، واستغرب أحواله وأقواله » .

بحث التبع فجأة بعينه عن وزيره حنظلة فلم يجده . هنا شاغلته الجليلة وهى تلاطفه :

- تعبانة

عندئذ تدخل « قشمر » عابثا مضاحكا قائلا :

- إن كنت تريد الطرب الآن ، فمر سيدتى الجليلة تغنى لك ، فإن صوتها مليح ولفظها فصيح .

وطلب التبع منها أن تغنى ، فهو ينتظر على أحر من الجمر سماع صوتها وأشعارها وإنشادها .

هنا واصلت الجليلة تدللها مدعية الحياء والخجل من جموع الموجودين ، مطالبة باغلاق الأبواب حتى لا يسمع أحد .

وما أن انسحب المدعوون بإيحاء من عين التبع ، حتى تطوع قشمر بالحنجلة هنا وهناك مغلقا أبواب المخدع بنفسه فى هزل .

ثم عاد مقدما قيثارة مذهبة للجليلة التى ارتفع صوتها مغنيا شجياً ساحرا :

بحضرة تبع الملك المسمى

بحسان إذا ماشن غاره .

وقد أمسيت فى قبضة يديه . .

ومن حبى شغل قلبى بناره .

ألا يحارس البستان صنه . .

وإن فرطت فى الطير . طاره .

وحين وصل الطرب بالتبع لى أقصى مداه ، زاد به الوجد والغرام ، إلى حد مطالبة
الجليلة بالغناء دون توقف ، إلى أن عاجلها قاتلا :

- مثلك حقا يا جليلة نادر بين النساء فقد زاد سرورنا هذا المساء .

هنا أيقن - كليب - المتكرر تحت جلد وأصباغ وهيئة مضحك الأميرة « قشمر بن
غرة » أن الوقت قد حان ، فمضى يواصل هزله ، مومثا للجليلة سرا بمشاغلة التبع
الغائب عن وعيه .

ثم انسحب باتجاه صناديق العرس والجهاز ، فاتحا فى سرعة وخفة مخرجا فرسانه
المختبئين .

إلى أن عثر على سيف التبع ذاته ، فخرج إليه به وقد تقلد درعه .

وهكذا « خرج كليب فجأة لى الملك الأكبر ، وقد احمرت عيناه ، حين تذكر أباه ،
فصال وجال فى وجه التبع الذى ألجم من هول المفاجأة .

» ثم قفز كليب مقاربا التبع هاجما ، إلى أن تعرفه التبع وأيقن بالهلاك ، والوقوع فى
شرك العقال » .

واندفع كليب جاريا داخل مخدع التبع من دون أن تتوقف الموسيقى أو الغناء ،
فهب التبع كالمجنون وقد تعرفه منشدا مرثيته الشهيرة الكبرى :

يقول التبع الملك اليمانى

لهيب النار تشعل في فؤادي

أمير كليب يافارس ربيعة

يا حامي النساء يوم الطراد

أريد اليوم أن أعلمك شيئاً

لتعرف حال أخبار العباد

ولم يمهل كليب بن ربيعة ليكمل مرثيته ، فهجم عليه صارخا :

« لابد من قتلك كما قتلت والدي ، فأكون قد أخذت بثأري » .

وتقدم منه ودق عنقه وشهر رأسه عاليا على أسنة رماحه !



9

افتتيال الصحاح ابن التبع حسان

على ذلك النحو المأساوى ، جاء ذلك العرس الدامى الذى أقامه التبع حسان
الياننى لزواجه من الجليلة بنت مرة . والذى فيه قطع كليب الفلسطينى رأس التبع ،
بعد أن أمهله لإنشاد مرثيته الشهيرة التى اعترف فيها ، بكليب وطراده :

أمير كليب يافارس ربيعة

ياحامى النساء يوم الطراد

وهى المرثية التى حملت عبر العصور بإضافات الرواة لما يعرف « بالتراكم الملحمى » .

ففيها يتضح أن التبع القاتل كان على دراية بمصيره الدامى :

وعندى قد تبين بالملاحم

بأنك قاتلى دون العباد

وبعدى شاعرة تنزل عليكم

وعبدى يذبحك بين الجماد

ويبدو أن التبع يعنى بالشاعرة ، عمتة الشاعرة المنتقمة « البسوس » حينما يصلها
خبر اغتياله بيد كليب فى ربوع الشام . كما أن هذه المرثية ، كشفت أبعاد المستقبل
- السياسى - لبلدان الشرق الأدنى القديم ، مبشرة بالدور الفاتح الكبير الذى
سيضطلع به ذلك الطفل الرضيع - ذو اليزن - ابن أخيه عمرو الذى سبق للتبع حسان

قتله التزاما بالوصية ، كما ذكر في مريته التراجيدية الكبرى على مرأى من الجلييلة المتآمرة :

- . وسيف ذو وزن بعدك يظهر .
- . تصحبه السعادة في العباد .
- . ويبقى ملكه سبعين عاما . .
- . وبعد ذلك يطوى في الوهاد .
- . ويظهر له ولد يدعوه « دمر » . .
- . شديد البأس مرفوع العماد .
- . فيملك في بلاد الشام بعده . .
- . يجلب الماء من أقصى البلاد .

وهو ما حدث في أعقاب مقتل التبع حسان ، وتشتيت فصائل بنى ربيعة التغليبين لجيش الملك حسان من اليمينين ، الى أن اتخذ كليب مكانه ، معلنا نفسه على رؤوس الاشهاد أنه « التبع الجديد » مشهرا رأس التبع الغازي حسان . وعقد قرانه على حبيبته « الجلييلة بنت مرة » التي قاسمته مخاطرة ما أقدم عليه ، متسميا بكليب « ملك العرب والعجم » .

لكن ما إن تواتر خبر مقتل الملك التبع حسان اليماني وشاع ، من موطن إلى آخر ووصل أسماع عمته « الشاعرة البسوس » ، حتى شقت ثيابها من هول النبأ الفادح وجسامته ، وهى التى لم تبرأ بعد مما حدث وألم بوالدهما - التبع أسعد - وانتهى بموته كمدا وغما واندحارا .

هنا تخلت البسوس عن كل شىء حتى ذلك الغلام الصغير الذى كانت انتزعته من أمه - الحجازية - زوجة « عمرو » عقب قتل أخيه - حسان - له ، والملقب بذى اليزن .

وقررت من فورها المتأداة في أقوامها اليمينين بالانتقام وأخذ الثأر ، من التغليبين

والفلسطينيين - وآل مرة - اللبنانيين - في آن واحد ، بل ومن كل الذين دبروا تلك المؤامرة الغادرة على ذلك النحو الغادر الأليم :

ياللدناءة . . يالثرارات حسان !

وعلى الفور قرعت طبول الحرب والانتقام العملاقة - الرجرج - على طول أقوام اليمن والخليج العربى ، معلنة الخبر الفادح ، والاستعداد للخروج والقتال انتقاما لدم التبع المسفوح على ربي دمشق وبيروت والبقاع .

وحين حاول « ذو اليزن » الصبى ، الإلمام بما جرى ، وأخبرته عمه أبيه البسوس نادبة الحدث ، أبدى الصغير استعداده لمصاحبته في حربها .

إلا أن البسوس نكبت أكثر حين جاءتها الأخبار بما حدث لجيش التبع وفيالقه التى نجح التغليبيون في إفناء بعضه ، وتشتيت الجزء الأكبر منه ، في أكبر كارثة انتقامية تعرض لها عرش التباعة ، منذ التبع حميد بن عبد شمس الملقب بسبا .

وهكذا لم يعد يجدى الإسراع بإعداد مايلزم من عتاد وسفن إبحار ، قادرة على الردع ، قبل أن يبرد ويحف دم التبع القتل بين قبائله وأقوامه .

فحتى ابنه « الصحصاح » الذى كان قد أخذ مكان أبيه في حكم اليمن ، بدا عاجزا إزاء فداحة الكارثة التى حلت بالتبع وجنوده في ربوع الشام وفلسطين والبقاع .

ورغم ذلك ظلت البسوس لا هدف لها سوى الانتقام الأسود على ما حل بابن أخيها مهما طال الأمد :

- أبدا . . لن نخبو نيران قلبى ، إلا وكليب ممدد مقطوع الرأس بيد عبدى هذا .

بل هى مضت تصب لعنتها على كل من تقاعس أو تكاسل في الحرب وأخذ الثأر للحميريين المنكوبين ، نتيجة الغدر والخيانة :

- الدس في المضاجع .

وكانت كلما تدافعت إلى قصرها وفود المعزين ، التهبت نيران أحقادها أكثر وأكثر ، مهددة :

- ألم يعد هناك رجال في حمير . . أين الرجال . . أين ؟

الآن جاء دور النساء . . ولاغيرهن .

إلا أن المصائب وتوقيتها لم تمهل البسوس ، إذ سرعان ماتواترت الأخبار بمقتل «الصحصاح» ابن أخيها حسان ذاته ، ليلحق بأبيه في قصره المنعزل على أيدي حلفاء التغليين الفلسطينيين والدمشقيين وعيونهم الذين أصبحوا يتطلعون إلى ربوع اليمن ذاته :

- النكبة ذاتها .

وهكذا انفرط لوهلة ، عقد حمير ، وأصبح يدعو إلى كل مخاطر وتخوف ورثاء ، مما دفع بالبسوس وشيوخ القبائل إلى التعجيل برأب الصدع ، والبحث المضنى ، قبل أى شىء ، عن مخرج من أهوال تلك الكارثة التى حلت دفعة واحدة بعرش التباعة .

هنا تطلعت الأنظار لتحط على رأس « ذى اليزن » الصبى الذى لم يكن ساعتها قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، إلا انه كان منذ صغره متماسكا يحوى حكمة الكبار ، وتنبيه ملاحظه عن البأس الذى عرف عن التباعة ، منذ عبد شمس أو «سبأ» .

وعلى الفور أجمعت الآراء على المنقذ الجديد وهو « ذو اليزن » ابن عمرو - المغدور - الذى اشتهر بـ « مزيقيا » أو الممزق ، ليعتلى عرش التباعة فى تلك السن المبكرة ، إنفاذا لليمن والجنوب العربى . . بل وجزيرة العرب بأكملها وهى على تلك الحال من التفكك والاضطراب .

فجرت مراسيم تنصيب الملك الجديد ذى اليزن خافطة مبسطة من دون احتفالات وصخب وقرع طبول - الرجرج - وذلك بسبب الحزن الذى ألم الجميع عندما علموا بمصرع التبع حسان وولده الصحصاح ، ولما ألم بعرش التباعة .

وهكذا قدر لذى اليزن الذى ولد وترى يتيمًا فى كنف البسوس التى كانت قد اقتنصته اقتناصًا من بين أحضان أمه ، التى فرت بجعلها عائدة إلى قومها بالحجاز ، عقب قتل التبع حسان لزوجها والد الطفل .

بعدها استماتت البسوس في اغتصاب الطفل الرضيع - ذى اليزن - من بين احضان
أمه ودفعت به إلى كبار المربين والحكماء ومعلمى الفروسية لينمو ويشب ، متمرسا عن
جدارة لحكم « حمير » ومايدور في فلكها من أقوام .

وها هى قد حانت فرصتها سانحة ، حين وضعت يديها الاثنتين تاج التباعة على
رأس « ذى اليزن » ، عبر طقوس الأحزان الجنائزية التى صاحبت مراسم حفل تتويج
التبع الجديد :
- ذى اليزن .

حتى إذا ما انتهت - عمة أبيه - البسوس ، من ذلك تفرغت من فورها مبيتة وعاقدة
النية على الانتقام لمقتل التابع حسان ، حتى ولو استدعى الأمر اللجوء الى المكائد
والفتن واستخدام كل أساليب المناورة والخداع المؤدية إلى تحقيق أغراضها وغاياتها في
الانتقام الأسود لدم التابع المهذور .

فهو ذاته الأسلوب - الدنىء - الذى لجأ إليه التغليبيون وحلفاؤهم « آل مرة » لقتل
الملك التابع ليلة عرسه بدمشق .

فكانت كلما استمعت إلى تفاصيل المكيدة التى أودت بحياة التابع حسان ، من
عيونها وبصاصيها - شهود العيان - داخل قصر التابع ، اشتعلت أكثر نيران حقدها
وتأججت إلى حد أنها أصبحت لاتنام الليل .

- يالها من خيانة بشعة !

بل إن نسج الأقاويل والشائعات حول تفاصيل ما حدث تلك الليلة المشتومة داخل
قصور الشام ولبنان ، وصل بكامله إلى سمعها ، ممهدا لها طريق خطتها الجديدة في
الانتقام على ذات النمط « والوتيرة » التى أنهت حياة ابن أخيها وفي عقبه ابنه
الصحصاح ، وكاد أن يصل الأمر بعرش التباعة إلى نقطة التأزم واللاعودة :

- الخراب .

ومن هنا كان لجوء « الأميرة البسوس » إلى الحرب على ذات الوتر . . أى وتر الخداع

والتآمر وإيقاع الفتن والتحريض ، وكل مامن شأنه تقويض أركان بيت بنى مرة وبنى ربيعة .

وفى مثل هذه الحالة ، فمن هو أجدر من البسوس وأكثر باعا وعمقا وأغوارا فى اختلاق مختلف صنوف فن الإيقاع ، وفى زرع البغضاء والأحقاد وشراء الذمم .

- من هو الأجدر فى حمير لها ؟ !

فلا حد ولا نهاية لقدرتها هذه بالإضافة إلى ثرائها وسطوتها التى غدت مضرب الامثال ، بما يتيح لها استتجار أو استخدام البصاصين والملفقين من بلاد الشام وفلسطين طولا وعرضا .

يضاف إلى كل ذلك قدرتها على الحديث والإقناع وهى الشاعرة العريقة صاحبة المعلقات والمحرضات والموثبات والمراثى والمدايح

فمن غير البسوس يمكن له أن يتفرد متفوقا فى أسلوب حرب المخادعة والإيقاع المفضى إلى كل دمار ، تعجز عنه أعتى الأسلحة والرجال ؟

ومن هنا فكبوة حمير ودم التبع القتل لن يأخذ بثأره غيرها ، خاصة وبعد محصلة المعلومات والشواهد التى جمعتها جاهدة من مدن الشام وبواديه قبل حضره ومدنه ، وبخاصة أخبار ووقائع ذلك التحالف الجديد بين آل مرة فى لبنان ، وبين التغلبيين الفلسطينيين ، عقب زواج - التبع الجديد - كليب بالجليلة بنت مرة ، وورثة عرش حمير نهارا جهارا .

ثم ذلك الاستحواذ الجائر من جانب « كليب » الذى أصبح يتسمى متعاليا بـ : «ملك العرب والعجم» . ممسكا بمقاليد السلطة والتسلط على حلفائه . . اللبنانيين . . مما أوغر قلوب الأخيرين عليه ، باعتباره لم يرع الاتفاق الضمنى السابق لدى اغتيال التبع .

بل إن الأخبار والأقاويل وصلت إلى أذنى البسوس مبالغا فيها إلى حد معرفتها الدقيقة بتفاصيل الصراع الوليد الخفى المتفاقم بين كليب وأخى زوجته الجليلة المدعو «جساس بن مرة» .

وكيف أن الجلييلة أصبحت نهبا لذلك الصراع بين زوجها وشقيقها ، محاولة بكل ما أوتيت من راحة عقل ، رآه ، ذلك الصديق الجديد المهدي بين قبائل زوجها ، وقبيلتها هي - آل مرة - وحتى لا يتسبى الأمر بها إلى ضياع كل شيء .

وهي التي حلمت طويلا وصبرت إلى أوصلها طموحها إلى التربع على ذروة السلطة في دمشق وفلسطين وتوابعهما .

ووسط خضم تلك المسالك والمتعرجات والقسمات الواضحة السمات واصلت البسوس - أو سعاد - تحركاتها ورسم أبعاد خطتها الدامية ، للانتقال بثروتها من خيول وجمال ورؤوس أغنام وأموال ، بالإضافة إلى كوكبة حرسها وأهل بيتها إلى ربوع الشام ولبنان .

إلا أنها تمهلت وأخرت تنفيذ خطتها ورحيلها ، حين وصلت أخبار جديدة ، تلقتها من رسلها مستبشرة غير مصدقة ، حتى إنها خلعت على الرسل ، الذين حملوا إليها هذه الأخبار ، الكثير من الأموال والهدايا .

ذلك أن وإلى التبع القليل حسان على عدن وحضر موت والمدعو بالأمير « عمران القصير » ، وصل به الغضب والضيق من مكيدة مصرع التبع حسان بالشام وفلسطين على ذلك النحو الغادر ، إلى أقصى مداه . فجهز من فوره جيشه وفيا لقه استعداد للإبحار إلى تلك البلاد ومحاربة التغلبيين من بني ربيعة وحلفائهم ، انتقاما لما حدث وألم بالتبع الذبيح .

حتى إذا ما وصلت الأخبار إلى التبع الجديد - كليب بن ربيعة - عن تلك الاستعدادات التي يجريها « عمران القصير » بعدن وحضر موت ، استنفر من فوره قومه ، لأهمية وضرورة التنبه لما يحدث ، وقبل أن « تقع الفأس في الرأس » ، وتسقط البلاد في أيدي تباعة اليمن مرة ثانية .

وهكذا خرج كليب في كامل عدته وعتاده للقاء جيش عمران القصير الذي جاءهم بجيشه متقما هذه المرة .

والتقى الجيشان واشتعلت لهيب الحرب ، « حتى عظمت الأهوال ، وظل كليب يفتك بهم وبأفيالهم وبفرسانهم كمثل ليث ضارٍ ، إلى أن تمكن من منزلة قائد البيانية ذاته - عمران القصير - أياما طويلا ، فظلا في حرب وقتال ، إلى أن أرداه كليب صريعا » .

وعاد كليب راجعا إلى الشام ، فدخلها « كالبازك » . . أو كمثل صقر محاط بالعز والنصر .

وهنا لم تجد « البسوس » لها منفذا ، سوى مواصلة استعداداتها للانتقام الأسود المبيت . . سرا !



10

انتقام البسوس

استبشرت أقوام اليمن والجنوب العربى باعتلاء التبع الجديد « ذو اليزن » عرش التباعة ، وهو ابن عمرو الذبيح .

وكأن كل ماحداث من كبوات مقوضة لملك الحميريين فى السنوات الأخيرة ، والتى اختتمت بمصرع التبع حسان بدمشق ، لم يكن أكثر من تكفير عن اغتيال عمرو - والد ذى اليزن - الذى تسمى بالممزق أو الذبيح .

وها هو أخيرا ابنه الوحيد ذو اليزن - يحكم حمير ، بعدما أصابها وأدماها من كبوات جسيمة ، جاءت متلاحقة كعقاب على ماقد اقترفت يداها .

وهكذا استراح الجميع مستبشرين بذى اليزن أو « ماء المزن » . الذى عرفه الجميع محبا أولا وقبل كل شىء للعلم والبحث فى أغوار كنوزه ومخطوطاته التى لا تنضب ، لكن وبما لاينفى فروسيته التى شاعت عنه أيضا منذ مطلع شبابه ، مثل خوضه مباريات الفروسية العربية ، والتى لاتبعد كثيرا عن الطراد والنزال . . بل والحرب عامة باعتبارها رياضة العرب القومية .

إلا أن ما اتفق عليه الجميع ، هو مدى سباحته وانشغاله بأمور الناس ومايفيد ويسر حياتهم من إنشاءات لسدود وطرق استجلاب الماء وتصريفه وكيفية التحكم فى مساره ومجراه بما يحقق الرخاء والاخضرار للناس والدواب .

وهى مشروعات السدود والتحكم فى مناسيب المياه باعتبارها مصدراً لكل حياة ونمو.

فجاء اعتلاء « ذو اليزن » عرش التباعة أقرب إلى بلسم أراح الجميع ، وأخصهم بالطبع أهل العلم الذين التفوا من فورهم حوله معضدين مستبشرين . فلعل فى قدوم هذا الشاب الصلد العف ما يجد قليلا من تسلط تباعتهم وطموحاتهم التى لم تكن لتقف عند حد ، على طول المشرق والمغرب على السواء .

وعادة ماكانت تنتهى تلك الأعمال الكبيرة من حروب وهجرات ، والتى تتخذ من طموحاتها مجرد مطايا لبلوغ الآمال ، تحت أى شمس وموطن ، من مجاهل الصين حتى تخوم مصر ، بكارثة لايعرف لها أحد مدى تقف عنده ، سوى أنها - أى تلك الكبوات والانتكاسات - كانت تصيب الجميع بلا استثناء من كبير إلى صغير .

ومن هنا توسمت القبائل اليمانية فى التبع الجديد « ذى اليزن » ، شيئا مغالفا عن سبقوه من أسلاف . فلعله سيأخذ بالمشورة أو الشورى التى غابت عن أسلافه التباعة على طول تاريخهم الغابر . بل إن هذا بذاته ماأصر عليه وزيره وناصحه الأول الذى اتخذته هو بنفسه - ذو اليزن - بمعزل عن عمة أبيه ذاتها ، وهو المعلم والشاعر الحكيم « يثرب » .

فكانت علاقة ذى اليزن يثرب ، أكبر من مجرد التوقف عند النصح وإسدائه ، خاصة والتبع الجديد ، كان لايزال حديث السن ، لم يتعد التاسعة عشرة من عمره حين وقع عليه الاختيار ، ليلعب دور المتقذ فى حكم حمير وسطوتها التى تخطت جزيرة العرب شمالا وجنوبا .

فالعلاقة بين التبع الجديد - الشاب - وبين وزيره الشيخ المتمرس يثرب ، تخطت دور النصح ، لتلتقى عند النظرة الواحدة والرأى الواحد فى معظم الأمور التى غايتها إفادة التحالف وتوثيق عراه أكثر فأكثر .

واتضح هذا للجميع منذ الوهلة الأولى ، أو منذ أول كارثة واجهها « ذو اليزن » كملك لحمير ، وهى كارثة اغتيال عمه - حسان - وابنه غدرا ، واتساع

صدى الدعوة التى تبنتها - قبل الجميع - عمته البسوس مطالبة بالتأثر والانتقام .
هنا فقط تطابقت وجهتا نظر كل من ذى اليزن ووزيره يثرب . وهو ماضعاف من
اشتعال نيران أحقاد البسوس إلى حد إعلان غضبها عليه وعلى وزيره « يثرب » :
- ياللعنوع المزرى . . ماذا دها حمير ؟

حتى إذا ماواجهته البسوس بموقفه السابق ، الذى أبدى فيه الرغبة لمرافقتها للنزال
وأخذ التأمر من مغتالى عمه التبع حسان وابنه ، أجابها ذو اليزن فى حزم :
- أيامها لم أكن تبعا لحمير .

- والآن ؟

- الآن وفى هذا المكان . . تأمرنى حمير .

اندفعت عمته البسوس مواجهة فى حدة ، شاهرة صدرها له :

- أنا حميرا

غمغم الملك :

- أنت عمتى .

قاربها التبع الشاب ذو اليزن فى حنو ، آخذاً بساعدها ، مشيراً من شرفات قصره
المنفتح على الجهات الأربع :

- هاهى حمير . . الناس ياعمتى !

ولكم وخز ذلك الموقف الذى جاء متفجرا بين البسوس وحفيدها ذى اليزن أعماق
قلبها ومشاعرها وجعل منها جرحا غائرا لا يبرأ ، وهى التى مهدت له حكم حمير ،
ليخرج ومنذ أول قرار على رأيها وماتشير به هى أولا ، كما اعتادت على الدوام منذ أن
كانت فى مثل سنه بل وأصغر ، لذا فلا بد أن فى الأمر شيئا ، زفرت البسوس فى حقد :
- ذلك العجوز الأرقط . . يثرب . . رأس الأفعى .

وهكذا صبت البسوس منذ البداية نيران غضبها وأحقادها على وزير ذى اليزن
المقرب « يثرب » دون أن يثنى شيئا عن قرارها الذى أصبح يشويها شيئا :

- دم حسان .

وشيثا فشيئا واصلت البسوس نفص أيديها من التبع الجديد الذى لم يعد يأخذ برأيها
فى الخروج للحرب انتقاما لعمه حسان . حتى إذا ما وجدت بغيتها فى الانتقام وأخذ
الثأر الذى يبدو أن لهيبه اشتعل أكثر فى « صنعاء وعدن » ، أضرمت هى المزيد من
النار إلى أن دفعت بابن عم حسان الأمير المدعو « عمران القصير » إلى تجهيز حملة من
«مائة ألف مقاتل ، إلى بلاد الشام » .

وكان كليب قد استعد للحرب والقتال ، وخرج للقاء « عمران القصير » . والتقى
الجيشان واشتعل لهيب المعارك والحرب ، حتى عظمت الأهوال ، فظل كليب يفتك
بأفياهم ، الى أن تمكن من عمران القصير ذاته ، فصرعه على ذلك النحو المشين الذى
لطخ حكم حمير وتباعته .

- يالها من كارثة لن يمحوها أى ثأر ودم مراق على روابى دمشق ولبنان وأرض السرو
وعباد وفلسطين ، مدى الدهر .

تساءلت البسوس مذهولة كمن فقدت وعيها كله وهى تسير عبر ردهات قصرها
على غير هدى .

- أى دم ذلك الذى سيشفى غليلي يوما ، ليستقر ابن أخى التبع حسان فى مثواه
الأخير . شردت ببصرها عبر الشرفات المحيطة ، متطلعة إلى وفود القبائل شاهرة الرماح
والحراب مطالبة بالثأر لدم التبع المغتال . . وابنه - الصحصاح - وابن عمه - أخيرا
-عمران القصير :

-الدم . . الدم . . الثأر . . الثأر .

مدت البسوس كفى يديها وكأنها تستشف وتقرأ ماتخبئه الأيام والليالى الثكلى من
أحداث جسام حبلى بالثأر المبيت .

- رأس كليب بن ربيعة .

أرخت فجأة ذراعيها منكسة ، كمن أسقط فى يدها يائسة ، من فداحة الأخبار

الأخيرة التى حملها إليها رسلها وبصاصوها الفارون الذين عادوا أدراجهم إثر الانتصار الأخير الحديد الذى أحرزه كليب بن ربيعة على جيش عدن وصنعاء :
- ياللعار .

اندفعت البسوس من فورها صارخة فى وصيفاتها :

- أين الجثمان ؟

- بالقاعة الغربية يامولاتى .

مضت من فورها متشحة بخبائها الأسود عابرة صفوف المعزين من رجال ونساء .
إلى أن وصلت إلى حيث التابوت الحجرى الجرانيتى الذى وورى فيه جثمان الأمير «عمران القصير» مشيرة للحراس برفع الغطاء حتى إذا ما وقعت عينا البسوس على الجثمان المسجى بلا رأس ، تراجعت كالمشدهوة من رهبة المشهد .

- أين الرأس ؟

- سمره كليب على بوابات دمشق إلى جوار رأس التبع حسان .

صرخت من فورها :

- والرجال .. أين الرجال فى حمير .. أين .. أين ؟

عم صمت طويل ، لم يقطعه سوى نهضة النساء وعويلهن فى خفوت وتحسر .

عادت من فورها إلى مضجعها ، عاقدة العزم على تنفيذ انتقامها المبيت من جميع التغليبين الفلسطينيين وآل مرة اللبنانيين :

- أشفى غليلي من كليب وتلك الملعونة .. الحية الرقطاء .. الجلييلة بنت مرة .

وهكذا بدأت البسوس تخطط لانتقامها المقبل . ومن المعروف أنها كانت تحمل العديد من الأسماء والألقاب منها : سعاد ، وتاخ يخت ، وهند ، والبسوس ، بالإضافة إلى الاسم الذى يرد فى الأدب العربى الكلاسيكى « الهيلة » .

وقد قامت ملاحم التباعدة لتنسج عن البسوس ملاحم كثيرة أضفت عليها هالات

أسطورية وحدثها مع المتنبئة الشاعرة الطروادية « كاساندرا » . مثل قصة حبها وزواجها المشابهة لما وقع بين « أبولو وكاساندرا » وانتهى بزواجهما فى النهاية .

فلقد كانت سعاد أو البسوس منذ مطلع شبابها فاتنة باهرة الجمال فصيحة اللسان شديدة البأس دائمة الترحال :

كانت تركب الخيل فى الميدان وتبارز الفرسان ، واشترطت ألا تتزوج إلا من يقهرها فى ميدان القتال .

وكان أن سمع بخبرها ملك عظيم اسمه - سعد اليانى - وكان ملك بلاد السرو - أى الاردن - فركب إليها وبارزها ، إلى أن اقتلعتها من فوق سرجها فأقرت له بالغلبة ، وتزوجها وأقام لها حفلا عظيما لمدة سبعة أيام .

بعدها عاد بها إلى بلاده ، وظلت تحكم معه البلاد عشرة أعوام ، إلى أن أصيب «سعد اليانى» بالعمى وفقدان البصر ، فأصبحت هى الملكة كلمتها هى العليا فى بلاد السرو وعباد .

إلا أنها آثرت العودة بزوجهما الضيرير إلى بلادها خلال فترة تغيب أخيها التبع أسعد وحروبه فى أقاصى الشرق ، إلى أن وقعت ألاحداث الأخيرة الدامية ، التى دفعت بها إلى التصدى للانتقام بنفسها ، والعودة إلى ربوع بلاد الشام ، التى سبق لها أن عاشت وحكمت فيها سنوات عشرا .

لذا فإن البسوس على دراية واعية دقيقة بمجريات الأمور بالشام وبلاد السرو وفلسطين ، بما يسر لها سبل تحقيق أغراضها من أوسع الطرق وأقصرها للانتقام بشكل رهيب وبشع وبصورة أكيدة لا ينجحها أى شك .

فما أن حددت يوم رحيلها سرا ، حتى ركبت هى وبعلمها الأعمى وبناتها وثمان ممتلكاتها وسارت إلى أن حطت رحالها فى بيروت والباق بالقرى من « حلة بنى مرة » .

وعلى الفور أرسلت وفودها بغالى الهدايا للأمير « جسساس بن مرة » ، حتى إذا ما

استحسن جساس رفيع هداياها إليه ، طلب مقابلتها ، فسعت إليه - البسوس -
وأنشده أبلغ أشعارها :

«بدوام أيام الأمير جساس بن مرة ، ورفع على ملوك قدرك ومكانك ، ونصرك على
حسادك وأعدائك» .

وما أن تعجب جساس من فصاحتها وسألها عن حالها حتى قالت :

- « أنا شاعرة أطوف القبائل والعشائر ، أمدح السادات وذوى الجود والأكابر » .

هنا رحب جساس بها للعيش في دياره وحماتها من كل معتد .

وهكذا بلغت البسوس مرادها ، فمضت من فورها تنشر الفتنة بين « البكرين من
آل مرة » . وحكامهم التغليين أو بنى ربيعة وملكهم المتجبر كليب :
- ذلك الذى حرم عليكم الماء والكلأ .

وعندما بلغت ذروتها في تحريض القبائل ، ووصل الأمر إلى مسامع أميرهم جساس
ابن مرة ، بعدما أوغرت صدره ضد التغليين وتعدىها على قومه ، طالب بضرورة
الاجتماع بزواج أخته الجليلة - كليب - وإعلامه « بتعديات أقوامه وجورهم وجورها » .
إلا أن فتنة البسوس كانت قد استفحلت إلى أن وصلت أسماع الملك كليب ذاته ،
وتبنى بنى مرة لها فأرسل إلى جساس يطالبه بإيقاف الفتنة وإخراج العجوز الشاعرة من
القبيلة .

وهكذا تحقق الانقسام ، ونمت المخاوف وأزهت التوجسات بين الطرفين .

حتى إذا ما أقدم كليب يوما على قتل ناقة البسوس المطلسة - التى كان يدعى أنها
من سلالة ناقة النبی صالح والملقبة بسراب ، حين اقتحمت - الناقة - بستانه البهيج
وسط غوطات دمشق ، والذى يقال ! إنه كان « من أحسن متنزهات الدنيا » مما دفع
بكليب إلى إطلاق سهمه نحو ناقة البسوس - السائبة - « ليستقر معتدلا في
ضرعها وليشخب بـ « الدم واللبن » .

حتى إذا ما أدركت البسوس ما حصل وتلفحت بجلد ناقتها وتخضبت بدمها دخلت

نائحة على جساس بن مرة وألقت بجلد الناقة الذبيحة بين يديه . هنا استبد بجساس الغضب .

حتى إذا ما حاول جساس تهدئة البسوس وتعويضها بما تطلب فداء لناقته أجابت - أريد واحداً من ثلاثة أشياء :

إما أن تملأ حجرى بالنجوم
أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم
أو رأس كليب بالدماء يعوم .

وهكذا خرج الأمير جساس قاصدا مقر الملك كليب بدمشق ، وما أن استقبله كليب قادمًا عليه بكامل عدة حربه . . حتى تعرفه ، إلا أن جساس راوغه زاعما له أنه كان في طريقه للصيد ، وما أن مر بدمشق حتى جاءه مسلما ومعاتبا لقتل رعيانه لناقته ضيفته ونزيلته « العجوز الشاعرة وبعلمها الأعمى » .

حين طيب كليب خاطره ، عارضها عليه أربعائة ناقة عوضا عن ناقة العجوز الضيفة ، واصل جساس خداعه مغيرا الموضوع قائلا :
- « مرادى ان ألعب معك سباقين بالجريد » .

وضحكا ولعبا طويلا في صفاء إلى أن نحين جساس لحظة مباغته لاغتيال الملك من ظهره ، « وهز في يده الرمح وطعنه في صدره حتى خرج يلمع من ظهره » .

فسقط كليب يتخبط في دمه ، فندم جساس وتقدم اليه وقبله في لحيته وعارضيه ، وضمه إلى صدره ، ووضع رأسه على ركبتيه وقال :

- « سلامتك يا أبا اليمامة ، فقد حلت بى الندامة » .

فطالبه كليب بشربة ماء وأنشد مرثيته متحسرا :

يقول كليب اسمع يا ابن عمى
أيا جساس قد أهرقت دمي

أيا غدار تطعننى برمح
ولست أنت فى الميدان خصمى
على ناقة تقتل ابن عمك
أمير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك
ويردى الضد فى يوم التزال .

وما أن فرغ الملك القتيل - كليب - من شعره الدامى ، حتى ارتعد جساس وذبلت
أطرافه وهو يبعده عنه ليسقيه مروعا ، ثم تركه مجنولا هاربا ، لعبد البسوس المختبىء
الذى تقدم من الجثمان ليجز الرأس ويعود به إلى سيدته « الهيلة » أو البسوس التى
حققت انتقامها من قاتل التبع حسان ، وأشعلت - فتيل - حربها الشهيرة بين آل مرة
والتغليين ، تلك الحرب القبلية الانتقامية التى استمرت لمدة ٤١ عاما ، والتى اشتهرت
باسمها حتى اليوم :
-حرب البسوس !



11

التبع ذو اليزن يحكم همير

كانت نتيجة احتفاء القبائل والأقوام في جزيرة العرب بالملك الجديد الشاب « ذو اليزن » وحبه الجارف له ، هي انخراطه بكل طاقاته في إعادة بناء مشروعات سدود المياه العملاقة ، التي تتيح للناس الزراعة والرخاء ونشر الاخضرار من بساتين زاهرة وحبوب .

كان الملك يهدف من هذا إلى إعادة بناء واستقامة ما سبق للحرب أن هدمته وذلك لما تتطلبه من رجال ، أجبروا على التخلي عن الزراعة والرعى ، ليساقوا بالآلاف المؤلفة ، أو تحملهم السفن والمراكب إلى ما وراء البحار ، إلى أن تمكن الملك تبع بمساعدة وزيره الحكيم « يثرب » من إعادة بناء سدود « مأرب » التي كانت قد هدمتها السيول ، وتخلي سواعد الرجال عنها انشغالا بالغزو والحرب في ربوع قارة آسيا وشمال الجزيرة العربية وفي ما بين الرافدين . حتى إذا ماعم الرخاء ، ارتفعت الأيدي بالدعاء للملك الشاب ، وتجمعت وفودهم أكثر فأكثر للالتفاف حوله ، وهي تلهج له بالنصر في كل خطواته .

وتضاعفت فرحة الوزير الأول « يثرب » ، وهو يشهد الجموع على ذلك النحو ، إلا أنه سرعان ما اعتراه التغير والاندهاش ، حين تهاوت إلى سمعه الأصوات المرتفعة في حضرة الملك تبع ، والتي أصبحت تطالبه بالخروج إلى الغزو والفتح ، أسوة بما اتبعه ودرج عليه أسلافه من التباعة .

وسرعان ما تزايدت الدعوة للغزو والفتح ومواصلة القتال تحت راية التباعة :

- وحتى لا تنكس سيوف حمير وأذرعها الضاربة .

فلم تقتصر تلك الدعوة مع توالى الأيام والأشهر على العدنيين والصنعانيين ، انتقاما لمصرع أميرهم - المنتقم - عمران القصير ، بل تواترت إلى أسماع الملك ووزيره من كل كيان وموطن وقبيلة والتي علت نبرتها داخل عدن وصنعاء وحضر موت خاصة .

وزاد من عجب الوزير « يثرب » أن التبع الجديد ذا البزن بدأ يسمع إلى دعوة المطالبين بالغزو والطراد يوما بعد يوم ، متخليا عن آرائه السابقة في التعمير والزراعة ونشر الرخاء .

ولم يمض وقت طويل ، حتى توافدت جماعات المقاتلين وفيالقهم وكتائبهم من كل مكان مشهورة سلاحها ، إلى عاصمة التبع ، بانتظار إشارته بالحركة والخروج للقتال .

وكان كلما تضاعف حماس المحاربين واشتد ، كلما أثنى عليهم الملك التبع مقربا مستبشرا فاتحاً لهم ذراعيه وقلاعهم وبساتينهم ومخازن مؤنه مغدقا عليهم العطاء السخي المشجع لقدم وفود جديدة من كل قبيلة وموطن تحت حكم « حمير » الشاسع .

حتى إذا ما حاول الوزير « يثرب » مفاتحة الملك الشاب في هذا الأمر وعواقبه ، قاربه الملك نازلا عن عرشه ، ممسكا في رفق بذراعه باتجاه شرفات القصر الحاكم مشيرا إلى الناس ، بنفس مافعله سابقا مع عمته البسوس ، قائلا :

« إنما أنا أمير ، حيث تسير جموع الناس » .

تراجع الوزير مفكرا وقد أحاطت به الوسواس من كل جانب ، خاصة عندما أصبحت وفود المحاربين وفيالقهم في الأيام الأخيرة لا ينقطع لها تواصل ، حتى ضاقت مدينة التبع ، على الرغم من رحابتها ، بهم . غمغم الوزير لنفسه في أسى :

- حقا إنه إرث التباعدة الذي لامهرب منه . . لأحياة بلا حرب أو قتال وأنهار دم .

وتساءل يثرب بينه وبين نفسه في حسرة :

- ألا يكفي مافعلته البسوس في إشعال نيران الحرب الضارية في ربوع الشام ولبنان

وفلسطين ، بعدما أوقعت بينهم بفتنتها التى أصبحت اليوم وبعد مقتل جساس بن مرة لكليب بن ربيعة التغلبى ، تحصد الجميع حصدا . . ألا يكفى ؟

إلا أن التبع سرعان ما انخرط بنفسه بين صفوف جيشه المتعاضم مشرفا ومنظما على تدريباتهم ومؤنهم جالبا السلاح والعتاد من كل مكان .

والوزير الحصيف « يثرب » يستشف ببعده بصيرته نهاية كل ذلك :

- الحرب وأنهار الدم ، تلك التى لامهرب من أوارها وهكذا تحقق حدس الوزير ، بحلول ذلك اليوم المشؤوم الذى أقام فيه الملك ذو اليزن حفلا كبيرا شغل قاعات قصره (الحصن) واستغرق الإعداد له أياما طوالا .

ودعى إلى هذا الحفل كبار قواده ومستشاريه وشيوخ القبائل والأمراء والحكام ، امتد فيه السمر وتبادل الآراء والمشورة بين الجميع ، حول ما يحدث ويجرى داخل مختلف الأقوام المتاخمة لحمير والمناوئة لها ، بما قد يشكل خطرا فى المستقبل .

وفجأة قدم إلى ذلك الحفل شخص غريب ، فى هيئة مسكين أو سائل ، وينم مظهره بكامله - وكما أجمع الجميع - على أنه غريب ، لم تألفه عين من قبل .

وحينما دفعت الساحة بالملك إلى الترحيب بالغريب وسؤاله عن حاله ، أخبره بأنه مجرد سائح جوال فى بلاد الله الشاسعة ، خبر أحوال البلاد والعباد ، مدونا أخبار ما يسمعه ويراه . . ولا أكثر .

هنا عاجله الملك بالسؤال :

- وهل صادفك من هم أعلى منزلة منا ؟

صمت السائل ولم يجب :

- إنى أسألك ؟

عندئذ انهمك السائل فى تناول طعامه لائذا بصمته كمن لم يسمع .

وحين تدخل بعض الحاضرين مطالبينه بالرد على التبع ، انتصب واقفا مجيبا :

- أجل

- من إذن ؟

- ملك بعلبك .

- هل سبق لك زيارة بلاده ؟

- أجل .

واجهه الملك ذو اليزن :

- أخبرنى أيها الصديق .

وهنا اندفع ذلك الغريب السائل ، ساردا تاريخه وخصائصه وحصونه وقلاعه
وكتائب جيشه - من حراس الأرز - وعن سطوته وثرائه :

- ياللغربة !

ليلتها لم ينم التبع وظل يفكر وفى النهاية عقد العزم على المسير إلى بعلبك والبقاع
مهما كلف الأمر ، لتأمين ذراع حمير الطولى وتحصينها التى أخذ « تباعتها » على الدوام
بمنطق « أن الهجوم خير وسائل الدفاع » .

- أيها الناس ، إن لم تهاجموا الناس هاجموكم ، وإن لم تغزوهم غزوكم .

ولم يطل الوقت كثيرا بطبول « الرجروج » ، حتى سمعت مدوية عالية من كل موطن
وقوم ، على طول ملك حمير الشاسع .

وانتخذ جيش ذى اليزن طريقه شمالا إلى أن حط رحاله فى موطن يقال له « وادى فزان »
على مشارف « بيت الله » فى الكعبة .

وتوقف ذو اليزن منبها من الكعبة وبنائها وشموخها ، والآلاف المؤلفة التى قدمت
لزيارتها من كل موطن وقوم وكيان .

اما الوزير « يثرب » فقد توجه من فوره للزيارة والحج إلى بيت الله ، مما أوغل صدر
التبع ، فحاول مهاجمة بيت الله متجبرا ، وبذل الوزير غاية حكمته مخذرا إياه ، الذى

تراجع من فوره متخاذلا ، ثم انسحب واهنا إلى مضاربه فلزم فراشه مكفهر مريضا ، غير قادر على اتخاذ أى قرار .

ولزم الملك فراشه أياما يعانى من آلامه المبرحة التى ألمت به ، وعجز حكماؤه عن شفاؤه ، إلى أن ثقل عليه المرض وأصبح يهذى بلا طائل ، طالبا ومستنجدا بوزيره المقرب يثرب شاكيا له :

- أيها الوزير العاقل الخبير يثرب . . أخبرنى بما دهانى ؟

وهنا أخبره الوزير ، بأن ما اعتراه من مرض عضال بسبب تطاوله على بيت الله الحرام ، الذى شيده إبراهيم الخليل وبكره إسماعيل - أبو العرب - مزيدا :

- فليليت رب يحميه . . أيها الملك .

هنا تحمل الملك ذو اليزن ، متخذا طريقه إلى حيث الكعبة فأومأ إليها مثله مثل بقية خلق الله ، إلى أن أتم حجه .

ثم أمر بكسوتها بغالى الديباج وتزيينها بالذهب والفضة ونفيس الأحجار الكريمة التى كانت فى حوزة التباعة .

وحين عادت إلى الملك عافيته ، وزالت عنه أمراضه وآلامه ، دأب على كسوة الكعبة واستكمال ما يلزم من زيتتها ومنشآتها .

بينما طاف الوزير الوادى المزهر المتاخم الذى يعبقه رحيق العطور عاقدا العزم على إقناع الملك بالبقاء فى تلك الربوع التى تعيد للنفس صفاءها .

ورجح التبع ذو اليزن ، رأى وزيره بمواصلة البقاء فى رحاب « بيت الله » ، دون استعجال المسير .

أما الوزير « يثرب فقد أخبر الملك مطولا بتاريخ بيت الله ، وما سبق أن تعرض له تباعة اليمن من أسلافه الذين حاولوا مجرد الاقتراب منه دون خشوع ، ومنهم « يعرب ابن قحطان » .

اما الوزير فقد استغرقه حلم أجهدته طويلا ، وهو بناء مدينة تشرف على هذا الوادى البهيج ، ومن فوره عقد العزم ، واجتهد فى تخطيطها وعمارتها ، وشق أساساتها ، ورفع أسوارها وتعمير قصورها ودورها ومضاربها وأسواقها وما أجراه من أنهارها . وهكذا عمرت المدينة وازدهرت ساحاتها وأروقته وأسواقها ، ورأى سكانها أن يطلقوا عليها اسم الوزير الحكيم « يثرب » .

وساعد الملك التابع ذو اليزن وزيره فى تعمير المدينة التى أعطاها اسمه ، باذلا كل عون ، إلى أن استقامت « يثرب » زاهرة ، تفيض عمراننا وعطاء .

فما كان من الوزير إلى أن كتب معلقته الشهيرة للملك ذى اليزن ، التى دونت على رقائق الذهب وعلقت بالكعبة الشريفة ، وفيها يقول الوزير « يثرب » :

- أيا ملك فى هذه الأرض قد سما

جللت بيت الله خزا مزركشا

يجير عيون الناظرين مرقما

وساعدتنى حتى بنيت مديتنى

يهاجر إليها سيد الأرض والسما

ويظهر - يوما - دين الحق شرقا ومغربا

فلقد كان الوزير « يثرب » ، وعقب نزوله ربوع هذه الأرض ، واختلاطه بأهلها وطوافه على طول بواديها ووديانها ، كمن يستشف أمرا جللا هائلا سيحل يوما بها .

صحيح أنه لم يكن على يقين من أبعاد ذلك الانطباع الذى امتلأ به ، إلا أنه كان وكلما مر به الوقت ، كلما تضاعفت رؤيته ويقينه من تصوره ذاك .

بل إن الغريب هنا أن كثيرين من أصدقائه ومقربيه قد شاركوه ذلك الإحساس .

وأن الملك التابع ذا اليزن ، فاتحه كثيرا فى ذلك التصور حول الإرهاص بمولد شخص كبير منتظر ، قد يغير يوما وجه الأرض ، وسيجىء مولده من بين ربوع هذه البلاد .

وفى البداية تصور الوزير « يثرب » أن الملك ذا اليزن - وعلى عادة ماعرف عنه - إنما

يوافقه في تصوره هذا ، من باب المجاملة فحسب ، إلا أن الملك كرر على مسامحه كثيرا مشاركته إحساسه ذاك وعبر مناسبات مختلفة ، مما دفع به إلى التيقن من صدق إحساسه .

بل إن حماس التبغ في التعجيل ببناء يثرب واستجلاب مايلزم لبنائها وتخطيطها من خيرة بنائي مصر والعراق والشام وعلى نفقته الخاصة ، قد فاق حماسه ذاته .
ولكم حاول الوزير يثرب ، أن يدفع الملك التبغ إلى أن يعطيها - أى يثرب المدينة - اسمه بدلا منه ، إلا أن ذا اليزن رفض مصرًا على تكريمه بها .
مما دفع بالوزير إلى مواصلة سهر الليالي بحثًا عن شيء - متكافئ - يرد به جميل الملك وحسن صنيعه ، دون جدوى .

حتى إذا ماجاء يوم طالبه فيه الملك ذو اليزن بسماح آخر أشعاره وقصائده ، أمهله الوزير بضعة أيام ليكتب فيها « معلقته » عنه . ولكم عانى الوزير يثرب في محاولة التعبير عن مدى حبه وتقديره الجارف ، لذلك الملك التبغ الذي لا يحدوه سوى الخير والعطاء لبسطاء الناس أينما اتجه وقادته قدماه ، إلى أن وصفه في قصيدة عصماء .





12

البحث من كتاب النيل ومطابق

لكم تمنى الوزير الحكيم « يثرب » أن يطول به المقام في هذه البلاد العاطرة ، على مقربة من « بيت الله » .

فلقد شعر بالارتياح ، الذى شاركه الملك التبع ذو اليزن ، الإحساس به عميقا جارفا ، خاصة وبعدما شفى من بلائه عقب إقدامه على كسوة الكعبة •

بل إن ماضعف من انشراح قلب الوزير الأول ، هو ذلك النمو المطرد الذى بدت عليه المدينة التى أقدم على تشييدها « يثرب » والتى تلاحق عمرانها وعمرت أسواقها بكل منتجات بلاد العرب والعجم والهند وبلاد الشام ومصر وقرطاج والحبشة .

فأقيمت المباني وشقت الطرقات وأنشئت الحدائق وملاعب سباق الخيل على ضفاف أنهارها وبساتينها التى اجتذبت الزائرين ووفود الحجيج من كل مكان .

بل إن المدينة وصلت إلى ذروة بهائها وعطائها إلى حد أن الملك التبع نفسه ذا اليزن لم يعد بقادر على فراق - يثرب - وحلو لياليتها وسمرها ، ليواصل زحفه على رأس جيشه إلى بقاع لبنان محط آماله عبر رحلة زحفه وفتوحاته ، مروراً ببلاد « السرو وعباد » وأرض فلسطين ووصولاً إلى السودان والحبشة .

فلقد كانت تلك الرحلة الشاقة المضنية ، هى الحلم الأزل للملك منذ صباه :

- البحث عن كتاب النيل .

- كيف ؟

- مصادر النيل .

سأله الوزير ذات مرة :

- أتقصد من أين يجيء النهر ؟

أجابه ذو اليزن ، منكبا بكامله على استكمال مخطوطة دونت صفحاتها على رقائق من جلود الأيائل البرية قائلا :

- المتابع .

ولعل ذلك الاهتمام من قبل الملك بالماء مصدر كل حياة ونمو ، نبت معه - كهواية - ومنذ صباه المبكر ، وكان أيامها في الحادية عشرة من عمره ، وهو مادفع بالوزير يثرب إلى احتضانه إياه ، وتبنيه منذ تلك السن ، وكما لو كان ابنه أكثر منه معلمه الذي اصطفاه ، وهو ابن عمرو القليل . .

فلقد كان الماء ومصادره ومكوناته وطرق التحكم فيه وتطويره لخدمة الناس هو الاهتمام الأول لدى اليزن أينما حل ، فهو موضوعه الذي لايمل الحديث عنه والقراءة فيه :

- فهو ذو اليزن . . أى ابن ماء اليزن .

هو كما لو أنه متحد بالماء ذاته ، باحثا عنه . . مسخرا كل ماتوصل إليه من مصادر قوة ، لإعادة تملكه :

- الماء .

فما من مكان نزل فيه ، إلا ويبحث عن مصادر مائه ومصدر حياته ، وإذا لم تتواجد . . « نجدها بسوا عدنا قبل أى شيء » ، كما كان يحلو له القول .

وها هو « يمن » ذى اليزن السعيد ، يتعم بسدوده ومشاريعه التى فجرتة - أى اليمن - بالعطاء ، جبلا وسهلا .

بل وها هي « يثرب » التي أرسى الملك بنفسه معالمها تبدو ، كمثل عروس ، عامرة
زاخرة بكل ماتشتهيه الأنفس وتستعذبه :

- يثرب . . مدينة النور المنتظر .

وبدا الوزير الأول متشيا وهو يرقبها - أى المدينة - من مقره المشرف على أعلى
روابيها ، كمن لا يطيق فراق حبيبة !

كان الملك التبع ذو اليزن قد عقد العزم على الرحيل ، وكانت قد سمعت طبول
«الرجرج» بإيقاعات لها رتابتها المتكاسلة ، تتم عن قرب حدوث الفراق ، مخالفة
بذلك إيقاعها المعتاد كالهدير لدى الإعلان عن الحروب والغزوات .

وذلك بعدما طال مكوث الملك ذى اليزن وجيشه طويلا فى ربوع تلك البلاد
ووهاذا ، مما ساعد على نمو الروابط والعلاقات بين أبناء الجزيرة شمالا وجنوبا .

وهى روابط وعلاقات متشعبة المسالك والأغراض والمنافع ، مابين صداقات
ومصاهرات وقصص حب ومصالح تجارية وعمرانية نمت وأثمرت مع بزوغ مدينة يثرب
واتساع عمرانها وحوانياتها يوما بعد يوم .

بل لقد وصل الحماس من قبل القبائل والعشائر العربية الشمالية فى نجد والطائف
وينبع وعسيران ، إلى حد دفع بشبابهم إلى التطوع والالتحاق بفيالق جيش التبع ذى
اليزن ، الذى حل عليهم ونزل حليفا أكثر منه غازيا أوطامعا فى بلدانهم .

وهو مالم يعتادوه مع من سبقوه من جدود وأسلاف - تباعنة - حسان بن أسعد ،
وتلك النكبات التى لن تغيب يوما ، والتى أحدثها حسان على طول بلدانهم
ومضاربهم ، وكما حدث مع قوم « زرقاء اليمامة » وإفناء قبائل جديس ، وتهديم
مدينتهم اليمامة إلى حد لم يسبق له مثيل .

من يمكن له تناسى أهوال حسان وسيبه لأمرتها الشاعرة المحبة منفتحة الحس
والبصيرة « الزرقاء » مكبلة فى قيودها ، وهى تلعنه وتصفعه بقيودها فى إقدام :

- غدا تسقيك الأيام والليالى الحبالى يا حسان ، من ذات الكأس .

- غدا .. ذلك الذى أراه ، تجز رأسك عن عنقك المتكبر .. بذات أسلوب الغدر.

ولعله هو بذاته ما حدث وانتهى اليه مصير - عمه - الملك التبع حسان .

لكن شتان ما بين ذلك الملك السمع البناء ذى اليزن ، وبين عمه حسان .

ومن هنا كان ذلك الحماس الجارف الذى تفجر فجأة ، كمثل نهر جارف مكتسح بين جموع القبائل فى يثرب وما حولها ، حين سمعت طبول الإيذان بالرحيل تجمىء دقاتها بطيئة على استحياء وكأنها تود الاستئذان ، لا ستكمال مهام الرحيل والزحف ، وهو ما لم يصدقه أحد من سكان يثرب وتخومها من العرب الشماليين ، حين سرى الخبر سريعا حول إقدام التبع ذى اليزن وجنده على الاستعداد للرحيل عن يثرب وشمال الجزيرة ، لاستكمال رحلة أهدافه فى ربوع الشام ومصر « العدية » حتى أواسط أفريقيا .

وبدت الجموع كمن تستيقظ من غفوتها بعدما توثقت الروابط وازدهرت العلاقات والمصاهرات .

بل إن ما أحزن الجميع لفراق ذى اليزن ، هى تلك المشاريع الجزيلة العطاء والفائدة التى خلفها ذو اليزن ووزيره الحكيم « يثرب » وبقية حاشيته ومقريه ، من تكريم لبيت الله ، وإنشاء مدينة يثرب ، وشق الأنهار والترع على طول البلاد .

وكانت قد تجمعت الوفود بمشاعلها المتوهجة مودعة ذا اليزن وجيشه معبرة عن مرارة الفراق والغياب .

- تصحبكم السلامة .

وهكذا واصل ذو اليزن على رأس جيشه ، الزحف الذى استغرق أياما إلى أن شارفوا مدينة « بعلبك » ، بأسوارها وقلاعها الحصينة التى تقطع بضخامتها الفراغ المحيط ، مشرّبة ببواباتها النحاسية العالية التى يعلوها الحراس المدججون بالسلاح وخوذات الحرب المعدنية اللامعة .

ولم يشأ التبع اليمنى إعلان الحرب أو غزو بعلبك مفضلا الحكمة على العدوان .

كذلك لم يصدر عن ملك بعلبك مبادرة إعلان حرب أو قتال ، حين وصلته أخبار نزول جيش ذى اليزن الجرار بالسهول والتلال البعيدة الغور عن تخوم المدينة .

إلا أن الملك - واسمه أيضا « بعلبك » - وقف مشرفا من أعلى روابى المدينة ، مسلطا عينا لا تحجب بصيرتها على ذلك الزحف الذى لا قبل لمخلوق به ، والمقرب من المدينة ، لكن دون أن يشهر أحد سلاحا :

- هذا ضيفى !

نطق بذلك الملك بعلبك متراجعا قليلا عن جدار النافذة العليا المشرفة على قمة «برج البروج» ، مرتجبا من هول الكارثة التى لا قبل له من قبل بمثلها :

- كل هذا الجيش والعتاد .

كان الملك بعلبك قد أمضى يومه بكامله مستطلعا لقطعان الخيول العربية المطهمة والعربات الملكية وقوافل الجمال ، فيالق جيش المشاة ، وقطعان المؤن التى لا تنتهى من رؤوس الأبقار والجمال والماعز

حتى إذا ما قارب دخول الليل التالى وهو مازال مأخوذاً بارد الأطراف من هول ما يشهد ، وما لم يشهد من قبل ، عاد مؤكداً لنفسه بصوت واضح النبرات لمن حوله من كبار قواده ومستشاريه وعيونه المسلطة :

- هذا ضيفى !

واستمر الوضع على هذا الحال أياما امتدت إلى أسابيع ، لم يرفع فيها أى سلاح .

- ويلي . . ويلي !

صحيح أن الملك « بعلبك » لم تغفل له عين من هول ما رأى من ضخامة جيش التبع اليمنى ، ومدى حرصهم ، وعدم تحرشهم بأحد ، إلا أن ما أصبح يبحث عنه هو :

- كيف التصرف ؟

وهكذا أمر الملك بعلبك من فوره بإرسال واجبات الضيافة وإعدادها بكثرة تفيض عن حاجة ذلك الجيش ، من رجال وما يليق بهم ومن في معيتهم من زوجات وأمهات وشيوخ وأطفال .

وما أن انشغلت المدينة عن بكرة بكرة أبيها بإعداد كل ما يلزم من واجبات استضافة جيش التبع الذى لم يبدر منه عدوان إلى الآن « ربما كان يمر مرورا ببلادنا وبلاد جيراننا وغيرنا من أقوام » ، كما أمر الملك ، حتى حمل الحرس المكون من كتية مسالمة في هيئة رسول وآلاف الذبائح المطهية للترحيب بالتبع الملك « ذى اليزن » من قبل الملك « بعلبك » لضيوفه العرب النازلين .

وعادوا من فورههم محملين بشكر التبع ذى اليزن للملك بعلبك . واستمر هذا الحال في تقديم « العشاء » من قبل ملك بعلبك بضعة أيام ، إلى أن قرر ملك بعلبك الانتقال بنفسه لملاقاة التبع :

- لنعرف ما الخبر . وما يحدث ؟

وهكذا انتقل إليه ملك بعلبك في حرس بسيط ، فهب الوزير « يثرب » لاستقبالهم إلى أن أدخلهم على الملك ذى اليزن الذى رحب به شاكرا حسن ضيافته وهو في طريقه بحثا عما يشغل باله وفكره عن مصادر الماء . وخاصة :

- كتاب النيل .

غمغم ملك بعلبك متحسسا جبهته كمن يمنع نفسه من الإغفاء ، بعد طول عناء :
- النيل .

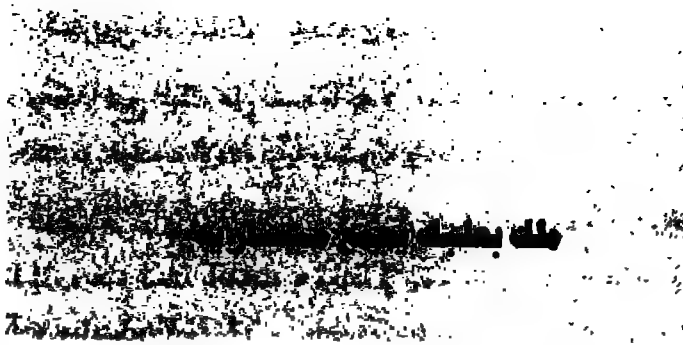
قاربه الملك ذو اليزن في مودة وهو يأخذ بيده ليعتلى عرشه إلى جانبه :

- منابع النيل .

وما أن دارت أقذاح القهوة العربية ، حتى استجمع ملك بعلبك كامل توجهه ، وكان ضخم البنيان ، كث الشوارب والحاجيين ، محبا للحياة ومباهجها ، وبدا للحظة مفتونا من مشهد الملك التبع ذى اليزن وصفاء ذهنه وما يشغله من موضوع ، هو في الحقيقة قوام كل حياة في الوجود من سلمٍ وحربٍ وسياسة :

- الماء . . ومصادره .
- اندفع من فوره محييا ذا اليزن .
- ياله من موضوع يليق بالملك .
- وامتد الحديث بينهما عذبا يفيض صفاء وتدققا حول عالم البحار والأنهار وأسراره
التي سيظل موضوعها يشغل كل بال .
- إلى أن تفهم ملك بعلبك ، حسن غاية التبع ، فخرج بالحديث مستوضحا هدفه
من النزول على تخوم بعلبك ، فأخبره الملك ذو اليزن مازحا بصوته العميق الذي يشيع
كل طمأنينة في آذان سامعيه :
- لم لا يعرف كل منا صاحبه ؟
- ثم أعاد ذو اليزن طمأننة الملك بعلبك قائلا له :
- ولعلك الآن تعرفت علينا وأدركت حقيقة نوايانا .
- هنا فهم ملك بعلبك غرض التبع ومرماه ، وكيف أنه الآن - أى ملك بعلبك - على
معرفة بحجم جيش التبع وعتاده .
- فبادره ملك بعلبك ممتنا مرحبا :
- هذا مطلب يشرفنا حقا أيها الملك الحكيم التبع .
- قال ذو اليزن :
- « مرادى أن أنظر عسكرك » .
- هذا شرف كبير لنا حقا .
- وقبل أن يهب ملك بعلبك مودعا التبع ذا اليزن منصرفا ، اتفقا على استعراض
عسكر الأول في اليوم التالي :
- فلعلك أيها الملك الكريم . . تبارك جيشنا وترعاه .

13



ما أن انصرف التبع ذو اليزن عقب استعراضه لجند وكتائب وعتاد ملك بعلبك الهائلة العدد والعدة ، وذلك التنظيم وحسن المظهر الذى اتسم به أفراد الجيش وقادتهم ، حتى أحاطت المخاوف والهواجس من جديد بملك بعلبك ، متسائلا :

- ماذا أفعل . . دلونى !

وعندما لم يسعفه أحد بجواب شاف ، اندفع من فوره ، غارقا فى مشاعره ، مسترجعا تعبيرات وجه ذى اليزن وهو يطل من فوق البناء المشرف على ساحات جنده وكتائبه فى إعجاب وتقدير ملقتين ، وفى بعض الأحيان كان يرفع يده بالتحية لجمعهم :

- ترى ماذا يقول . ولماذا طلب منى هذا المطلب الغريب ، أن يشهد جيشى ومصدر قوتى . لماذا ؟

تساءل مسترجعا لحظة أن أطل بنفسه من أعلى كوة قلاعه مستعرضا جيش ذلك الملك اليمنى التبع ، حالما انشق الأفق البعيد عن عسكره وقواته بملابسهم الغربية وأجسادهم الناحلة الجافة الدقيقة التكوين وأسلحة حربيهم ، ودقة تنظيم صفوفهم :

- لابد أن فى الأمر شيئا ، ستكشف عن وجهه الخبيء الأيام والليالى المقبلة .

من جديد اتجه من فوره إلى جموع مستشاريه طالبا مشاركتهم ومشورتهم الرأى فى ما يحدث ويجرى فى بعلبك وبقاعها والذى جاء هكذا دون سابق إنذار .

-أخبروني ماذا يحدث ، وما الذى يمكن فعله الآن قبل غد . . قبل فوات الأوان ؟
وهكذا فتح الملك على نفسه فاتحة لا حدها ولأهوالها ، حين حاول كل وزير أو أمير
أو قائد من قواده ، الإدلاء برأيه ومشورته وخططه .

فمنهم من رأى الملك التبع - ذا اليزن - ييغى شرا بهذه البلاد ، وإلا فلماذا جاء إلى
بعلبك وبقاع لبنان بالذات ، ولماذا لم ييتم وجهته إلى بلاد السرو وعباد ، أى وادى
الأردن وفلسطين ؟

وإذا ماكان طريقه وغايته بلاد الحبشة وأواسط قارة « أفريقيا » ، فلماذا لم يتخذ أقصر
الطرق من اليمن وجنوب جزيرة العرب ، عبورا إلى القرن الأفريقى ، بدلا من بعلبك
وشمال لبنان ؟

وانتهت آراء ذلك البعض إلى أهمية الاستعداد للحرب واتخاذ الهجوم كخير وسائل
الردع والدفاع ، بدلا من أن يبدأ هو - أى التبع - هجومه ، خاصة بعدما تعرف عن
قرب على حجم الجيش وعتاده وأساليب قتاله .

. وتزايدت مخاوف « الملك بعلبك » من الاندفاع والأخذ بهذا الرأى ، فمن يدرى . .
لعل ذلك التبع اليمنى صادق في قوله ونواياه ، وأنه حقا يشغله بحثه الذى يركب له كل
الصعاب والمخاطر ، بحثا عن :

-كتاب النيل . . ومتابعه .

تساءل ملك بعلبك :

-من يدرى ، فقد نخسر كل شئ في حربنا مع اليمنيين ، وما عرف عنهم من بأس
وجلد على المنازلة والقتال .

وأعاد الجميع إلى الأذهان سيرة تبعهم حسان اليمانى وتجبره في حروبه مع « آل مرة »
والتغلييين ، وما أقدمت عليه يداه من صلب وقطع وقاب مانزال تحضب آثارها بوابات
دمشق .

ثم ها هي ذى الحرب التى أشعلت فتنتها عمته البسوس ، تلتهم الجميع معا من آل مرة والتغليين ، وفى كل عام يتزايد أوارها مستعرا متفاقا :

- حرب البسوس .

غمغم ملك بعلبك ، متجها كالمأخوذ إلى حيث شرفة قصره الشمالية المطلة على فلول مضارب جيش التبع وقبائله النازلة فى سهول البقاع :

- حرب البسوس بين أبناء البيت الواحد ومن يدرى . . لعل لهيها وشرها سيصلنا هنا فى ربيع هذه البقاع

استدار من جديد عائدا حيث وفد مستشاريه وقواده ، سائرا بكفه جانب وجهه المكفهر عن تلك العيون المحيطة المتطلعة إليه ، وكأنها إنما تتطلع مشدوهة إلى إنسان آخر غيره . فهم لم يعتادوا من قبل ان يروا ملكهم على هذا النحو من الكفهرار والتخاذل وهو يكرر تساؤله المؤرق :

- من يدرى !؟

بل إن ماضعاف من شكوك ملك بعلبك أكثر فأكثر هو مجيء التبع بجيوشه إلى البقاع ، بدلا من نزوله وجيشه إلى دمشق وفلسطين لأخذ ثأر عمه من كليب بن ربيعة وآل مرة . ثم انفجر ملك بعلبك غاضبا حين تسرع أصحاب الرأى المتصلب المطالب بالهجوم قبل أن يبدأ اليمنيون صائحا :

- نحن لسنا فى لعبة مراهنه ، فأين نحن - حراس الأرض - من حمير وتباععتها ؟

هب الملك عن كرسيه ، كمن يعانى اختناقا من هول ما يحدث ، متذكرا هيئة أمير بنى ربيعة مصلوب الرأس إلى أسفل على مداخل دمشق ، وقد غاب عنه دمه المنحبس فى عروقه ، جاحظ العينين غارقا فى صمته وآلامه المبرحة .

وما أن استرد ملك بعلبك عافيته حتى عاوده صفاء ذهنه ، فطالب ناصحيه بالتروى والعمل فى صمت وضبط النفس إلى حين عودة عيونه وبصاصيه المتبئين بين جموع اليمنيين ومضاربهم فى آخر الليل ومعرفة حقيقة ما يحدث .

- ما الخبر؟

وفي آخر الليل كان قد تجمع لديه كل ماطلبه من أخبار ، إلا أنه لم يجد فيها أبدا مبتغاه ، وهو ماينبئ عن اقتراب رحيل التبع ذى اليزن عن البقاع بل وعن لبنان والشام بأكمله . صرخ الملك من جديد وقد اعترته النوبة :

- ألم يَطِبْ لأولئك البدو الغزاة الإقامة والمقام في بلاد الله الواسعة . . سوى هنا وعلى عتبات بواباتنا ؟

استدار ضاربا كفا بكف :

- أتكتُم أنفاسنا ليل نهار على هذا النحو ؟

- كان ملك بعلبك قد أصدر أوامره لعماله وحكامه بالصمت ، منذ نزول التبع وجيشه فلم يعد يسمع في كل جنبات المدينة لهوها وصخبها وما اشتهرت به من أفراح ودبكات ورقص وغناء حتى مطلع كل فجر .

لذا بدت المدينة في الأيام الأخيرة صامطة مترقبة ، يشيع في جنباتها التوجس المطبق ولا شئ غيره :

- إلى متى ؟

تساءل الملك متفرسا في وجوه المحيطين منه من وزراء ومستشارين وقواد :

- إنه الحبس . . الأسر بعينه . ما أصبحنا وأمسينا فيه داخل أسوارنا .

مرة أخرى عاوده هدوؤه وتماسكه معاودا التساؤل :

- أما من حيلة ؟

- حفلة على شرف التبع .

نفوه الملك مفكرا :

- مسمومة !

وأخذا بمقولة خير البر عاجله اندفع الملك من فوره معدا كل شئ بدقة وحذر

شديدين .

حتى إذا ما أشرف بنفسه على دقائق خدعته الجديدة ، توجه من فوره إلى حيث يريض حرسه عاقدا عزمه على المسير إلى مضارب التبغ ذى اليزن لدعوته للحفل ، ودعوة وزرائه وكل قواده وأرائه وحتى كبار جنده لحفلة العمر التى ستشهدا سهول بعلبك تلك الليلة :

- ليفرح الجميع . . وتتوثق عرى الصداقة والمحبة . . الليلة !

وسريعا ما استحال ليل روابى ومنحدرات وقصور ويساتين بعلبك ، إلى نهار جلى وواضح ، بعدما انتشرت محارق نيران الشواء والطهى وأضيئت الفوانيس والمشاعل والشمعدانات ذات الثمانية الأفرع ، وعمت البهجة الجموع وانتشرت حلقات الرقص الجماعى العملاقة (الدبكة) وعلت الموسيقى وصاحت المغنيات ، ومدت السهافات والأبسطة والموائد الخشبية والنحاسية والمرمية .

وتوقف ملك بعلبك يشهد بنفسه من كوة أعلى أبراج قلاعه ، غبار موكب الملك التبغ فى جبروته محاطا بهوادجه وكواكب فرسانه ، وفى إثره موكب وزيره . . العاقل الحكيم يثرب . .

وهنا تدافعت دقات قلبه مما سيحدث هذه الليلة الليلة ، التى قرر أن يضع فيها حدا لهواجسه وخاوفه .

حتى إذا ما قارب موكب الملك التبغ ذى اليزن مشارف الحصون الأمامية للمدينة . نزل ملك بعلبك مسرعا متبوعا بحاشيته ومقربيه وقد نشر الزينات والأعلام - اليمانية - شمالا وجنوبا مرحبا بالتبغ ذى اليزن :
- شرفت ديارك .

واصطحبه من فوره إلى حيث اعتلى معه عرشه الهائل وأجلسه أعلى منه منزلة . ومدت موائد الطعام والشراب ، وعذب السمر ، وخلال كل ذلك ازداد الملك بعلبك شحوبا حتى إنه لم يجزؤ على أن يشير للتبغ مرحبا إلى حيث موائد الطعام . وتزايد اكفهراره أكثر ، حين لاحظ أن الملك ذا اليزن ووزيره يثرب أو أيا من مرافقيه لم يقرب أيضا طعاما أو شرابا .

بل إن الوزير « يثرب » نادى أحد مقريه وأسر له بشيء لم يسمع ، تواتر من فوره إلى جموع الضيوف في ذات الصمت الحازم .

هنا تزايدت هواجس الملك المضيف ، وهو يرقب ما يحدث ، من دون أن يعرف فحواه ، وتساءل :

- تراهم قد عرفوا بأهوال هذه الوليمة المسمومة !

وحاول دفع الملك ذى اليزن إلى المشاركة في الغناء والطرب ، جاذبا اهتمامه إلى مهارة حلقات الراقصين وهم يدقون الأرض في تناسق متناغم عرف عنهم منذ القدم ، وجاءت به الكتب والأسفار القديمة ، وشاركه التبع ذو اليزن مؤكدا ، في صفاء عن مدى مهارتهم وحسن غنائهم وإيقاعهم .

وعم الحفل لحظة وجوم امتدت ثقيلة إلى أن قطعها سقوط بعض اليمينين صرعى بعدما تسرعوا وأكلوا الطعام المسموم يعانون في صمت وأصوات مكبوتة ، مما دفع بالتبع ذى اليزن ، إلى مقاربة ملك بعلبك مسرعا في أذنه قائلا :

- مرادى أن أنازلك أيها الملك في الميدان !

ثم انسحب التبع الملك ووزيره يثرب وبقية المدعوين من أمرائه وقادة جيشه وحاشيته ، بعدما اتفقا على المنازلة في اليوم التالى على مشارف تلال بعلبك .

وفي اليوم المحدد مع مطلع النهار ، اجتمعت جموع عظيمة لا يحدها بصر من الجانبين مبكرين لمشاهدة النزال بين ذى اليزن وملك بعلبك .

وحين تواجهها صالا وجالا في الميدان طويلا ، بين « صد ورد وطراد ومهارشة » ، حتى انبهر كل من شاهدهما .

وظلا هكذا إلى أن غربت الشمس دون غالب ومغلوب ، فتصافحا وافترقا على اللقاء في اليوم التالى وجرت المباراة بعدما داخلها خبرة كل منهم بخصمه ، وظلا يتلاقيان ويتباعدان ، ويكمنان ويفران طيلة اليوم إلى أن حطت الظلمة أعالي جبال بعلبك وروايها . . وافترقا على لقاء جديد .

وامتدت المنازلة بينهما سبعة أيام .

وفي اليوم الثامن كان ذو اليزن قد داخله الوهن والتعب ، إلا أنه تمكن من ملك بعلبك الهائل الجثة فأرداه قتيلا ، وأشرف بنفسه على دفنه في مهابة وتكريم .

وبعدها قرر الملك ذو اليزن بمشورة وزيره المقرب « يثرب » الرحيل عن تلك البلاد ، بعدما أخذ عشرين حملا من مال ملك بعلبك وجواهره وذهبه الإبريزى وفضته الفينيقية .

وارتحل ذو اليزن بجيشه طالبا أرض الحبشة وبلاد السودان ، إلى أن نزلوا واديا ذا أشجار .



مقدمة

الجزء الثاني

آثر التباعدة ..

الملك سيف بن ذي يزن

توقفت بنا أحداث السيرة المندثرة للملوك التباعدة عند رحيل الملك
التبع ذي اليزن ، إلى أفريقيا بحثا عن كتاب - أو منابع - النيل ،
واقدامه على بناء مدينته التي شق أنهارها وشيد قلاعها وبنى أسوارها
وسماها ، أحمرأ أو «الحمرأ» .

لحين نشوب ذلك الصراع بينه وبين ملك الأحباش « سيف أرعد » ،
الذي أفرعه، إلى حد الجنون ، نزول الملك ذي اليزن بجيشه العربي
بالقرب من بلاد الحبشة، وتهديد سطوتها ويدها الطولى المهيمنة على
منابع النيل ، وعلى معظم الأقوام والكيانات والقبائل الأفريقية سواء في
شرق أفريقيا المتضمن للقرن الأفريقى ، أو شملها في السودان وبلاد
النوبة وصعيد مصر والمغرب .

فكيف لملك الحبشة « أرعد » أن يهدأ بالا ، وهو يشهد تعالى سطوة
العرب وتبعهم ذا اليزن وازدهار مدينتهم الجديدة التي تضاءلت بجانبها
عاصمته أثيوبيا ، كما ورد في معلقات الوزير الحكيم « يثرب » :

ومن يثرب قد سرنا بعد عمارها

إلى بعلبك ابن عمى بها كبرا

وسرنا الى أرض الحبوش بجيشنا
 نزلنا بواد عمه الماء والزهر
 مليكنا ذو اليزن عمر أحمر
 حصنها بالأسوار وأجرى الأنهر
 فما كان من سيف أرعد سوى اللجوء إلى الحيلة والمكائد للتخلص من
 الملك التبع ذى اليزن الذى عمت شهرته آفاق أفريقيا ، فأرسل بأخلص
 وأجمل وأذكى جواريه « قمرية » محملة بسمها الزعاف لتتقضى عليه .
 إلا أن الجارية التى بهرت من روعة وحضور وفروسية الملك ذى
 اليزن، سرعان ما وقعت فى حبه منذ أول لقاء ، فأفضت إليه بخطتها باكية
 عند قدميه .
 وهنا توطدت الصداقة بين الملك التبع الزاهد المنقطع لأبحاثه العلمية
 لإنشاء المشروعات المائية من سدود وخزانات هدفها الاخضرار وخير
 الناس ، وبين الجارية الباهرة الجمال والذكاء التى جاءت لتقتله .
 وكان المرض المفاجيء قد بدأ يغزو جسد الملك الكهل ، دون أن
 يخلف وريثا لحكم التباعة من بعده فقرر الزواج من قمرية ، ليخلف
 منها ، وقبل فوات الأوان ، وريثا لحمير:
 - هو « هيكل . . وندعوه سيف »
 مولد آخر التباعة
 وفى أعماق القارة السوداء ولد « هيكل » أو سيف بن ذى يزن يتيها
 بعدما فارق والده الملك ذو اليزن الحياة ، مفضيا لزوجته « قمرية »
 بوصيته التى موجزها أن تعتلى هى عرش التباعة لحين اشتداد ساعد ولده
 الوحيد سيف أو هيكل لتسلم سلطاته :
 - ليحكم بالعدل بين الأقوام والقبائل .

وكذلك أوصى له الملك الوالد ، بمخطوطاته ومدونات وأبحاثه
حول :

- كتاب النيل .

إلا أن مولد سيف صاحبه الكثير من المخاطر الهائلة التي أضرم لحييها
ملك الأحباش المتجبر سيف أرعد ، ووزيره المعادى للعرب الساميين «
سقرديون » ، فما كان من الأم قمرية ، إلا أن ربه في الخفاء بأحراش
وغابات أحد البلدان الموالية سرا للعرب (من المرجح أن يكون السودان
أو الصومال) وتدعى مملكة « أفرح » .

ونما سيف بن ذى يزن بمنفاه يتما مطاردا من سيف أرعد وعمونه
الموجودة على طول الأقوام والبلدان الأفريقية ، وفي الوقت نفسه بات
سيف أرعد مرتعدا خائفا من مولده وعيشه المدهش في الخفاء :

ومولود يأتيك يملك أرضهم

ويبقى على جميع البرية حاكما

وهكذا واصل ملك الحبشة أرعد مطارداته وحروبه خلال طفولة
سيف بن ذى يزن، فغزت الحبشة اليمن وشمال الجزيرة العربية ،
وتوغلت في صعيد مصر ، حتى هاجر اليمنيون أنفسهم إلى تلمسان
تحت حكم عبد الودود والمنذر ، إلى أن اشتد ساعد سيف اليزن ، فجمع
كوكبة من أخلص فرسان القبائل المعادية للحبشة وتسلطها وخاض
سلسلة من المخاطر والمغامرات على طول البلدان والقلاع المهجورة شرقا
وغربا في أفريقيا ، وأحب بنت ملك أفرح « شامة » ، التي اصطحبته
بضع سنوات عبر مخاطراته تلك في ربوع أفريقيا واليمن ، إلى أن تزوج بها
عقب إنقاذه لها من بين مخالب ابن ملك الحبشة الذي كان يبغى الزواج
بها ، ولعب سيف بن ذى يزن ، أبرز أدواره كبطل شعبي ، حين تسلل
بأتباعه وفرسانه إلى داخل بلاد الحبشة ذاتها ، فأقدم مليكها سيف أرعد

على حصار عاصمة التباعة في أفريقيا - أحمر - ذاتها . بهدف تخريبها وأسر ملكتها قمرية .

وتمكن « سيف أو هيكل » من تخريب سدود ومنشآت النيل داخل الحبشة ، إلى حد تمكنه من تخريب الحصار ذاته حول أحمر ، وفك أسر أمه ، ثم طاردا - معاً . جيش الأحباش وملكهم سيف أُرعد إلى أن أوقع به وقتله .

وهنا أصبح سيف بن ذى يزن :

- تبع حمير . . المنتظر .

وعمت الأفراح وتوثق الأمن والأمان في ربوع اليمن والجزيرة العربية بأسرها ، بالإضافة إلى بقية البلدان التي يجمعها نهر النيل ، وأهمها بالطبع « مصر العدية » ، حيث توافدت الوفود على أحمر من ربوع مصر ، مطالبة بزيارة الملك سيف - أبو الأمصار - لمصر التي بها استقبل استقبال الأبطال الفاتحين ، بعدما أراح أهل مصر من ملك الحبشة وتهديده لرقابهم وأرضهم نتيجة لتحكمه في مناسيب النهر الأسمر داخل الحبشة وتخومها . ففى مصر ، التي أعطت لسيف بن ذى يزن ، أقصى طاقات حبها واحتضانها له ولأفكاره ومشاريعه العمرانية ، وجد الملك سيف مبتغاه الأخير ، فأقام بها طويلاً ، بعدما أحاطه المصريون بحبهم المتدفق والجارف ، فأطلقوا عليه :

أبو الأمصار .

وحين أنشأ بجبل المقطم القلاع والحصون لجيشه لحمايتها ، خاصة من أخطار الفرس الطامعين ، أطلقوا على الجبل « الجيوشى » وتعارفوا على الملك سيف ذاته بـ :

- أبو الجيوش .

واصطحب الملك سيف بن ذى يزن زوجته ورفيقة صباه ابنة ملك

«أفراح» شامة ، وابنها الذى سميها « دمر » ، إلى مصر فأقاموا بها طويلا وبدأ استعداداه لحماية مصر من الطامعين ، حتى إذا ماتجددت أطماع الفرس فى حكمها ، واصل حروبه ومطارداته لفلولهم داخل خراسان ، بعدما توغل فى أصفهان بجيشه العربى الذى كان قد أحسن تدريبه بنفسه بالجبل الذى يحمل اسمه الى اليوم ، « جبل الجيوشى » .

وكان يحلو له التنكر ومواصلة أسفاره ومخاطره السرية ، لاستطلاع نوايا الفرس ، بحجة بحثه عن كنوز - جدته - بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان .

وعندما كبر ابنه من شامة - دمر - نصبه حاكما لسورية الشمالية ، واتخذ من ميناء بانياس عاصمة له إلا أن غزوات الأقوام الفارسية الطامعة ، تمكنت من أسر دمر ، مما أوقع الأحران الثقيلة بأمه شامة ، إلى حد أفضى بها إلى الجنون .

وهنا لم يجد الملك التبع سيف بن ذى يزن ، مهربا من مطاردة الفرس ومنازلتهم عبر آسيا الصغرى والأناضول وشبه القارة الهندية وهى حروب طويلة ومضنية ، ضد ملك يدعى « الهدهاد » الذى واصل تعقبه إلى « ماوراء نهر بلخ » «وعاد فدخل دلتا مصر عن طريق دمياط مظفرا بالنصر، مخضبا بالدم النازف على جبينه كأرجوان» .

لكن سرعان ما اندلعت من جديد الحرب بينه وبين الملك الفارسى « بهرام » ، إلى أن حقق الملك سيف نصره الأخير ، الذى انتهى بهدنة ، أقدم الملك التبع سيف بن ذى يزن خلالها على الاقتران بابنة بهرام الباهرة الجمال « مهردكار » وعاد بها إلى مصر ، دون إدراك لأبعاد المؤامرة التى دبرها الفرس للتخلص منه بأقل الخسائر ، حيث اضطلعت زوجته «مهردكار» بوضع السم الزعاف فى طعامه خلال رحلة بحرية لهما على

شاطيء النيل ، هربت بعدها عبر أحراش الدلتا ، فلم يعثر لها على إثر .
وفجع المصريون بموت ملكهم المتقذ المحبوب - سيف - فبكوه
أياما في الطرقات والشوارع .

وكفن الملك سيف بن ذى يزن ودفن بمدفنه وكنوزه بالجبل الذى كان
قد أعطاه اسمه . . الجيوشى وانتهت فاجعة موته الغادرة وسيرته العاطرة
، « فركب على مصر أربعة ملوك من أرض خراسان العجم . . ووقعت
الحروب الطاحنة بينهم وبين دمياط ودمنهو والوحشى ، وهرع لنجدتهم
اسبوط ملك إيليا وفلسطين » ، حسب نص مخطوطة السيرة المحفوظة
بمكتبة المتحف البريطانى - المرفقة .

السيرة بين التاريخ والفولكلور :

ولعل أبرز ماتؤرخ له هذه السيرة الملحمية التى يتعاقب فيها الشعر
والنثر ، هو امتداد الصراع بين الساميين والهاميين ، ثم تلك الحروب
القبائلية الطاحنة التى اتخذت من الشام ميدانا - وبالتحديد منطقة
بعلبك والبقاع بلبنان مرورا بفلسطين ومصر إلى حيث أفريقيا الوسطى
والحبشة والسودان ، بالإضافة إلى القرن الأفريقى ، بهدف تعريب هذه
الأقوام .

وهنا تنتهى حقيقة حدود مناطق النفوذ العربى الجنوبى ، وهى
ماتؤريده النقوش والمدونات التى عثر عليها علماء اللغات السامية ، سواء
فى اليمنين ، أو على طول الطريق التجارى الممتد من جنوب الجزيرة
العربية إلى شهاها ، مارا بمكة المكرمة ويثرب ومدائن صالح وتيما وتبوك
ومعان حتى دمشق .

كذلك أثبتت الاكتشافات الحفائرية - الأركيولوجية - فى بلاد الحبشة
وتقومها ، أن هذه البلاد كانت خاضعة يوما ما للنفوذ التجارى أو
الثقافى أو السياسى اليمنى .

فالحروب الطاحنة بين العرب والأحباش أكدت المصادر التاريخية الإسلامية . فالسيرة في حديثها عن تلك الحروب : تستطرد في عرض الحياة وأعمال البطولة ، وهى صادقة في هذا العرض ، إلى حد كبير . فسيف بن ذى يزن ، الذى ولد لأبيه في أفريقيا ، والذى تربى في البرارى في الفلاة ، وأتى منذ صباه بالكثير من أعمال البطولة وبعد النظر ، كشخصية تاريخية ماثلة محققة ، هو التابع اليمنى الذى قاد الجيوش العربية الجنوبية ، وطرد الأحباش وأنهى سطوتهم من بلاده . وقد تحدث «ابن هشام» عنه ، وذكر الكثير من الأشعار والمعلقات التى تنسب إليه أو قيلت عنه . كما تعرض لحروبه ضد الفرس الطامعين ، ودوره وحروبه ومآثره في شبه القارة الهندية ، وانتساب الكثير من الأسر الحاكمة الآسيوية - إليه ، فهو الجد السالف للأسرة الحاكمة في « بوروناي » . وبطل من أبطال ملاحهم .

وأخيرا يبدو أن راوى هذه السيرة ، خير بمصر التى احتفت بسيف بن ذى يزن وخوارقه ويطولاته في صد أطماع الأحباش من جانب ، والفرس من جانب آخر ، حيث يذكر من جغرافيتها ، ولغتها وعاداتها أدق تفاصيل ملامح بلدانها مثل أسوان وإسنا وإخميم وأسيوط ومنفلوط وملوى وأهناسيا وحلوان والجيزة ، وحارة الوطاويط ، وقلعة الجبل والروضة ، وجبل الجيوشى ، الذى تسمى باسمه « أبو الجيوش » الملك سيف ، ومدفنه به إلى اليوم . وذلك أيضا حسب نص مخطوطة المتحف البريطانى .

14

التحريب داخل أفريقيا

كان الوادى الأخضر هائل الشجر والإثمار الذى استقر رأى التبغ ذى اليزن على النزول على رؤوس جباله وروايبه السندسية الحانية ، وضياف أنهاره العذبة العميقة الزرقة ذات الخريز الشجى .

وكان الوادى بالإضافة إلى جماله الباهر الأليف يفيض ويموج بمختلف أنواع الحيوانات والطيور وقطعان الماشية من جمال وأبقار وأغنام وأيائل برية .

ورغم خلوه من السكان ، سوى من بضعة رعاة فرادى ، فإنهم فروا الأدبار هربا عندما وقعت عيونهم على جيش ذى اليزن الجرار المدجج بالسلاح .

وكان التبغ ذو اليزن لا يزال يعانى طيلة الطريق من بعلبك إلى أفريقيا ، مما اضطره ودفعه دفعا إلى تحديات ملك بعلبك ومنازلته إلى أن أراده قتيلا بحسامه على مرأى من أمرائه وأقاربه وذويه . فما فكر على الإطلاق أن ينازله حتى الموت ، إلا أنه ما إن رأى رجاله يهرون صرعى نتيجة أكلهم السم فى تلك الليلة الليلية ، حتى أدرك الخيانة من قبل ملك بعلبك . فكانت المبادرة بالتحدى والمبارزة معه أسلم الحلول بدلا من رفع السلاح وإحداث مجزرة رهيبة يسيل لها الدم مدرارا على السهول والروابي ويذهب ضحيتها الأبرياء قبل الأعداء .

ولقد حاول الوزير « يثرب » كلما حاول الملك مفاثحته فى أمر ماجرى ، تهوين الأمر عليه ، بأن « البادىء بالشر هو عادة الظالم » .

بل إن التبع ذاته كان ينوى الرحيل بجيشه عن بعلبك بعد أيام معدودة ، دون أدنى أطماع أو نية سيئة تجاه ملكها الكريم الشماثل ، الذى رحب بهم فى البداية خير ترحيب . إلا أنه سرعان ما استهوته هذه البلاد الحارة المتفجرة بالعطاء الذى تفصح عنه طبيعتها السخية .

وتملكه الحماس أكثر حين تبين له مدى كثرة الماء ومجاريه على طول ذلك الوادى ، بما يسهل له ممارسة هوايته وتحقيق أهدافه خاصة بحثه عن « كتاب النيل » الذى يؤرقه البحث عنه وحل طلاسمه وألغازه .

فانشغل الملك ذو اليزن فى أبحاثه وأسفاره وتدوين مايعن له من ملاحظات حول الماء ومصادره ، وكيفية التحكم فيه ، خاصة النهر العظيم . . نهر النيل .

حتى إذا ما انتهى ركب ذى اليزن من حط رحاله فى ربوع تلك البلاد والغابات ، أقيمت المضارب والخيام وبيوت الشعر وبدأ بتشيد قصر التبع ووزيره يثرب على سفوح أعلى الجبال المحيطة بالوادى الفسيح وغاباته الكثيفة .

وانخرط الملك من فوره مستغرقا فى أبحاثه المضنية عن منابع النيل ، حيث سافر المسافات الطويلة بصحبة حراسه ومساعديه ، وسأل كتبه تدوين ملاحظاته وما توصل إليه ، بل بعث بإحضار بعض مراجعه ومخطوطاته ومدوناته السابقة من مأرب وسبأ وصنعاء .

وكان كلما سافر ورحل وبحث ، كلما زاد تفكيره فيما يطمح إليه ، واحتياجه للسنوات الطوال لاستكمالها :

- فهو الماء . . الحياة قبل وبعد أى شىء آخر .

إلى أن استقر رأيه الذى فاتح فيه وزيره المقرب « يثرب » ، وهو ضرورة بناء مدينة ، تليق بالملك التبع تقع إلى الجنوب أكثر من المكان الذى نزلوا فيه .

وعلى الفور أمر بإحضار الصناع والمهندسين . فحفروا أساسها وبنو جدرانها وأسوارها وحصونها المنيعة .

وانشغل الملك ذو اليزن بنفسه ، فى كيفية تحويل المياه إليها فأمر بشق أنهارها العذبة ، بما يحقق أبحاثه وماهو منشغل به :
-كتاب النيل .

واستغرق العمل والبناء فى إقامة المدينة الجديدة فى أفريقيا الوسطى سنوات . حتى إذا ما اكتملت ، أسكن عشائره ومقربيه وسماها بنفسه « أحمر » .

وجاءت مدينة « أحمر » منافسة لسابقتها « يثرب » فى اجتذاب التجار والصناع وأرباب الحرف والزائرين من كل صوب : من مصر والسودان وقرطاج والمغرب الكبير وبلاد الحبشة وبلاد « بنط » أو الصومال ، إلى أن وصلت أخبار الملك التبع ذى اليزن ومدينته التى على مشارف أرض الحبشة ، إلى ملكها الجبار بالغ السطوة والجاه والذى تردد له القلوب عند ذكر اسمه :
- الملك سيف أرعد .

وهوالذى يحكم بلاد الحبشة وماحولها من بلدان متضمنة السودان ، حيث تقف حدوده عند مصر العليا :

- ياللغفلة التى لن تغتفر يوما لأحد كيف جاء عرب اليمن وتبعهم الكبير ونزلوا بلادنا واستوطنوها ، وشيدوا مدينتهم ونحن لا نزال غافلين ؟
استشاط ملك الحبشة « سيف أرعد » غضبا وصرخ فى وجوه أعضاء مجلس حربه ، من أمراء وشيوخ قبائل وحكام وقواد ومستشارين :
-كيف حدث هذا ؟!

توقف الملك فجأة ، حين قدم وفد الى مجلس حربه الذى كان قد دعا إليه ، وكانوا يتوافدون بمراكبهم البحرية ، صاعدين من فورهم إلى حيث قصر الملك سيف أرعد . وكانت مدينة ذلك الملك يقع نصفها فى البحر ونصفها الآخر فى البر . وكانت حصينة مترامية الأطراف ، فيها القلاع والموانئ والمنشآت البحرية ومصانع صنع مختلف الأسلحة التى اشتهرت بها فى كل بلدان أفريقيا ، والتى لم تكن لتهدأ لها حروب

ومنازعات ، مما جعل تجارة الأسلحة رائجة وضاعف من ثراء مدينة الملك « سيف أرعد » التي اشتهرت أيضا بزراعة الفتن بين أقوام القارة السوداء المترامية الأطراف .

وكان ملك الأحباش الذى يرقل فى الذهب الإبريز ومعه كبار تجار المدينة لا هم لهم سوى الشراء ، بغض النظر عن كيفية الحصول عليه . أما أن تصل الغفلة بالجميع إلى حد أن ينزل بلادهم وتخومهم بدو عرب المشرق وتبعهم واسع الشهرة والعلم والشكيمة ذو اليزن ، فتلك كارثة الكوراث ولاشك ، والأدهى أن يجيء نزولهم على هذا النحو ، بلا حرب أو معارك أو قتال أو مقاومة ، إلى أن يهنا لهم البال فيشيدوا مدنهم وحصونهم ، وهامى « أحمر » عاصمة التبع ، أصبحت تجتذب ، عاما بعد عام ، كل الأنظار المتطلعة لمصنوعاتها ومنتجاتها ومبانيها وأنهارها وبساتينها .

- إلى هذا الحد تصل الغفلة بالجميع ؟

أهكذا نصل متأخرين جدا على الدوام ، وبعد ما نفذ السهم ليفت من مقتلنا جميعا الصغير قبل الكبير ، دون استثناء ؟

وحاول بعض الحاضرين تهدئة ناثرة « الملك سيف أرعد » ، بحجة أن التبع اليمنى لم يرفع سلاحا ضد أحد .

عاود الملك صراخه :

تلك هى الكارثة كل الكارثة . .

وتدافعت بعض الأصوات مشيرة إلى أن الملك ذا اليزن منشغل بالمياه وكتاب النيل ، دون غزو أو قتال ، إلا أن الملك أرعد قاطع الجميع قائلا :

- الماء . . النيل . . حياتنا !

هب واقفا موضحا وهو يضع قبضته حول عنقه ، كمن يعاني اختناقا حقيقيا .

-رقابتنا . . مقتلنا . . الماء . . النيل .

وكان لدى ذلك الملك - سيف أرعد - حكيان أو وزيران أحدهم يدعى « سقرديس » أما الوزير الثانى فيدعى « بحر قفقال الريف » أو « أبو ريفة » .

كان أولهما وهو « سقرديس » يكره العرب - أولاد سام - الذين لايجبون أحدا من ذرية حام أو الحاميين الأفريقيين ، لذا اندفع سقرديس من فوره متحاملا ضد التبغ ذى اليزن وجيشه ومآربه فى أفريقيا التى يسترها ببحته عن « كتاب النيل » ومنابعه .
- إنه مجرد قناع خادع لتغطية أطماعه .

ثم عاد يؤكد :

- ومن الأفضل لنا المبادرة بحربه وقتله وإفناء جيشه العربى الغازى ، الذى استباح بلادنا فى غفلة منا جميعا - على حد قول الملك أرعد - ومن الأفضل لنا القضاء على تلك المدينة - أمرا - التى شيدها التبغ اليمنى ، وجلب إليها الماء من كل مكان . فالخطر، كل الخطر ، من تلك المدينة التى أصبحت مضرب الأمثال فى الأمن والأمان ، حتى اجتذبت التجار والزائرين من مشرق الأرض ومغربها .

هنا قاطعة الملك أرعد مشيرا فى رثاء عبر شرفات قصره :

- ألا ترون ما انتهت إليه مدننا وتجارنا من جراء إنشاء تلك المدينة - العربية - التى امتلأت ساحاتها فى غمضة عين بورش الحدادة وصهر الحديد وصنع السلاح وتربية الخيول العربية حتى أصبحت اليوم ترسانة وحربة موجهة إلى صدورنا ؟ صرخ الملك أرعد ، وقد احمرت عيناه وتبدلت سحته عن آخرها ، فجرى إليه خدمه بالماء :

- ألا ترون وتشهدون ؟

وكان الوزير - عدو العرب - سقرديس ، على دراية كاملة بتاريخ التباعة وحروبهم فى الشرق البعيد . وتجبرهم وفتوحاتهم ، فأعاد إلى الأذهان أساليب التباعة فى الغزو القائم على الخداع ، مثلما حدث مع التبغ حسان اليانى - عم ذى اليزن - حين اجتاحت جيوشه المسترة بالأشجار مدينة الياهو وأسرت أميرتها الزرقاء التى حذرت قومها الغافلين طويلا دون جدوى . . وهو بذاته ما يحدث الآن .

اما الوزير الحكيم الثانى للملك سيف أرعد ، وهو « أبو ريفة » فقد رفض ذلك المنطق وأثر التروى وتدبر الأمر قبل الاندفاع بالقتال والحرب مع سليل « تباعة اليمن » وما عرف عنهم من بأس .

كان « أبو ريفة » وأصله من بلاد الحجاز ، ما يزال لسانه عربيا ، وما كان يعبد « زحل » كالأحباش ، وكان محبا للعرب متقربا منهم ، لذا أثر منذ البداية رفع صوته والإدلاء - الهادىء - برأيه للملك أرعد ، محبذا عدم المبادرة بالهجوم والحرب ضد العرب- النازلين :-

- فلعل النازل ، يرحل يوما . . بلا حرب وويلات وأنهار دماء
ولما كان الوزير الحكيم « أبو ريفة » مقربا من الملك أرعد ، فقد أسلم له أذنيه منصتا لمشورته ، في هذه الظروف العصبية التى حلت بالأحباش وبلادهم وهيمنتهم على مشارف أفريقيا .

إلا ان الوزير الأول ، لم يطق على نزول العرب صبرا ، واندفع من فوره يزين للملك سرعة الحركة والمبادرة ضد التبغ ذى اليزن ، مادامت الحرب هى فى ذاتها خدعة ، فلم لا تلجأ الى المكيدة والخداع ؟ .

- كيف ؟

- نرسل له بالجارية « قمر » حليلة .

هنا استكان الملك أرعد لرأى وزيره « سقرديس » منصتا مفكرا :

ولعلك أيها الملك الأقدر على معرفة « قمرية » سكة الأذية « أكثر من غيرك .

فهى جارية نادرة ، بديعة الجمال باهرة الحضور والغناء والكلام كما أنها داهية الدواهى كممثل أفعى ، بل هى أفعى أودت بحياة الكثيرين بمنقوع سمها الزعاف .

وحين انتشى ملك الأحباش سيف أرعد ، من مكيدة وزيره « سقرديس » ، هب من عرشه مشيرا إلى خدمه بإخلاء طريقه إلى حيث يقيم حريمه للاجتماع بتلك الجارية - المسمومة - قمرية .

وحاول الوزير الثانى أبو ريفة اللحاق بالملك سيف أرعد ، للحيلولة دون تدخل تلك الجارية - الداهية - شديدة الطموح والتلون والناطقة بكل لسان ولهجة . . فى ذلك الأمر الخطر . إلا ان سيف أرعد لم يعطه آذانا مصغية ، هاتفا وهو يقارب ديوانها :
- قمرية . . أيتها الأذية .

15

مواجهة ملك القمريه لقتل ذي اليزن

ما أن رفع الملك أَرعد طرف الستار المفضى إلى مخدع الجارية الباهرة الجمال والمتوقدة الذكاء « قمرية » ، حتى أدركت من فورها ما يشغل فكره ، كما عرفت مرماه من زيارته هذه لها .

هبت قمرية مبتسمة ومرحبة قائلة :

- التبع اليمنى الغازى .. ذو اليزن .. أليس كذلك ؟

وقف الملك أَرعد وواجهها مندهشا وسألها :

- من أخبركِ ؟

-عينك .

- أجل يا قمرية إنه ذو اليزن .

قاربها مفاتحا إياها فى مايجول بخاطره مسلطا عينيه فى عينيهما السوداوين الواسعتين المتوقدتى الذكاء واللتين تنطقان بالتحدى وتتجلى فيهما الفروسية .

ثم رفع ذراعه المغطى بأكمله بالأساور الذهبية ، فى ذات اللحظة التى أشارت إليه قمرية بالجلوس :

-استرح أيها الملك .. لاتشغل بالك هكذا .. فما من ليل دامس إلا ويعقبه نهار .

أعادت هى هذه المرة مواجهته والغوص فى عينيه الثقلتين اللتين عاداهما النوم منذ زمن :

- لا تشغل بالك كثيرا . . فمن يدري مايجئته الغد . . وحسنا فعلت بزيارتى بعد طول غياب .

- كيف ؟

أشارت إلى قارورة سمها الزعاف « ابن ساعته » الخضراء اللون ، التى تجبئها بين جدائل شعرها الطويل الضارب الاحمرار:

- وكأنك كنت معنا يا قمرية !

- أنا دائما معك !

غمغم الملك أرعد شاردا فى استرخاء ، محاولا تبرير ماهو مقدم عليه ولو أدى الأمر إلى التضحية بأجمل وأذكى نسائه المقربات ، موضع سره وشكواه وأدق أسرارهِ وخباياه :

ماذا أفعل ، إن ذلك التبع لا يصطحب معه مجرد جيش ، بل أمة بأكملها وأنا لا قبل لى بمواجهته مفردا وحدى ، بعدما استسلم الجميع على النحو الذى تعرفينه .

قاربها أكثر فى تودد :

- أسمعيني . . قمرية ؟!

هب عن كرسية متوقدا بالحماس الذى ألهبت به قمرية رأسه وأعصابه بمجرد لقائه بها ، وكأنها هى جيش بأكمله قد هب لمساندته وشد أزره فى وحدته المريعة هذه :

- أنا لم أعد أحتمل وحدى ، ذلك الغباء والتكاسل والتخلف الذى تعيشه هذه البلدان والأقوام والقبائل على طول هذه القارة المسترخية السوداء . أبدا لن أحتمل وحدى .

استدار مقاربا قمرية كمثّل طفل يبغى هدهدة أمه الحنون الدافئة :

- أن أخرج بجيشى للقاء ذلك التبع اليمنى وجيشه الذى يسد عين الشمس ذاتها . . وحدى ؟

واجهها في تلصص :

- ولعلك الأقدر على معرفة الأخطار التي جلبها ذو اليزن بنزوله وقبائله بلادنا .

كان الملك أرعد على دراية كاملة بمدى ما تتمتع به « قمرية » من قدرات - سياسية - لا تقف حدودها عند الحبشة والسودان وما حولهما من أقوام وكيانات ، بل إن بصيرة الجارية الأعجمية المولد واهتماماتها ، أكثر تطلعا وطموحا على الدوام . ولعلها ومنذ أن جيء بها من الأناضول إلى أثيوبيا ، تحلم ولا تزال ، باليوم الذي ترى فيه نفسها في ذروة السلطة والتسلط ، تحيط بها هالات الشهرة والمجد أينما حلت .

وكثيرا ما شاركها سيف أرعد حلمها الكبير هذا في التطلع ، دون كلل ، إلى ما وراء البحار .

قاربها سيف أرعد :

- ولا منقذ سواك « ياقمرتي » من هذه الكارثة . وأفضى إليها الملك الحبشى بتفاصيل خطته في التسلل - بقارورتها - إلى التبع ومعها غالى الهدايا وثمانيتها من كل نوع وصنف : جمال وخيول وقطعان ضأن ، ومال وذهب وفاخر الثياب وأبدع منتجات الحبشة . وختم كلامه ها قائلا :

- ولعلك ستكفلين بالباقي ، في الوقت والمكان الذي تحددينه أنت ياقمرية ، ولا أحد سواك .

وقضى الملك أرعد ليلته تلك ، محذرا قمرية من كارثة انكشاف الأمر - المؤامرة - الذي سينتهى حتما بضياح ملكه وملك آبائه وأجداده ، بل وضياح أفريقيا بأكملها .

حذرها الملك مرارا ، من ضراوة انتقام التبع ذى اليزن لو انكشف أمرها ، كما حدث مع ملك بعلبك الذى مات قتيلا ، حين نازله ذو اليزن وقطع رأسه ، ودفنه بمهابة تليق بملك وصديق ، وظل ييكيه على مرأى من ذويه ومقربيه شهورا .

كما حذرها الملك مطولا - بخاصة - من مدى سحر ومنطق واتساع علم ذلك الملك ذى اليزن ، الذى تلى له الاحجار قبل البشر . فلقد كان الملك على معرفة

بمدى طموح تلك السيدة القوية ذات الشكيمة التى لا تقف مطامعها عند حد .
بل إن طموحها كثيرا ماتجاوز طموحه ، وهو الملك الحاكم للحبشة والسودان
وأفريقيا الوسطى .

-حذار من سحر الكلمات .

فهى - قمرية - التى تتقن عن دراية العربية ولهجاتها المختلفة بدءا من الجعزية -
لهجة حضر موت - التى سبق لليمنيين نشرها بالحبشة ، مروراً بالآرامية ، والقحطانية
والحميرية والعينية والسبئية ، وهى لغات أولئك الأعراب الغزاة ، بالإضافة إلى معرفتها
ببقية اللهجات الأفريقية ، من نيجرية وأمهرية وهررية .

وفى صبيحة اليوم التالى لاجتماع الملك أرعد بقمرية ، كان قد أعد كل شىء ببالغ
السرية والكتمان ، ما بين قوافل الهدايا والعبيد والرسائل التى ستحملها الجارية -
السفيرة « قمرية » إلى حيث قصر الملك ذى اليزن بمدينته « أحمر » ، من قبل ملك
الحبشة « سيف أرعد » .

إلا أن قمرية لم يكن يغيب عليها عقد لقاء أكثر سرية بينها وبين الوزير « أبو ريفة »
لا ستجلاء أمر مهمتها هذه المحفوفة بالمخاطر .

وهنا لم يقصر الوزير - الحجازى - الحكيم ، كلامه معها عند التحذير والنصائح ،
بل دعاها إلى الثقة عن يقين حقيقى بالملك ذى اليزن ، لدرجة دفعت بالجارية - المغتالة
أو للمحتالة فى ذات الوقت - إلى التروى مفكرة منبهة من عمق تفكير ذلك الملك
وسياحته ، مما دفع بها دفعا إلى التعجيل بمهمتها :

- فقط لكى أراه عن قرب ، فلقد أصبحت مبهورة بما أسمعته عنه .

حتى اذا ما حان موعد الرحيل ، ظلت طيلة الطريق الوعر الذى استغرق أياما ،
غارقة بكاملها فى تصور شخصية وحضور ذلك الملك الباهر ، الذى - وكما يشاع عنه
لم يقهر مظلوما ، أو يقف فى صف الظلم والتسلط ، ولم يكن يوما من الضارين أو
الباطشين ، رغم ما عرف عن أسلافه التباعنة من ظلم وتجبّر .

حتى إذا ما حطت قافلته مشرفة على عاصمة التبع ، العالية الأسوار وذات الأبراج والحصون والقصور ، ورأت أنهارها الجارية وبساتينها وقبابها ، تمتت الجارية ، وبعدما استراحت نفسها ، أن تقضى بقية حياتها هنا في أحمر .

- يالروعة . . ياللبهاء !

بدت المدينة العالية الأبراج والحصون ، والتي صيغت قبابها من النحاس الأحمر القاني الاحمرار ، في نظر قمرية ، كمثل مدن الأساطير القديمة الغابرة التي سمعتها تروى على الشفاه .

وظهر لعينها الذكيتين كل شيء متناسقا : ألوان الواجهات الناصعة البياض والرسوم الجدارية التي تفيض تعبيرا عن مراحل حياة الملك التبع ذى اليزن والنقوش العربية المدونة على أصلب الأحجار والمعادن والجلود التي تزين الساحات والميادين والبساتين ودور العلم والأعلام ، والأسواق الخاصة بكل ماتشتهيه الأنفس ، من فاخر الدياج مثل أرجوان صور ونفائس فارس والهند ، وتلك الحلى الذهبية والفضية التي تزين جيد النساء ، مع أزيائهن الموشاة النفيسة .

كانت قمرية قد وصل بها الانبهار من مشاهد الحياة اليومية « لأحمر » ، إلى حد دفع بها إلى استعادة حلمها القديم من الثراء والتملك الذي لايعرف له حد .

- أحمر . . يا حلمى القديم !

هنا أطلت من خباء هودجها مشيرة إلى رئيس حرسها ، مطالبة بالإبطاء حتى يتاح لها أن ترى كل شيء فى المدينة وأن تملأ عينها من جمالها ، مستنشقة تلك العطور الذكية التي استرخت لها ملاحها ، إلى حد أنساها كل توتر صاحب مهمتها العسيرة التي قدمت من أجلها وتحملت بسببها كل تلك المشاق .

تحسست قارورة مومها التي خبأتها بين طيات شعرها العسجدى ، متنهدة مشيخة ببصرها إلى حيث قصر التبع ذى اليزن :

- وصلنا .

إلى أن حانت لحظة لقاء الملك التبع ذى اليزن بجارية ملك الحبشة « سيف أرعد » عقب سلسلة طويلة من لقاءات رجاله بها لمعرفة غرضها من تلك الزيارة ، وأخصصهم وزيره الحكيم « يثرب » ، الذى أشار عليه بمقابلتها بعدما أعجب بجمالها الباهر ورجاحة عقلها وفصاحتها :

- أشهد أننى لم ألتق قبلها بأروع وأفصح من تلك السيدة المتعالية المتوقدة الذكاء .

وكان أن أشار الملك ذو اليزن بإدخالها ، حتى إذا ما تصافحا وقدمت إليه - قمرية رسائل ملك الحبشة ، وفضها مسرعا ، قاربها ماذا إليها يده فى ثقة ، مما دفع بها إلى التراجع ، وهو يواصل الخطو باتجاهها مبتسما قليلا ، ثم اتجه بيده مشيرا إلى جدائل شعرها العسجدي المنسدل ، مما دفع بقمرية إلى أن ترفع يدها إلى شعرها ، مخرجة من فورها قارورة السم الضاربة الاخضرار من بين جدائل شعرها حيث تحببها .

- هاهى !

ناولتها له مطرقة مستسلمة فى صمت حط عليها من بالغ انبهارها بالملك التبع ذى اليزن .

- مولاي .

أجلسها الملك على مقربة من فرشه .

- استريحى .

وامتد الحديث بينهما صافحها متوقدا ، دون أى شائبة أو خداع وكأنهما على معرفة وثيقة ببعضهما البعض منذ زمن طويل .

تحادثا فيما يحدث ويجرى على طول القارة السوداء بكياناتها وأقوامها المختلفة فى مصر والمغرب الكبير والقرن الأفريقى ونيجيريا وبلاد الحبشة .

وأفاضت معه قمرية فى حديث عميق عن الماء والتربة والأنهار وأخصصها النيل كما استحوذت على إعجاب التبع حين تعرج الحديث بينهما عن تباعنة اليمن

واهتماماتهم بالسدود وبحارى الماء منذ « عبد شمس بن سبأ » وسده الشهير بسد مأرب .
كما تطابق رأيهما على كراهية الحروب والعدوان التى لا تحقق سوى قتل الأبرياء من
الناس الأمنين :

- فيكفى الناس ما هم فيه من آلام وتطاحن يومى .
- أجل . . أجل . . فالحياة ذاتها تقتلنا يوما إثر يوم .
إلى أن غيرت قمرية مجرى الحديث وأخذت تتطلع فى عيني الملك فى ثبات قائلة :
- ما قبلت هذه المهمة - القدرة - إلا لكى أراك وأتحقق بنفسى بما سمعته عنك وعن
سعة رحمتك .

ابتسم التبع ذو اليزن :

- ماذا سمعت ؟

قالت :

- سمعتُ ما يبهز أعداءك قبل محبيك .

زفر الملك مستريحا :

- أحقا . . أتصدقين ؟

اندفعت قمرية من فورها جاثية منكبة عند ركبتيه ، وتطلع فى انبهار من تواضعه
الجم ، فمد ذو اليزن يده إليها :

- اجلسى . . فى بيتك . . فى هذا الكفاية .

وعم صمت ثقيل بينهما ، ارتفعت فيه أصوات عزف موسيقى خافت وغناء من قاعة
الطعام فدعاها التبع إلى العشاء مكررا :

- أنت فى بيتك .

كان الملك التبع ذو اليزن قد زاد من معرفته بها بعدما راقى فى عينيه ، محزنة من
فورها مكانة فى قلبه لم يسبق لامرأة أن بلغتها من قبل .

وكان الملك ذو اليزن قد أصبح في الفترات الأخيرة نهبا للوحشة والانعزال ، بعدما أحس مرضا حاول جاهدا كتماناه عن الجميع ، خاصة وهو لم يخلف له وريثا لعرش التباعة .

لذا أثر كتمان آلامه وأحزانه ، تحسبا لمدى الأخطار التي يمكن أن تنفجر على طول مناطق حكمه ونفوذه المترامي ، إذا ما أشيع وتواتر خبر مرضه المفاجيء وما ألم به .
- كارثة .

ومن هنا جاء وصول تلك السيدة الحكيمة الباهرة الجمال الذي يزينه عقل راجح وبعد بصيرة ، متوافقا كل التوافق لما هو فيه :
- قمرية . . جئتنى في وقتك .

كان قد عقد العزم على الاقتران بها من دون تردد وقبل فوت الأوان :
- من يدري ما يجتبه الدهر .

حتى إذا ما سنحت الفرصة للملك بعدما انقضى وقت العشاء ، أفضى أثناءها ذو اليزن لوزيره المقرب « يثرب » بإحساسه نحو قمرية ورغبته المتأججة الطاغية للاقتران بها ، رحب الوزير من فوره مباركا في أقصى حماسه وسعادة .

وهكذا أقدم الملك التبع ذو اليزن على الاقتران بقمرية بسرعة وعجل ليخلف منها وريثا لعرش التباعة :

- هيكل . . وندعوه : « سيف »

وهو الملك الفاتح سيف بن ذى يزن ، آخر الملوك التباعة ، الذي سمي بأبى الأمصار ، وحروبه وفتوحاته في أفريقيا والهند وبلاد الفرس .
وهو ما استطالعنا سيرته . بالجزء الثاني من هذا الكتاب .

16

زواج ذى اليزن من قمرية

منذ اللحظة الأولى التى التقى فيها الملك التبع ذو اليزن بتلك الفتاة الباهرة الجمال المتوقدة الذكاء « قمرية » التى كانت قد جاءت - متسللة - كمغتالة تبغى أولا وقبل كل شىء إزهاق حياته ، عن طريق ترياقها المعجل ، تخلى عن كل شىء ولم يعد يعرف للنوم طعما .

بل إن التبع احتفظ بقارورة السم الزعاف كما هى إلى جانب فراشه . وكان يحلوه فى بعض الليالى تناول تلك القارورة المتناهية الدقة والصغر وتأملها مجددا بعدما استخرجتها - قمرية - خلصة - من بين جدائل شعرها العسجدى الضارب إلى الاحمرار ، ثم مدت يدها له فتناولتها إياه ، بطريقة تلقائية منذ لحظة لقاءهما داخل قاعة عرشه ومن دون أن تنطق ببنت شفة .

- استريحى !

إلى درجة دفعت بالملك ذى اليزن إلى عدم مفاتحتها فى الأمر رغم تعدد لقاءاتهما ، وتعرف أبعاد تلك المؤامرة التى تهدف إلى اغتياله فى فراشه . كل ذلك من تدبير ملك الحبشة « سيف أرعد » الذى بدأ علاقته معه على هذا النحو الغادر الأليم بل إن ذا اليزن تعتمد من جانبته تغيير الموضوع بكامله يسؤاله لقمرية عن الملك سيف أرعد قائلا :
- كنت أنوى من جانبى الرد على هداياه بأفضل منها . [أطرق مبتعدا] لكن ما باليد حيلة .

ألجمت « قمرية » بدورها ، دون أن يسعفها ذكاؤها الذى اشتهر عنها ، أمام نبيل
شمال ذلك الملك العربى الراجح العقل إلا أنها تمللت مطرقة مغممة :
- ما أنا سوى رسول أيها الملك .

- أعرف .

قالت :

- ولعل هذا لم يكن قرارى منذ البداية .

هبت من فورها مقاومة انفعالاتها متجهة فى معاناة إلى حيث الشرفات الفسيحة
المشرقة على السهل الذى شيد على أعلى قممه المطلة على مدينة « أحمر » وقصر الملك
التبع الحصين .

- أبدا . . لم يكن هذا قرارى .

- تقصدين اغتيالاً ؟

- لم أقصد شيئاً سوى أن أراك يوماً .

قاربها التبع منبهاً من جماها الطاغى :

لحظتها تدفقت الدموع السخية من عيني قمرية :

- أنا لم أبك أبداً من قبل .

- أعرف .

اندفعت تتأمله فى أقصى حالات انبهارها ، كما لو كانت على معرفة سابقة كاملة
ودقيقة بمعالم وقسمات وجهه :

- أبدا . . لم أعرف للنحيب طعماً وإحساساً .

- أجل . . أعرف .

سألته فى عفوية طفولية طاغية وهى تقاربه أكثر متألمة إياه من تحت أهدائها المبللة :

- حما اتعرف . . كيف ؟

- مثلك لايبكى أبدا يا قمرية .

ضاحكها :

- الأذية .

هنا لم تتمالك قمرية السيطرة على مشاعرها فاندفعت تضحك من أعماقها ، كما لم تضحك أبدا في حياتها ، إلى درجة أسقطت عنها كل أسلحتها ، لتعاود براءتها الأولى التي عاشتها يوما في طفولتها « الأعجمية » . وقبل أن تأخذ طريقها -كجارية مملوكية - ذائعة الصيت تتقاذفها القصور والمؤامرات ودسائس الحكم والسياسة ، وحياة الترف والثراء وشهوات التسلط على أعناق ومصائر أعتى الملوك والأمراء ، إلى أن انتهى بها المطاف في أعلى الذرى لدى ملك الأحباش « سيف أرعد » الذى بعث بها إلى ذى اليزن .

وهكذا لم تصدقها عيناها ، وهى تقف يوما في مواجهة ملك هذه البقعة الشاسعة من الأرض ذى اليزن بوجهه السمع الأسر العميق المشاعر :

- لعلنى مازلت أحلم سباحة في أغوار هذه اللحظة الدهر . . يا مليكى التبع .

أشار ذو اليزن بذراعه عبر شرفات قصره :

- نحن مازلنا في وضوح النهار . . أيتها الأميرة قمرية .

ومرة أخرى انهمرت عينا قمرية الباهرتا الجمال دموعا مدراة ، متسائلة مذهشة :

- أميرة ؟

هنا علا زنين جرس الاستئذان بالدخول ، وانفتح باب قاعة عرش التباينة على مصراعيه ، واندفع الوزير الأول « يثرب » داخلا في مهابته ، إلا أنه توقف وقد أدهشه مشهدها المفصع دون كثير عناء عن الكثير من الأمور الجلية :

- ماذا يحدث ؟

غمغم يثرب متسائلا لنفسه ، وقد جهد في مكانه حيث يقف ، إلى أن أشار الملك التبع له بالدخول :

- صديقى الوفى . . يثرب .

تقدم الوزير يثرب مسرا للملك بموعد الحفل :

- وصلت مواكب الوفود .

تطلع الملك إلى السماء وكأنه يقرأ الوقت :

- وصلوا . أشار الملك لمساعديه منسجبا مربتا على يدى قمرية ، وأحاط على الفور أربعة من مساعديه فألبسوه ناجه وعباءته وطيلسانه ، وحين انتهوا من مهمتهم ، اتجه ذو اليزن الى حيث تقف « قمرية » ماذا لها ذراعه فى استئذان نبيل :

-لم لا تحضرين هذا الحفل معنا الليلة يا قمرية ؟

ارتعدت قمرية من الرأس حتى القدم من هول مفاجأة الملك التبع لها على هذا النحو ، وحاولت بسرعة السيطرة على حواسها وهى تمسك بيد الملك التى مدت لها .

أما الوزير يثرب فقد غالب اندهاشه معلقا قائلا :

- إنه حفل الأسلاف التباعنة الذى يحل مواعده الموافق لهذا الشهر القمري من كل عام ، ويحضره الملوك والأمراء والسفراء من سبأ وحضر موت ويثرب ومصر وبلاد النبط وفارس وبلاد بنط ودمشق والمغرب الكبير .

ولم يكمل الوزير يثرب حديثه عن الحفل ، إذ طغت موسيقى تتخللها الهتافات المدوية بحياة الملك التبع ، فى ذات اللحظة التى انفتحت فيها قاعات القصر ، التى بدت وكما لوكانت قاعات دائرية مسحورة تدور فى بطء وديع مهدهد مع اتجاه حركة الشمس فى الأفق البعيد التى بدت حمراء قانية .

وبدت القاعات الفسيحة المتناهية الروعة غاصة بالوفود المشربة بأعناقها باتجاه الملك

ذى اليزن ، وقمرية إلى جانبه متأبطة ذراعه غير مصدقة ما يحدث ولكنها أدركت في النهاية مغزى اصطحاب الملك التبع لها جهازا على هذا النحو ، إلى درجة دفعت بها إلى القول في جدية بالغة :

- إذا تخلّيت عني بعد اليوم . . سأتحجّر سمومي !

- لن يحدث .

وحين بدأ الملك النزول عن أولى درجات عرشه . انحنّت هامات الوفود رجالا ونساء وصدحت الموسيقى ، ودارت أطباق الطعام وكؤوس الشراب وتقدم الملك ذو اليزن محييا مرحبا بالجميع ممازحا إياهم في حنو بالغ معلنا تقديمه « لقمرية » في بساطة وهو يضاحكها على مرأى من الجميع قبل أن يطلب يدها بعفوية بالغة :

- أتقبلينى زوجا ؟

فما كان من قمرية إلا أن تراجعت منزوية خجلا من روعة وصفاء ذلك الملك البهى الطلعة الذى لم يدرك أبعاد الصدمات المتتالية التى أحدثتها هذه الليلة العاتية المتلاحقة الأحداث « لقمرية » التى تمت بخجل بالغ قائلة :

- يبدو أنك أنت أيها الملك الذى ستعجل باغتياى الليلة . . قبل الأوان .

أجابها ذو اليزن مازحا :

- واحدة بواحدة .

إلى أن واجهها بغتة في جدية :

- أتقبلينى ؟

- أقبلك !

ثم أطرقت خجلا .

قال موجهها حديثه هذه المرة لكبار مدعويه من مختلف بقاع الأرض ، بأزيائهم الغريبة الشديدة الاختلاف والتنوع المتضاربة الألوان والمجوهرات :

- أتمنى أن يتحقق أملى يوما . . لأخلف من قمرية وريثاً لعرش التباعة . . مجرد أمنية .

تنهد الملك جانبا مخفيا ما عترى وجهه من تعبير يفيض بالأسى ثم أردف قائلا :
- قبل فوات الأوان .

صفق المدعوون ، وعلت الموسيقى والغناء وتبارى الشعراء في تمجيد الملك التبع ،
بينما اندفعت قمرية تبذل أقصى طاقاتها للسيطرة على مشاعرها إلى أن أخرجها الملك
من أحلامها :

- لعلنى أخلف منك يوماً وريثى . « هيكل » .

هنا سرى الاسم بين الجموع متلاحقا من مجموعة إلى أخرى ومن فم إلى آخر إلى أن
عم الصالات الواسعة الغاصة بالشموع والمشاعل وموائد الطعام والشراب والشواء ،
ومختلف الفرق الموسيقية والأكداس المكدسة من ثمين الهدايا النادرة والمجوهرات :

- هيكل . . هيكل .

قال الملك ذو اليزن موضحاً :

- هو « هيكل » . . وسأدعوه « سيف » .

وتدافعت الوفود أكثر من كل حذب وصوب وهى تتطلع مرة إلى وجه الملك
التبع ، ومرة إلى قمرية وقد اعترأها الدهول الذى أفصحت عنه الملامح اللاغطة المحبة
لذلك الملك الذى لم يعهدوه أبدا يخطو بمعزل عن الخير : - هيكل . . سيف . أحقا
مانسمع ونرى . . هيكل . . سيف !

تساءل الجميع فى همس هنا وهناك :

- أحقا ما يحدث ؟!

إلا أن قمرية اعترأها حزن غريب عميق الأغوار لم تعهده أبدا ، وهى التى قضت
حياتها بكاملها داخل ساحات ومحارم قصور مشابهة دون أن تصدم يوما من الأيام
بمثقال ذرة كما صدمتها هذه الليلة المتلاحقة الأحداث .

- ما الذى اعترى الملك الليلة ، ليصدم الجميع على هذا النحو من الغرابة التى قد تفضى إلى توقف القلب عن نبضاته والدم عن سريانه ، وتؤدى إلى الموت الزؤام .. الموت اندهاشا .. لماذا ؟

لقد مشت تشد على يد الملك حيث يتوجه قلبها ، أو لعله سيقفز منخلعا من بين جوانحها . لقد جاءته منذ أيام معدودات متأمة مغتالة تتأبط سمها الزعاف لترديه قتيلا فى غمضة عين ، ثم هاهى الآن أميرة ممسكة يده التى لو حدث وتخلت عنها ، لفارقت الحياة بأسرها من فورها :

- ما معنى هذا .. الليلة !

- هيكل .. وسأدعوه : سيف !

تساءلت :

- من جارىتك .. قمرية ؟

أجاب دون تردد ممسكا يدها برفق :

- أجل .

شردت ببصرها :

لو أن الشمس الغاربة لتوها أعادت إشراقها الآن حالا لما تساءلت .. لماذا ، ودا كانت عثرت على جواب شاف .

حتى اذا ما سنحت لحظة قاربها فيها وزيره وصفيه المقرب « يثرب » انجهت اليه قمرية بسؤالها الأزل معبرة بكل وجهها وخلجاتها :

- لماذا ؟

أجابها الوزير يثرب :

- لأنه ذو اليزن .

استكانت لحظة مطلقة عنان أفكارها لذلك الحب الطاغى المكبل الذى اعتراها فجأة ودون سابق إنذار من الرأس حتى القدمين مرددة بعده :

- ذو اليزن .

هنا تدافعت الوفود المتطلعة إليهما من كل جنبات القاعة العملاقة مهتة مهلة وهى
تلقى بنادر الهدايا تحت أقدامهما ، النساء قبل الرجال يخلعن عنهن أساورهن وأقراطهن
الذهبية المرصعة بالياقوت والزمرد والرجال خناجرهم الإبريزية وما يحملونه من ثمين
الأحجار الكريمة مهئين :

- حان الوقت .. وحل الألوان .. مبروك يا أميرتنا . وعلى الفور علا اسمها :

-قمرية .. قمرية !



17

جنون ملك الحبشة

جن جنون ملك الأحباش « سيف أرعد » حين تنامى إلى سمعه الكيفية التى انتهت إليها مهمة تلك الجارية التى كانت تغل سماً « قمرية » ، والتى بلغت ذروتها القصوى منذ لحظة وصولها إلى مدينة التبغ اليمنى الغازى ذى اليزن ، « أحمر » فبدلاً من أن ترديه قتيلاً بسمها الزعاف النافع ، أوقعته فى حبالها إلى حد إقدامه على الزواج منها :
- أحقاً ما أسمع . . يالها من كارثة .

أريد وجه الملك وهو يسمع ويقرأ تقارير عيونه وبصاويه ، مقارناً الواحد بالآخر ، وأزعجه أنها جميعها تلتقى على الزواج من قمرية ، ليخلف منها وريثاً « لعرش التباعة العظام » .

تساءل الملك محطماً من فوره كل ماتقع عليه يداه فى غضب مندفع جارف :
- عرش التباعة العظام . . هنا فى قلب أفريقيا هنا . . على مقربة منا . . من أثيوبيا !

لحق به وزيره المقرب الذى يمقت العرب ملهوفاً محاولاً تهدئة ما ألم به من ثورة غاضبة ، حين استدار إليه الملك دافعاً إليه بكومة ماتلقاه من تقارير :
- إنها مشورتك . . اقرأ ياسقرديون !
- قرأتها بكاملها حرفاً حرفاً .

رفع الملك ذراعه المغطى بالأختام والأساور المصاغة من الذهب الإبريزى الأحمر
صارخا :

- سيتزوجها التبع تصور . يتزوج من قمرية .

رفع صولجانه مشهرا مهددا :

- ليخلف منها وريثا لعرش التباعة . وهنا . . هنا عند أعتابنا . . على أعتاب
أسعد يهوذا .

أعاد مسرعا قراءة أحد التقارير :

- لقد حدد اسمه وهو لايزال فى بطن أمه « الأذية » . . « هيكل » . . وسيدعونه
« سيف » ، ليشهره فى وجهى . . فى مقتلى أنا وليس أحد سوى . . بالطبع من هو
غيرى أنا .

وعلى الفور تصور الملك أرعد ، مائدة ملك بعلبك المسمومة ، وما انتهت إليه ،
صارخا فى وجه وزيره المأخوذ سقرديون :

- هى بذاتها الحكاية القديمة ، تطل برأسها من جديد تماما . . مثلما حدث مع
ملك بعلبك وانتهى بقطع رأسه .

تهاوى من فوره جالسا على عرشه - عرش أسد يهوذا - آخذا رأسه بين ساعديه :

- الحكاية القديمة . . هه . . والآن جاء دورى أنا . . هنا .

غمغم ساخرا :

- فالتبع لايبغى حربا . . بل انتقاما .

وكما لو أن أطماع وأحلام ملك الأحباش قد تهاوت كلها دفعة واحدة ، كما لو كانت
مجرد أضغاث أحلام ، استحالت فجأة إلى كوايس محاصرة مروعة لامهرب له ولا فكاك
منها :

- إلى أين ؟

كانت أحلامه وأطماعه لاتقف فقط عند مجرد حكم أثيوبيا وتوابعها ، بل كان قد ورث بدوره عن أسلافه السيطرة على النيل ومنابعه حتى مصبه ، فكان يمد بصره إلى السودان والقرن الأفريقى والصومال وأريتريا ومراكش بل والمغرب الكبير بكامله وبلاد النوبة ومصر العليا ، لتنتهى تلك الأطماع مؤمنة حدوده على مشارف البحر الأبيض المتوسط ومنارته « فاروس » ، التى أصبحت الاسكندرية فيما بعد .

بل هى لم تكن أبدا مجرد أحلام وأطماع ، توارثها الملك « سيف أرعد » عن أجداده وأسلافه جيلا إثر جيل ، بل كانت أطماعا شخصية أيضا عمل فعلا على تحقيقها ، وزاد عليها أطماعه الأسبوية فى بلاد التبع ذاته فى جنوب جزيرة العرب منبت ومنبع ذلك الخطر الجاثم دوما على بلاده وأمنها .

لذا واصل الملك أرعد على الدوام إعداد فيالقه المحاربة الزاحفة التى لم يكن ينقطع هجومها وغاراتها الخاطفة على حدود ومدن تلك البلاد ، ثم العودة من جديد إلى أثيوبيا ، بالأسلاب والأسرى والغنائم من « ذوى البشرة البيضاء » ، تمهيدا لإعداد العدة للزحف الكبير وإحكام قبضة الحبشة عليها شمالا وغربا .

وكان يرجىء ذلك الزحف دوما بانتظار الانتهاء من أقوى وأصلب أعدائه ، وهو ذلك التبع اليمنى ذو اليزن ، الذى بدد منذ نزوله بجيشه وقبائله ، أحلامه وأطماعه .

وها هو أخيرا - أى التبع - قد سد عليه كل المنافذ باكتشافه لأبعاد خطة اغتياله الخسيسة المغلفة بثمين الهدايا ورسائل المودة وحسن الجوار ، حين أرسل اليه - بسفيرته - قمرية .

انتفض سيف أرعد من جديد منتصبا متحركا على طول جنابات وردحات قصره ، ووزيره المتنمر سقرديون فى إثره ، يتحين لحظة تهدئة ثائرتة ، ليفضى إليه بخطته الجديدة حول كيفية التخلص بأسرع الطرق وأنجعها من أولئك العرب الغزاة وشروهم .

اتجه الملك أرعد من فوره إلى حيث خلوته ، عابرا الجسر الموصل بين مقره وقلعته

الواقعة داخل الميناء المطوق من ثلاث جهات ، والذي حوله إلى شبه جزيرة حصينة، إلى
أن توقف مستديرا لوزيره سقرديون مفضيا إليه بهواجسه :

- لا بد أنه عرف بخطتنا .

أجابه الوزير باقتضاب :

- من قمرية . . الحبيبة الجديدة التي أصبح الطريق إليها مفتوحا لتعتلى عرش
التباعة .

نظر الملك أرعد إلى الماء مغموما :

- لا تقف أطعامها أبدا عند حد . . تلك الجارية البيضاء .

- حية رقطاع . . أعجمية .

غمغم الملك مهموما بمرارة بالغة .

- أما من مهرب أبدا من هذا العالم المليء بالجنس الأبيض . . وشروبه . . هه . . ها
هى قمرية وبعد كل ما قدمته لها زاحفا عند أقدامها .

عاتبه وزيره :

- حين أهملت كل تحذيراتى عنها .

- لننس مامضى . . لتذره الرياح .

علا صوت الملك مهددا :

- نحن هنا الآن . . وفى هذا المكان . التبع لا ينسى ثأره . . لحظة ، مهما تظاهر
بالسماحة ، وهو أنه لا يبدأ حربا ولا يمشى أبدا إلى حيث الخراب .

عبرا ممشى جانيبا يقود إلى « ذهبية » عائمة إلى أن أصبحا وسط البحر الملبد بالغيوم
المتعاقبة مع سفوح الجبال الشاهقة المحيطة . . وغابا طويلا داخل أغوار البحر
المحيط :

- جحيم التبع اليمنى . . وانتظاره . . جحيم .

أما التبع ذو اليزن ، فقد أرجأ على عادته السمحة انتقامه من ملك الأحباش الذى بدأ علاقته به على ذلك النحو الغادر ، منشغلا بحبه الجديد من تلك الفتاة - قمرية - التى جاءت قاتلة ومغتالة ، فتملكت من فورها أعماق قلبه ، حين ذرفت أمامه دموعها مدرارا ندما على ما أقدمت عليه فى البداية ، وانتهى إليه أمرها إلى حب عميق ضارب الجذور والأبعاد للملك الضحية البهى الطلعة الذى أسرها أسرا بساحته وفروسيته .

ومن هنا تلاقيا معا منذ البداية - التبع وقمرية - على أرض صلبة من المكاشفة والصراحة ، فكانا أن رسخا جذور الحب بدلا من البغضاء والتآمر .

وكان كلما مر يوم جديد ، تكشف للتبع مدى طاقات وقدرات - قمرية - نتيجته عميق معرفتها الواسعة بالكثير من الأمور والمعارف والأحداث ، سواء منها ما كان غابرا مندثرا ، أو ماثلا يواصل جريانه وسريانه اليومي ليصل يوما إلى مثواه ومنتهاه الأخير .

كانت على معرفة واسعة بجزيرة العرب شمالا وجنوبا ، ومايتمثل فيها من أحداث وصراعات وهجرات قارية وحروب ومنازعات قبائلية وعرقية وعشائرية .

بل هى استفاضت معه الليالى إثر الليالى ، أو خلال رحلاتها معا للصيد والقنص والترىض واللهو عبر بساتين وقلاع وحصون « أحرا » ، وما بدأ يستجد حولها من مدن ومضارب وليدة ، يتحادثان معا حول تاريخ جدوده التباعنة وسيرهم وأخص سياتهم وحروبهم وغزواتهم وشعائهم ومآثرهم وما قيل فيهم من أشعار ومراث أو قبوريات ، بدءا من جددهم السالف « يعرب » الذى ينسب إليه أنه كان أول من تكلم العربية ، « قبل حادث بناء مدينة بابل وبرجها الكبير ، وتبلبل الألسنة بها » ، وبها - أى بالعربية - نطقت بقية القبائل مثل : عاد وثمود وطسم وجديس - قوم زرقاء اليامة - والعالمليق ورائش .

واستفاضت معه - قمرية مطولا خاصة عن مدينتى عاد وثمود ، اللتين يسميهما الأحباش مدينتى مرقسيا وبرجيسيا ، وكيف أنها كانتا عامرتين إذ كان لكل مدينة عشرة آلاف باب .

وكانت قمرية على دراية معجزة بالأنساب العربية - بل وغير العربية من أعجمية -

بدءاً من أبناء يعرب ملوك سبأ ، وكان أولهم الملك التبع عبد شمس بن سبأ ، الذى سُمى سبأ ، لأنه كان يسبى أعداءه ، ومن نسله انحدر ملوك حمير وكهلان ، ومن كهلان جاءت أشهر بطونها ، قبائل الأزْد - الذين تفرقوا عقب خراب سدود اليمن ، وكان أهمها سد مأرب ، وسد الخائق بصعده وسد ريعان الذى أعاد بناءه الملك ذو اليزن قبل مجيئه إلى هذه البلاد ، وسد سنان وعنس وجيرة ، بالإضافة إلى بقية السدود التى أعاد الملك ذو اليزن بناءها أو تعليتها أو مضاعفة منسوباتها من المياه ، مثل سدود :

« سحر » وذى سمال ، وذى رعين ، ولحج ، ومقاضة . . وهران ، والشبعانى ، والمنهاد ، ولطاف .

كان أكثر ماثير إعجاب الملك التبع ذى اليزن فى قمرية ، هو قدرتها الخارقة على حفظها الدقيق للمراحل التاريخية الغابرة ، لمثل هذه السدود والمنشآت المائية التى أسهم فى بنائها أو ترميمها ذو اليزن ، مضيفة الكثير من المعارف والمعلومات التى غابت عنه - كبناء - قبل أن يكون متبحراً بخلفيتها التاريخية .

وهكذا أفاضت معه قمرية فى الحديث حول ثلاثة وثلاثين سدا ، لدرجة دفعت به إلى إعادة الاهتمام والتحقق من كلامها بإرسال رسله لاستكمال العمل فى بعضها حتى إنه أطلق على أحدها سد قمرية .

حتى إذا ماتعرج الحديث بينهما حول منحى آخر جديد ، تزايد إعجاب الملك بها ، خاصة فى مخزون معلوماتها ومعارفها عن معتقدات العرب الغابرة او المندثرة مثل الموحدين وغيرهم ، وأهمهم الشاعر أمية بن أبى الصلت وخالد بن سنان العيسى ، والشاعرة طريفة ، والشق بن أنهار ، وإسماعيل بن ثابت بن قيدار ، والحارس بن معاف ، والأخير هو القائل عقب هزيمة قبائل جرهم أو الجراهمة لقومه :

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت

نطوف بذاك البيت والعز ظاهر

وصرنا أحاديث وكنا بغبطة

كذلك عصتنا السنون الغواير

فسحت دموع العين تجرى لبلدة

بها الأمن أمن الله فيها المشاعر

ولكم تمت قمرية على الملك ذى اليزن أن ييسر لها زيارة « البيت » فى مكة المكرمة ، فوعدها ذو اليزن بذلك ، حالما الانتهاء من إتمام مراسيم زواجه منها ، وهو الزواج الذى أصبح يتعجله بصبر نافذ ، إلى حد الاستعجال الواضح .

وهو ما كان يدفع بقمرية إلى التساؤل ، وإطالة التفكير وحدها فى لحظات خلوتها دون التوصل إلى جواب تشفى به تعطشها :

- لماذا العجلة بالزواج ؟

بل إن الملك بدأ فى أيامه الأخيرة يستفيض معها فى الكيفية المثلى لمواصلة حكم حمير والبلاد المفتوحة ، مشددا على أهمية سيادة العدل والحكمة ، وكأنه إنما يوصيها هى بذلك قبل غيرها

- لماذا هى بالذات . . وما الذى يبغيه ؟

لقد أصبحت ، ومنذ لحظة لقائهما الأول ، لانفكر فى مخلوق آخر سواه ، فما هو - ذو اليزن سوى الماء الحى الذى يروى صحراءها العطشى المجذبة ، وفى انقطاعه عنها ، موتها المحقق كما سبق أن ذكرت :

- إذا ابتعدت عنى بعد اليوم . . سأخرج سمومى .

تساءلت أمام مراياها العاكسة كالمذهولة :

- تراه يتصورنى طامعة فى ملكه .

أضافت :

- أنا حقا طامعة فيه ولاشئ آخر فى هذا العالم الفانى يغنينى عنه ، وسواء أكان ذا اليزن أو صيادا معدما فهو عالمى الوحيد . . جلى . . وفى هذا الكفاية لشفاء ظمئى المتحرق منذ لحظة اللقاء الأول التى لن أنساها ماحييت .

حتى إذا ماضى بها الخناق يوما دون أن تعثر على جواب شاف لتساؤلاتها هذه التى

- لا جواب لها ، اتجهت يوما إلى وزيره الأول وصفيه « يثرب » ، مختلية به سائلة :
- كثيرا مايرادنى التساؤل ، حول سوء فهم الملك لى . وكأننى إنها جئت طامعة فى ملكه . أقول لك الحق . . أنا فعلا طامعة . . لكن فيه هو ذاته ، وما عداه سراب .
- عندئذ هدا الوزير يثرب من روعها ، إلا أنه ولدهشتها أعاد إليها ذات التساؤل
- أنا حقا لا أعرف . . مالذى اعترى التبع فى هذه الأيام ؟ تطلعت إلى الوزير فى أقصى دهشتها :
- أنت أيضا !
- قال فى غموض :
- لا أعرف . !
- كيف لاتعرف ؟
- أضاف أكثر غموضا :
- يخيل إلى أنه يخفى شيئا عنا جميعا .
- قاربتة قمرية مناشدة :
- ماهو هذا الشىء الذى يخفيه عنا ؟
- أضاف يثرب :
- أصبح فى الآونة الاخيرة كثير الحديث عن وريث للملكه المترامى .
- شردت قمرية غائبة فى تفكيرها :
- فعلا . أصبح لاحديث له . . سوى . . أجهشت بالبكاء فجأة وهى تدق فى عصبية الجدار المواجه :
- يالنكبتى . . يالنكبتى .
- قاربها الوزير يثرب فى حنو :
- هدئى يا أميرتى من روعك وحاولى ما استطعت إبعاد مثل هذا الخاطر .

لاشئ سيحدث سوى كل خير . . والملك شديد الاستبشار بك منذ حلت في حياته
التي كانت موحشة ، فأنت أعرف الناس بزهده عن النساء .

مضى يجفف لها دموعها الغزيرة بمنديله قائلاً :

- حاولي ما استطعت إسعاد الملك التبع الذي أعطى كل حياته للناس ولم يفكر
لحظة في نفسه هو . . حاولي .

اتجهت اليه معاودة التساؤل من خلف دموعها التي انهمرت مجدداً :
- كيف ؟

- فكرى في عرسكما معا قالت .

- أنا رهن إشارته . ولا أريد أى عرس لا أريد سواء في هذا العالم المظلم . .
واصلت البكاء والنحيب في حدة :

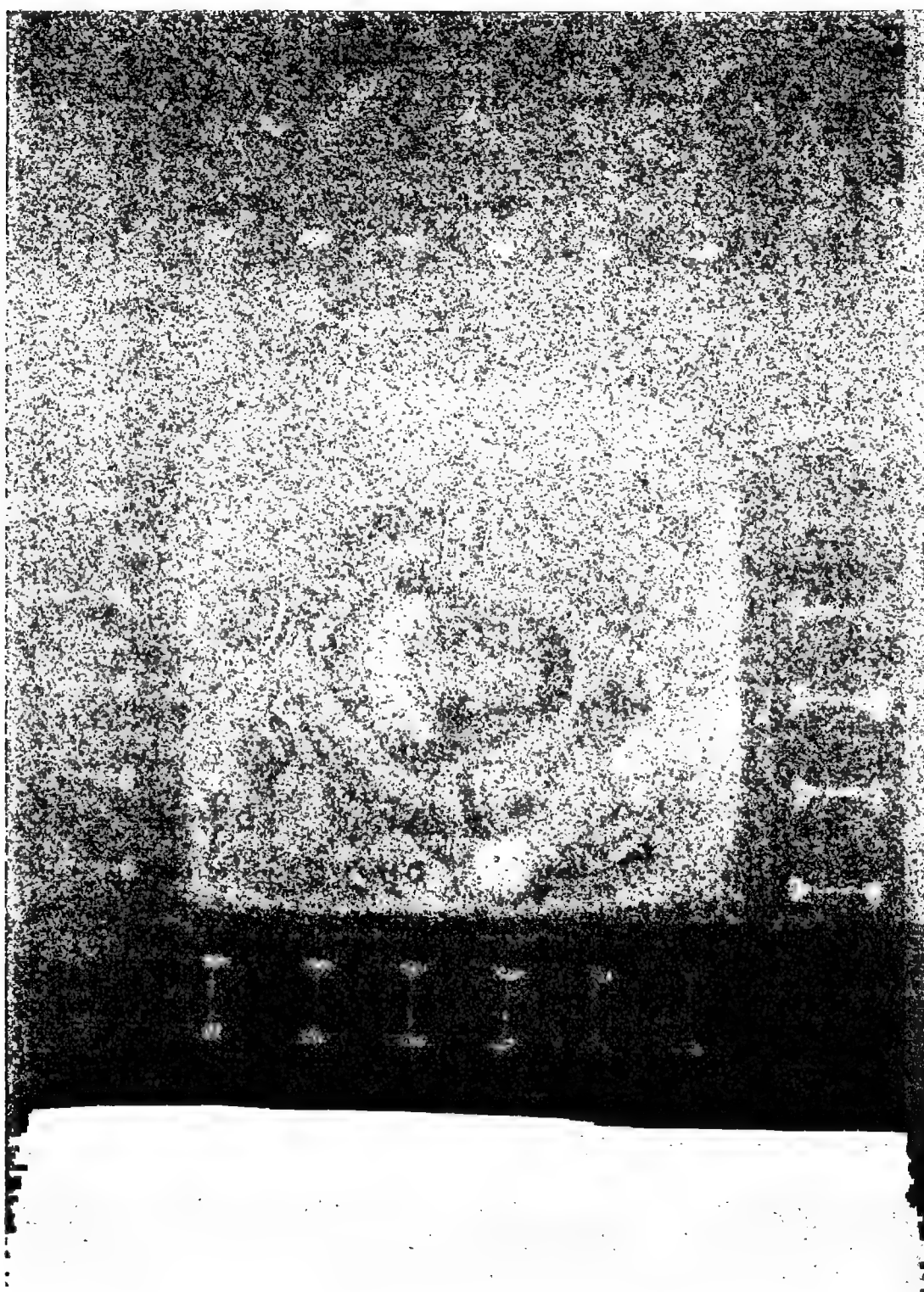
- لماذا . . لماذا ؟

فتح الباب فجأة وتوقف الملك ذو اليزن قائلاً بصوته الهادئ النبرات :
- ماذا . . اتبكياننى من الآن ؟

تقدم منها ممازحاً :

- هأنذا الآن مازلت في هذا الجسد .

أدارت قمرية وجهها ثانية غارقة في دموعها .



18

مراسم عرس التبع

ما أن وصلت وفود المهنتين أفواجا إثر أفواج إلى عاصمة التباعة الجديدة - أحمر - محملين بثمان الهدايا والكنوز للمشاركة في حفل عرس الملك التبع ذى اليزن ، حتى أشرف الوزير الأول « يثرب » على نزولهم بقصور الضيافة التى أعدت لهم ، والملحقة بقصر التبع .

وجاءت الوفود المشاركة من الملوك والأمراء والحكام وشيوخ القبائل من اليمن والجنوب العربى وشمال جزيرة العرب والشام ومصر والعراق والمغرب الكبير .

وابتهج الجميع بهذا الحدث الكبير ، استبشارا بأن يخلف التبع ذو اليزن من زوجته قمرية التى وقع اختياره عليها وريثا لعرش التباعة ، كما سبق للملك أن تمنى : هيكل . . وكنيته : سيف .

وهكذا ارتفعت الدعوات وعلت الأمانى بأن ينال ذلك الملك الرحيم العفوف - ذو اليزن - يوما مبتغاه ، خاصة وقد تكاثرت أطماع الأحباش وملكهم المتآمر المعادى للعرب « سيف أرعد » ووزيره الشرير « سقرديون » .

لذا استبشر الجميع في ربوع اليمن والجزيرة ومصر وما بين النهرين والمغرب الكبير بتلك الخطوة التى أقدم عليها التبع ، بعد طول زهد في التفكير في الزواج والإنجاب ، ولو من مدخل الحفاظ على ذلك الرمز الذى استقر تحته الجميع كمظلة آمنة تشد أزهرهم ضد أى عدوان مبيت .

فالملك ذو اليزن ذاته بدا في سنواته الأخيرة رافضا للحرب والعدوان ، لايشغله شىء سوى إنشاء مشاريع شق الأنهار واختزان الماء بتشبيد السدود والخزانات والمنشآت التى تتيح لتلك الأفواه الجائعة الحياة والنمو والازدهار ، بالإضافة إلى أحلامه فى نشر العدل والأمن للجميع ، حتى هجعت الأفواه من أقاصى الأرض بالحُب والثناء له :

- شدد الله ساعد ذى اليزن الرحيم الضارب وجرت مراسيم عرس التبع باحتفالات باهرة على طول مدينة - أحمر- وعرضها ، وكان أكثر الجميع حبورا ومباركة . لما يحدث ، وزيره المقرب « يثرب » عقب تيقنه من حب « قمرية » للتبع ومدى فصاحتها وعمق بصيرتها وعلمها ومعارفها ورجاحة عقلها . إلا أن قمرية ظلت نبها لأحزان ثقيلة نخيمة تتصل جميعها بزواجها من التبع ولا تعرف لها أصلا ولاسببا واحدا :

- لماذا ؟

وكانت كلما اجتمعت بالملك ذى اليزن وامتد بينهما الحديث وتعرج ، يعاود الملك تأكيد وصاياه لها ، سواء بالنسبة إلى شئون حكم البلدان المترامية وكيفية تسييسها وإدارة دفتها ، أو بالنسبة إلى ذريته المرتقبة منها - ذكرا كان أو أنثى - أو فيما يتصل بحماية مشاريعه المائية والزراعية ، أو فى التشدد معها فى نصرة المظلوم وتسييد العقل والحكمة . وكانت هذه الأحداث تعيدها إلى أحزانها الغامضة الدفينة التى لا تعرف لها سببا .

كانت تسائل نفسها فى وحدتها :

- لماذا يتعمد الملك إثارة أحزاني ودموعى التى أصبحت لاتنقطع . إلى درجة أنها أصبحت غمقت هذا الضعف فى نفسها ، وهى التى لم تكن تعرف للبكاء ونزف الدموع طعما - كعادة النساء - قبل حبها ذلك الجارف المتفجر .

وسألت فى هذا ، الكثير من مقربيه من أمراء وحكام وشيوخ القبائل حتى وزيره « يثرب » ، فلم يزلها الأمر سوى إلى التيه والافتقاد فى بحر الغموض الذى تعيشه .

حتى عندما انتهت مراسيم الزواج ، حاولت التسلل إلى مكنونات قلبه لمعرفة مابه ، لكن هيهات ! .

فلقد كان كل ما يتعجله منها ، هو الخلفة والذرية ، مما دفع بها أكثر إلى التوتر ومعاودة التساؤل حول غرابة أطوار ذلك الملك الزوج الذى لا يكبرها كثيرا ، والذى أصبح كمن ينتظر مجهولا لا قبل لأحد بانتظاره .

فكانت كلما مرت بهما الأيام والليالي ، كلما تضاعفت لهفته بانتظار مولودهما :

- سيف . . درعى القادم . . أين ؟

ويمضى يتفوه بتلك الكلمات التى عرفت عن تباعنة اليمن وحكمتهم إزاء شعورهم باقتراب الأجل مثل الحكيم لقمان بن عاد صاحب النسر أو لقمان « ذى النسر » الذى ربط بين موته وفناء آخر نسوره السبعة وكانت أسماء تلك النسر على التوالى هى : المصون ، وعوض ، وخلف ومغيب ، واليسر - أو الميسرة - وإنسى ، لذا كان يسمى بلقمان الأنسى ، وكان سابعا هو النسر « لبد »

وحين وافت المنية ذلك النسر السابع « لبد » فسقط مشرفا على الموت ، ولم يقدر أن ينهض ، و « تفسخ ريشه » كما يقولون ، ناداه لقمان :

- انهض لبد . . أنت الأبد .

ولما لم ينهض ويطير من جديد محلقا بجناحيه ، أنشد لقمان يبكى نفسه :

موتى إنى أموت اليوم يالبد

واحسرتى أن قد تعرم الأبد .

فَطِرْ كما كنت سالما أبدا .

تحيا ونحيا معا ونحتفد

فكثيرا ماتندر لها ذو اليزن بأشعار التباعنة - الدهريين - فى وحدتيهما ، كما ذكرها مقالاه امرؤ القيس بن حجر المقصور بن الحرث آكل المزار الكندى وهو يرثى ذا القرنين الصعب بن ذى مراد الحميرى :

ألم يخبرك أن الدهر غول

ختور العهد يلتهم الرجال .

ثم ينشد متغنيا :

يقولون لا تبعد وهم يدفنوننى

وأين مكان البعد إلا مكانيا .

بل إن مآلم قمرية وهى ماتزال بعد عروسا وضاعف من تمزقها وأحزانها وعذاباتها ،
هو التحول السريع المتلاحق الذى حل بالملك ، وزهده فى الحكم موكلا أمر العسير من
قرارته الجهرية ، إليها هى وحدها :

- عليكم بالأميرة .

وكانت كلما واجهته متعثرة نبها لمشاعرها الحزينة الآسية ، بعدم معرفتها بأصول
الحكم أجابها :

- ولم لا . . أنت زوجتى تعلمى . تمسكى . أنا لست بخالد .

صحيح أنها كانت تلجأ فى مثل هذه الحالات إلى منجدها ، وهو الوزير الأول
يثرب ، ولكن أين لها بقرارات تتصل بالحرب والسلام وعقد المعاهدات وتسيير الجيوش
وشق الطرق والسدود فى شمال الهند ، وأندونيسيا والتركستان ومصر والمغرب الكبير
ووادى الرافدين وحضر موت ويثرب ودمشق ؟

أين هى من كل هذا لتحكم وتنهى ، وهى التى جاءته يوما تحت أستارها وأقنعتها
محملة بسمومها المعجلة . . ساعيه للقتل والاعتقال .

إلى أن تحقق حدث « قمرية » وحل وهن المرض بالملك ذى اليزن ، فلم يمهل
طويلا ، إذ ألزمه فراشه لايرحه .

وجاء توقيته متوافقا وكأنه على موعد مع تحرك ابنه - كجنين - فى أحشاء أمه قمرية .
وكم كانت فرحته الكبرى وهو معلول ذابل الوجه على فراشه ، حين قاربته زوجته ،

وهى تسعى إليه على ركبته وهو راقد على فراشه آخذة يده الحنون الرحيمة لائمة قبل أن تضعها على بطنها :

- ماذا يا قمرية ؟

- ابنك .

- أحقا ماتقولين ؟

- هيكل . . سيف . . هاهو يلهو معاتباً ويود لو يلثم جبهتك الأبية .

علت وجهه ابتسامة واهنة وهو يعانى من آلامه المبرحة مجاهدا على نفسه لتقبل لحظة فرح :

- ابنى . . ليتنى فقط يمتد بى العمر إلى أن أراه ، آه . . سيف . . وحيدى !

أغمض عينيه مستسلماً فى أحلامه قبل أن يأخذه النوم العميق .

بعدها لم تعرف قمرية كيف تتصرف ، وهى تشهد بعينها انزواء الملك واكفهراره تحت ثقل علته العاتية التى حيرت جميع حكماء ومطبى الأرض .

استقدموا له حكماء مصر والشام واليمن والهند ، الذين تراحوا على قصره من كل صوب ، ولكن لا من دواء شافٍ .

وظل ذو اليزن تائها عبر غيبوبة مرضه العضال الأيام والشهور الثقيلة لايأسأل عن شىء إلا عن ابنه المنتظر :

- لن أموت قبل أن تكتحل عيناي برؤيته بين أحضانك يا قمرية .

وهذا الجواب لم يكن يسعف قمرية أو يروى أحزانها فكانت تلجأ للدموع :

- هاهو يضحك لك من أعماقى .

ابتسم الملك فى وهن :

- سيف . . سيف . . متى ؟

اكفهرت قمرية وغاب عنها لونها وهى تشهد الملك الذى أحبته من أعماق أعماق

قلبها يعانى آلامه المبرحة على هذا النحو خاصة بعدما سمعته يتعجل رؤية وحيدته على هذا الشكل الملح .

- متى ؟

قاربتة محتضنة فى انفعال ، وهى تمسح عنه بكف يدها الحانية ، خيوط عرقه النازف على وجهه وجبهته العالية المشربة فى سمو ، قائلة وهى تضاحكه مخفية عنه آلامها ومعاناتها مما سمعته وأصبحت لاتقدر على الإفصاح عنه :

- أتقول متى . تراهنى على أنك ستشفى حالا من آلامك العابرة هذه ، وفى عزك ومجداك سيتربى سيف وينمو .

غمغم ذو اليزن بفروسيته المعهودة متقبلا تحديها له :

- أجل . أراهنك . . بعرشى كله .

- أنا لأبغى عرشا ولا مجدا فى هذا العالم سوى أن أنمو إلى جانبك . . مجرد نبته ، ويمكن القول زهرة برية فى أحضان سنديانة . . أرزة تعادى الفناء .

- الفناء . . الفناء .

تساءل معاودا تحسس بطنها وذلك النابض فى أحشائها :

- ومن قدر له قبل الإفلات من قبضتيه الفناء الدهر . . ذلك الغول الختور الذى يلتهم الرجال .

عندئذ استدارت عنه قمرية برأسها متجهة إلى حيث مدخل القاعة الشرقية وحيث كان يقف منكمشا الوزير « يثرب » ومن خلفه كوكبة من الأمراء والسفراء والرسل الذين كانوا فى انتظارها على أحر من الجمر .

واصلت تحسس جبهته ، وتحسست بيدها الأخرى تلك الرسالة المطوية بين طيات ملابسها ، كمثل حية :

- الجميع بانتظارك من كل صوب .

أغلق الملك التبع عينيه مشيحاً ، لايعرف له جوابا .

عندئذ حاولت قمرية استجماع شجاعته وماعرف عنها من إقدام لتفضي إليه
بمحصلة تلك الأنباء الخطيرة التي حملها الرسل :

لا منقذ لشعبك ورعيتك . . سواك

- أنا . . كيف . . على هذا النحو . . أو . . ليتنى بقادر يا قمرية .

وحين أسلم جفنيه للنعاس . . انسلت قمرية في نعومة مبتعدة عن الفراش :
- نام .

أرخت من فورها ستائر الشرفات ، وأشارت بيدها دون صوت إلى جوقات
الموسيقين والمنشدين ، الذين يتغنون بهآثر الملك في تنسيق رتيب أصبح في أيامه الأخيرة
لا يخلو من الحزن الذي تحول إلى إيقاعات المراثي والبكائيات ، فأخفتوا من فورهم من
غنائهم الجماعي وإنشادهم . . حتى تلاشت أصواتهم تماما .

واندفعت قمرية مغلفة باب قاعة مخدع الملك التبع ، متجهة من فورها إلى حيث
يقف يثرب وكبار رجالات البلاط والأمراء ، ورهط هائل من رسل البلدان والأقوام
التابعة والحكماء وشيوخ القبائل والعشائر ، وقد حط على رؤوسهم الطير جميعهم
بانتظار ردها .

استخرجت المكتوب المطوى من بين طيات ملابسها مشيرة له في أقصى كمدتها
وحيرتها :

- لم أقدر .

- وما العمل ؟

قاربها يثرب :

لن ينقذ الملك وينقذنا جميعا سوى التحدى .

اختلى بها باتجاه الشرفات الجنوبية للقصر - القلعة مشيرا مهددا :

- من هنا يمكن أن تشهدى بعينيك مانحن فيه . . بيارق الأحباش .

زفرت في أقصى حنقها وتمزقها :

- ذلك الحسيس . . أرعد .

رفعت ذراعها عاليا صارخة في أقصى حالات غيظها :- ذلك المتسلق . .
الطحلب .

تمالكت قمرية نفسها وهي تكبت آلامها مشيرة باستقبال الرسل ، وتلقى جديد
معلوماتهم ، وكيف أن جيوش ملك الأحباش « سيف أرعد » لا تكفى بمحاصرة مدينة
« أحمر » بل إن طلائعها وصلت أعلى النيل متوغلة في ربوع السودان وبلاد النوبة إلى أن
شارفت مصر العليا .

وتزاحم الرسل حولها بالتقارير وجديد المعلومات عن توغلهم في المغرب الكبير
ونزولهم « تلمسان » ، بعدما أشاعوا فيما بينهم خبر موت الملك ذى اليزن .

صرخت من أعماقها :

- ياللغدر الدنيء . . الملك التبع معاف وفي أحسن حال .

وفي الغد سيمتطى ظهر - الشهباء - ويغيبهم عن هذه الأرض

كانت تعرف أنها إنما تكذب بادعائها هذا . . فما كان منها إلا أن أنسلت لا تلوى
على شيء ، وفي أعقابها الوزير يثرب ، إلى أن وصلت جناحها نازعة عنها ملابسها ،
مرتدية عدة حرب ذى اليزن وهيئته بل ولحيته ودروعه متمثلة مشيته ، منسلة من جديد
إلى حيث مخدعه ، فانتزعت سيفه المعلق ، خارجة على الجموع المنذهلة التي جثت داعية
للملك التبع . .

ومن فورها أشارت بدق طبول الحرب « الرجوج » واستعد الجميع للخروج من
خلفها ، بعد أن سرى خبر شفاء التبع وحلول المعجزة واستعد الجيش للخروج من -
خلفه - لملاقاة عدوان الأحباش وملكهم سيف أرعد الجبار المعتدى .

19

قمرية تأخذ مكان ذى اليزن

ظهرت شجاعة الأميرة « قمرية » فى تلك الحملة الانتقامية الضارية التى قادتها فجأة ودون سابق إعداد أو حتى مجرد التفكير فى عواقبها . وذلك حين شاهدت بعينها مدى الخسة أو العدوان الأسود الذى استحال إليه ملك الأحباش « سيف أرعد » ، حين سنحت فرصته بالانتقام مستغلا ما حط على الملك التبع ذى اليزن من مرض ألزمه فراشه .

فما كان من ذلك « الأرعد » ، إلا المبادرة بالشر والعدوان ، إلى رفع راياته وبيارقه وإشهار سهامه فى محاولة لإطباق الحصار على عاصمة التباعة - « أحمر » .

هنا لم يكن أمام قمرية سوى ارتداء عدة حرب ذى اليزن ووضع تاجه ودروعه وشاراته ، وحمل حسامه ، بعدما اتخذت كامل هيئته متنكرة وخروجها بالجيش لرد العدوان - الحبشى - وما يمثل من خطر محقق .

وحالف الحظ قمرية فى مكيدتها الانتقامية تلك ، ذلك أن عيون وبصاصى سيف أرعد ، ما إن وقعت أبصارهم عليها على ذلك النحو ، حتى تراجعوا من فورهم مندحرين ، فارين بجلدهم مشيعين عبر كل مدينة ووطن وكيان ، كيف أن التبع اليمنى :

- لم يمت . . وهو يتقدم فيألتى جيشه محاربا وعلى رأسه تاج التباعة .

وسرعان ماسرى الخبر متواترا من كل مدينة إلى مايتاخها بأسرع من سريان النار في
الهشيم :

- الملك التبع معاف يعتلى صهوة جواده . الشهباء - ويتقدم جيشه فاتحا محاربا .
وساد الذعر والفرع أول ماساد فيالق وكتائب جيش الأحباش ، فركضت فلولهم
تسابق الرياح عائدة باتجاه أثيوبيا .

إلا أن « قمرية » واصلت زحفها موقعة الرعب والموت والدمار بهم ، حتى إذا
ماتراجعت جيوش الأحباش عابرة النيل ، واصلت تعقبها لها على طول غاباته وجباله
المشرقة مستخدمة فرق - النشاب - التى كان يوليها الملك ذو اليزن رعايته الخاصة ، بل
وكثيرا ما أوصاها هى ذاتها بهم .
- النشاب هم درعى الحامى .

فمضوا يمطرون جيش الأحباش الفارين المدعورين من أعلى قمم سفوح الجبال
المحيطة دون رحمة ، فلم يقلت منهم سوى القلة التى عادت بالخبر والهزيمة المروعة إلى
عاصمة (سيف أرعد) « أثيوبيا » معلنة خداع الملك - أرعد - وافترائه بادعائه موت
التبع . . وهاهو الملك التبع يواصل بجيشه الباسل تقدمه إلى هنا :

- التبع اليمنى لم يمت . . ها هو على ظهر الشهباء بعدما قتل وأسر معظم جيش
الحبشة .

كانت الأميرة « قمرية » تحارب بضراوة فائقة مواصلة تقدمها بسرعة إلى أقصى حد .
ذلك أنها كانت نهبا للعديد من التوجسات العنيفة والمخاوف ، سواء منها مايتصل
بصحة الملك ذى اليزن الطريح الفراش ، أو مايتصل بحملها وما فى أحشائها منه ، أو
مايتصل باتخاذها لقرار مصيرى مثل قرار الحرب دون استشارته ، ثم مدى ماسيحدثه
مثل هذا القرار ، حين يسمع به - ذو اليزن - فجأة ويعلم باختفائها عنه بضعة أيام قد
تصل إلى أسابيع ، دون مراعاة لآلام حملها ومايمكن أن يشكله هذا فعلا من أخطار
تصل بوحيدة الذى ينتظره ببالغ الصبر ونفاده :

- هيكل . . سيف .

لذا ، ماأن قاربت الانتهاء من مهمتها ، إلى حد إجهادها ، ثم انتصارها واقتحامها بجيشها حدود الحبشة وتوابعها ذاتها ، حتى تملكها الإغياء الشديد :

- لتضع حدا للعدوان المبيت علينا من سيف أرعد الجبان .

إلا أن الوزير « يثرب » أثر الاكتفاء هذه المرة بما تحقق من انتصار ، تخوفا مما هي عليه من حمل ، وقبل أن تودى الحرب وعنفوانها بما في بطنها ، وتخوفا بالطبع على حياة التبع المريض المتردية :

- ففى هذا الكفاية للأحباش وملكهم .

وكان حقا مانطق به الوزير الحكيم « يثرب » ، ذلك أن (سيف أرعد) ماأن وصلته الأخبار بعدم صحة موت التبع ذى اليزن ، وخروجه لإفناء جيشه وضراوة المعارك التى قاربت حدود بلاده ذاتها ، حتى تولاه الجنون ، فمضى يصرخ من أعماقه ، لوزيره - سقرديون - وبقية وزرائه ومستشاريه وحلفائه على طول غرب وجنوب أفريقيا ، غير مصدق ما يحدث ويجرى ويقع من هزائم واندحارات .

وكالعادة صب سيف أرعد ، حم غضبه وسبابه على رأس وزيره - الشرير - سقرديون ومشورته :

- الحقوا . . مات التبع اليمنى . . ياللاكاذيب !

أعاد صراخه وثورته فى وجه سقرديون :

- ها هو التبع اليمنى يدق الأبواب . . أبوانا ذاتها . . نخادعنا . . أثيوبيا ياسقرديون .

واجهه محتدا :

- على هذا النحو يصل خداعك حتى لى أنا . كأنك إنما تود إفناء جيشى وتودى بعرش آبائى وأجدادى ذاتهم المنحدرين من صلب يهوذا .

واصل تحديه على مرأى من الجميع :

- أخرج إليه . . أخرج لمواجهته ياسقرديون العجوز . . أخرج إذن لملاقاة ذى اليزن . . أخرج !

ومن جانبه حاول الوزير العاقل - الحجازى المولد - المدعو « أبو الريف » ، التدخل لتهدة نائرة الملك (سيف أرعد) قائلا :

- من المفيد فى مثل هذه المواقف العسيرة ضبط النفس ، والأكثر إفادة هو الاستفادة من أخطائنا بالكذب لا قوام له .

وناشد وزير - الميمنة - « أبو الريف » الملك وجميع حلفائه التروى وضبط النفس ، بدلا من الاقتراء والكذب والعدوان .

ثم مضى فطمأن الجميع بعودة الجيش العربى إلى العاصمة - أحمر - ، بحسب ماتلقاه من تقارير رجاله الأخيرة .

ولم يكن الوزير أبو الريف كاذبا فيما ادعاه ودفع به إلى (سيف أرعد) فى محاولة لإعادة الاطمئنان إلى الجميع .

ذلك أن قمرية أثرت العودة مسرعة ما أمكنها إلى أحمر ، بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه سواء بالنسبة إلى ملازماتها لزوجها ذى اليزن المريض ، أو حفاظا على ما فى أحشائها منه .

لذا جدد السير ما أمكنها بصحبة الوزير يثرب وكوكبة من أخلص الحراس مسرعين متلهفين عبر طريق العودة للاطمئنان على صحة التبع وما حدث له فى غيبتهم خلال الأسابيع الأخيرة ، التى استغرقتها هذه الحملة التأديبية ، التى لم يكن هناك من مهرب من القيام بها .

ولكم ودت « قمرية » من أعماق قلبها مواصلة التقدم وملاحقة انتصارها لاحتحام بلاد الأحباش ذاتها وعاصمتها والتخلص من ذلك الطور الشرير - سيف أرعد - الذى لم تكن تحمل له يوما سوى الكره ، ولكم ودت أيضا من قلبها أن تذيبه هو ذاته سمها

الزعاف ، بدلا من الملك ذى اليزن الذى أسرها أسرا لافلات منه منذ لحظة لقائهما به .
كانت وهى لا تزال تقطع الطريق عائدة إلى أحمرها نهبها للعديد من الأحاسيس
والهواجس العاصفة التى تعتمل دون هواده فى مخيلتها .

وكانت كلما بالغت أكثر فى الإسراع ، تضاعفت مخاوف الوزير « يثرب » على
جنينها ، فما من شئ سيضاعف من مرض وآلام التبع ذى اليزن ، سوى سماعه
بفقدانها وليدها وهو يعانى على فراشه أقرب إلى المحتضر منه إلى المريض .

أما قمرية ، فلم تكن على أقل وعى ودراية بذلك الانتصار الساحق الذى أحدثته
على جيش الأحباش ، لتأمين حدود عاصمة التباعة ، ودفع كل الأخطار عن الملك
المسجى الذى صرعه ذلك الداء العضال الذى ألم به وهو لم يتخط بعد مرحلة شبابه
ونضوج عطائه :

- ذلك الطحلب المتسلق الشرير . . أرعد .

تساءلت وهى مشرفة على تخوم (أحمر) :

- الغريب أن ذا اليزن لم يتحرك حتى لمجرد الانتقام منها عقب اكتشافه لمؤامرة
اغتياله ، حين اتخذ منها - سيف أرعد - مجرد أداة ومخلب نمر لتنفيذ أطباعه وأحقاد
السوداء .

بصقت معاينه وهى تطلق العنان لحصانها الشهباء :

- لا مكان يقف فيه ذلك الأرعد الخسيس . . سوى العتمة والتآمر .

مضت تتوعده :

- لكن سيجيء يومه القريب ، إن لم يكن من ذى اليزن . . فمنى أنا . أجل يأرعد
سيجيء يومك

مضت رغم معاناتها الثقيلة ، تقطع الروابى والسهول والجبال ، عابرة الأنهار ،
مقتحمة أعتى الغابات التى لم تطرقها قبل قدم ، لاختصار طريق العودة إلى حيث

الملك المريض مطلقة من جانب آخر العنان لأفكارها وأمانيتها في كسر شوكة سيف أرعد المشهورة على الدوام ضد العرب والعجم على السواء .
فلکم تمنى أن تمكنها الأيام منه لتشرب من دمه :
- هل سيجىء هذا اليوم يا أرعد ؟

وكانت خطتها تتركز في قطع الطريق على جيوشه وأذرعه الطويلة التي توصلت اليوم إلى صعيد مصر العديدة والسودان والمغرب الكبير والقرن الأفريقى وكل أواسط أفريقية ، في غيبة عن ذى اليزن بسبب كارثة مرضه الأخيرة التي استغلها أرعد حتى العظم .
ووصل بقمريه الفرح مداه ، حين توقفت لتتجرع رشفة لبن وبضع ثمرات ، فأحست بمولودها يتحرك في أحشائها :
- سيف . . ولدى !

وتصورت من فورها فرح التبع حين يصغى لها وهى تسرد عليه تفاصيل ماحدث ، حتى إذا ماسأها عن وحيدته ، أجابت :
- هاهو قوى معاف مثلك . . ويمكن لك أن تسمعه بأذنيك . . اسمع . . اسمع .

وما أن قاربها يثرب ، حتى حادثته من فورها بهذا الخاطر ، وكيف أن جنينها الذى أكمل شهره السادس اليوم . لا يزال حيا معافا في بطنها ، غمغم الوزير هاتفا في فرح :
- هيكل .

ضحكت من أعماقها :
- سيف .

وما إن أشرفا على مدينة - أحمر - مع الغروب حتى فتحت المدينة عن آخرها أبوابها النحاسية ، ووصلهما هتاف وتكبير الآلاف المؤلفة ، عاليا يصم الأذان تمجيذا لاستقبال « الملك » الفاتح المنتصر وعودته مظفرا .

وما إن جاست خيولها عابرة أبواب النصر المزدانة بالورود والرياحين ، والجماهير على الجانبين تجشوا إلى حيث يخطو « الملك » المنتصر ، حتى تحسست « قمرية » لحيثها معتدلة على ظهر الشهباء ، متخذة هيئة ذى اليزن تحت دروعه وخوذته ، تحيط بها أعلامه وبيارق المسدلة . . بينما العيون المبتهجة المهللة بالنصر والظفر لاتصدق ماتشده وهى تدعو للملك التبع ذى اليزن ، بطول العمر والنصر أبد الدهر .

واندفعت هى - متنكرة - محيية الجميع من كل جانب وصوب باتجاه القصر الحصين ، وقد أدار النصر رأسها .

حتى إذا ماشارفت ساحات القصر ذاته ، تعمدت أن تكمل دورها فى اتخاذها هيئة الملك ذى اليزن ، عابرة الساحات الجانبية والمداخل الخلفية للقصر . مدعية للجميع إرهابها وحاجتها إلى الراحة ، مستعينة بإشارات اليد بدلا من النطق والكلام ، إلى أن انفلتت مسرعة داخلية من سراديب القصر الخفية ، متجهة من فورها بكامل هيئتها وتنكرها صوب جناح مخدعها وماإن انفتح باب المخدع ، حتى توقفت فى إعياء ، مستندة على أحد الأعمدة المرمرية ، ثم جثت على ركبتها وهى تخفى ماها ، مرجعة ماتناولته من طعام ، ولحقت بها جواربها فى محاولة لمساعدتها :

- ذو اليزن . . حبى .

نهضت فى تراخ طويل ، لاتدرى ماها إلى أن تتمالك نفسها فخطت مسرعة إلى حيث جناح الملك . وقبل أن تجرؤ على فتح باب المخدع الغربى ، تصفحت الوجوه المحيطة من حولها مستطلعة :

- ماالخبر ؟

وتقدمت قمرية فى صمت ثقيل من الفراش فى محاولة لعدم إيقاظ ذى اليزن من سباته وغفوته .

وما أن امتدت يدها فى حرص كاشفة الغطاء عن وجه الملك التبع ذى اليزن ، ومالت عليه لاثمة متحسنة أنفاسه حتى استدارت باحثة عن الوزير يثرب ، الذى سرعان ماقاربها بدوره مذهولا بمتقع الوجه :

- نائم؟

وما أن كشفنا من جديد الغطاء معا عن وجه الملك المستكين الهادىء الصافى
الملامح، حتى صرخت قمرية :

- مات !

- مات . . ذو اليزن !



20

ذو اليزن التبع المتصير

أصبح الموقف عسيرا مربكا على « قمرية » والوزير « يثرب » داخل مخدع الملك التبع
ذى اليزن بعدما وافته المنية ولفظ آخر أنفاسه فى غيبتها ، لرد عداون ملك الأحباش
سيف أرعد .

إذ بينما اشتعلت مدينة - أحرا - حماسا وتكبيرا وهتافا محيطة بقصر الملك الحصين
من كل الجوانب مغلقة ساحاته ومنافذه تمجيدا للملك التبع العائد المنتصر فى ذلك
الوقت كان الملك - الحقيقى - قد فارق الحياة .

وما أن امتدت يد قمرية وهى متنكرة تحت عدة حربه ودروع ولحيته ، لتتازحه
معيدة الابتسام الصافية إلى وجهه المسجى السمع ، حاكية له من فورها ما أقدمت
عليه خلال فترة غيابها عنه ، وقاربتة لائمة حتى اكتشفت من فورها انقطاع أنفاسه
ومفارقتة الحياة ، فما كان منها إلا أن شقت ثيابها صارخة :

- مات !

ولم يتالك الوزير الحكيم يثرب نفسه سوى الارتماء عليها وكنم أنفاسها ، بينما تكبير
الجهامير وهتافاتهم تصم كل الأذان مدوية من كل جهة استبشارا بالنصر الذى حققه
مليكنهم الرحيم المنتصر المعاف .

بل إن الوزير أسرع من فوره مشيرا لأقرب الجوارى بالإسراع بإغلاق كل الشرفات

والمنافذ والأبواب ، خشية نسرير - كارثة - موت التبع ذى اليزن دون أن تغفل عيناه عن قمرية التى أخرجتها فاجعة زوجها وحييها عن كل طور ، فمضت ناشبة أظافرها فى كل ماصادفها ، وجهها المجهد . . شعرها دروعها التى هى دروع الملك ذاته ولحيته ، هنا صرخ يثرب فى حذر :

- الناس . . مشاعر الناس .

فالوزير الحكيم هو الأقدر على معرفة مشاعر الجموع التى أسكرها النصر الساحق على ذلك الملك الحبشى - أرعد - المعتدى المتحين لكل ثغرة ضعف تلحق بالعرب .

إلا أن قمرية التى تقمصت وأدت بمهارة دور الملك ، دافعة بأعدائه الطامعين إلى الدمار المحقق ، لم تع من فورها تصرف الوزير يثرب واندفعت كالمخبولة لاتبقى على شيء وهى تحتضن الجثمان المسجى الذى أغرقته بدموعها لاهثة مشيرة إلى بطنها :

- ألم تعدنى بالانتظار إلى أن ترى وليدنا ؟ ها هو يتحرك فى أحشائى . ضع يدك .

ها هو سيف . . وحيدك . . اليتيم !

وكان كلما ارتفع صوتها ، كلما حاول الوزير إعادة تعجيلها وتبصيرها مشيرا إلى دوى تكبير الجماهير وجنونها بالنصر .

- المهم أحزان قمرية وثورتها دفعت بها إلى إزاحة الوزير العجوز يثرب ، إلى حد إسقاطه أرضا ، فجلس مكانه منتحبا باكيا .

- هكذا .

قارنته قمرية ملتاعة ، وهى تسقط إلى جانبه نادبة ، فما كان منه سوى احتضانها فى أبوة مهدئا مستوضحا :

- ليس هذا أوانه . أنا أكثر منك معرفة بهم . وهذا تصرفك أنت بملابسك ولحية التبع هذه . . هذه . تحسست قمرية وجهها ، كمن أفاقت فجأة من غفوتها ، وما أن حل الصمت ، حتى صمت آذانها الهتافات المدوية العاتية التى ترددت أصدائها فى أرجاء المدينة الواسعة .

- أسمعين يا ابنتي ؟!

- أسمع !

نطقت بتخاذل وهي تسند نفسها محاولة الوقوف ، واضعة وجهها بكامله بين إحييتها :

- أهكذا تمضي بنا الحياة ، حتى أحزاني على أن أقتلها بداخلي .
أردف يثرب :

- حفاظا على الملك . . حبيبك . . ذكراه . . الآن . . الآن فقط ، مجرد ساعات لاغير . . ساعات معدودة اسمعيني . . لاغير .

هنا أسلمت قمرية مقاليدها للوزير يثرب وجلست على فراش الملك آخذة رأسه مهدهة بين ساعديها ، تندب ما بها بلا صوت .

ثم هبت فجأة فخلعت عنها دروعها وتاج الملك ولحيته متخففة ، وتمددت إلى جواره ، تنعیه في إعياء واضح .

بينما اتجه الوزير يثرب منسلا ، إلى الشرفة البحرية ، لمواجهة الجموع والأقوام المطالبة برؤية الملك ، فناشدتهم الهدوء نظرا لمرض الملك التبع ، الذي خلد من فوره للنوم ، نظرا إلى مرضه .

- كما تعلمون جميعكم . فمن أحب ذا اليزن دعى له بالشفاء . . ولزم الهدوء .

ومرت بضعة أيام ثقيلة على قمرية ، ارتدت فيها ثياب الحداد ، ولزمت جثمان التبع لاتفارقة نادبة في همس ، إلى أن تسرب خبر موت التبع ذى اليزن لى أقرب مقريه في تكتم وفق في الإبقاء عليه الوزير ، يثرب ، حتى لا يتسرب الخبر إلى الأعباش وملكهم الطامع .

إلى أن حان موعد دفن الجثمان سرا بمقابر التباعة ، حسب وصية ذى اليزن ذاته الذى ركز فيها على أن تعتلى قمرية العرش مكانه في حكم حير وتوابعها ، لحين تسلم « مافى بطنها مقاليد الحكم » .

ويبدو أن أخبار ماحدث لم تغب هذه المرة عن أذن الوزير المعادى للعرب سقرديون ، فحانت فرصة استرداد مكانته - المهتزة - داخل بلاط (سيف أرعد) الذى وجدها بدوره فرصة سانحة ، للانتقام والتخلص من « قمرية الأذية » ومافى أحشائها ، خاصة وقد أشار عليه كهنته ومقربوه بضرورة قتل التبع المنتظر - سيف - منذ المهدي وقبل أن يستفحل خطره ضد بلاد الأحباش وتوابعها .

وذلك حين أنشده الشعراء والمنتبنون :

ومولود يأتيك يملك أرضهم

ويبقى على جميع البرية حاكما

فى عصره تخرب مدينة أحمرأ

وأسوارها تدمى جميعا وتهدما

وظل الملك أرعد فترة طويلة مرتعدا لا يعرف كيف يتصرف ، فربما كان ما يسمعه مجرد خدعة تالية من جانب تلك - الأذية - قمرية ، للقضاء على ماتبقى من جيشه وملكه ، كما حدث فى السابق .

ومن هنا استقر رأى سيف أرعد ، على أهمية التروى قبل اتخاذ قرار متعجل بالحرب ودون أن تغفل عيناه على رصد مايجرى ويستخدم داخل عاصمة التبع - أحمرأ - عبر عيونه وبصاصيه المنبئين فى كل مكان .

حتى إذا ماأجمعت الأخبار والمعلومات من كل صوب على حقيقة موت التبع ذى اليزن ودفنه ، وانفراد قمرية بوراثنة ملكه المترامى الأطراف لحين وضعها لابنه ووريثه ، غمغم لنفسه :

- هى بعينها النبوءة .

إلا أنه عاد من جديد يندب حظه العائر ، بتبديده لمعظم جيشه وقواته ، خلال تلك المهمة التى اضطلعت بها ، بنجاح فاق كل توقع ، قمرية عن طريق خدعتها الدامية حين تنكرت متخذة هيئته ودروعه وسيفه وحتى لحيته الكهرمانية اللون

وانقضت كمثل نمر على قواته مطاردة ، إلى أن أفتتهم عن آخرهم ، وأشرفت وهي على ظهر الشهباء التي لانتخطها عين ، وهي فرس ذى اليزن على أسوار أثيوبيا ، فخلعت أبوابها بحراهما إلى حد دفعه هو - سيف أرعد - إلى الهرب بقواته الخاصة ، بعدما رسخت في أذهان الجميع أن :

- التبع اليمنى . . لم يمت . . وها هو يتحدى الجميع .

ومن هنا تزايدت مكانة وزيره المقرب « سقرديون » بعدما علم بتفاصيل الخدعة ، إلى حد دفع بالملك إلى الاعتذار له علنا ، بعدما رد إليه الاعتبار وأصبح لا يسمع سواه :

- والآن ماذا ترى ياسقرديون الحكيم ؟

- أرى أن فرصتنا الذهبية قد حان أوان قطافها اليوم قبل غد . تساءل الملك :

- وجيشنا على هذا الوضع من الضعف والتشتت .

- لم لانسرجع كئاثنا من أعالي النيل والنوبة والمغرب الكبير ولو إلى حين ؟

هب الملك أرعد عن عرشه خائفا مفكرا :

- نتخلى إذن عن حكم هذه البقع ، ونستسلم لثوارتها المؤيدة للعرب .

واجه الوزير سقرديون الملك في ثبات :

- هدفنا الآن هو قتل أو اغتيال أو اختطاف قمرية وإجهاض التبع مهما كلف الأمر.

اندفع سقرديون يواصل الطواف حول الملك وهو يصب الكلام في أذنيه ، بعدما استسلم له كفريسة مستكينة هذه المرة :

- قمرية الآن حامل في شهورها الأخيرة ، ومن هنا فهي أضعف مخلوق يمكن صوره ، هي أضعف من فراشة .

أردف سقرديون مازحا :

- تلك الحية .

مضى سقرديون يشرح للملك وكأنه يشرح له معادلة معقدة أشبه بالمعضلة :

- هي حية رقطاء ، استحالت تحت حملها ومافى أحشائها . . إلى فراشة ، وعليها تصيدها . . هكذا .

-كيف ؟

ضحك سقرديون طويلا ، حتى استلقى على قفاه ، من مشهد الملك المحبط المستسلم له :

- أقول كيف ؟ دع الأمرلى .

حتى إذا ماأحبطت قمرية ثلاث مؤامرات متتالية من جانب سيف أرعد ، لاختطافها ، وعلى أسوأ الأحوال إجهاضها ، فى أسبوع واحد فقط ، غمغمت فى سخط وغل دفين من خسة (سيف أرعد) ووزيره سقرديون قائلة لنفسها :

- أنا لست فراشة ضوء هشة كما يدعون .

ومن هنا بدأت وهى تعبر شهر حملها الثامن تحسب لكل خطوة وفعل وقرار ألف حساب ، ليس خوفا على حياتها ، بل ولا على مافى أحشائها . . بل على وصية الملك التبع الراحل الذى أحبته ولم تتمكنها الأيام والليالى ، من أن تسعد إلى جواره .

وبحسب وصية ذى اليزن ، تملك قمرية كل السلطة ، بل وكثيرا ما كانت توقع مكاتباتها ومراسلاتها باسمه وخاتم ملكه ، لحكام وشيوخ قبائل وأمراء وقادة جند البلدان التابعة لحكم حمير أو الخليفة ، فى دلتا مصر ، والسودان وبلاد النوبة وبعلبك وفلسطين وصور ، ومجمل كيانات جزيرة العرب شمالا وجنوبا ، والكثير من البلدان الآسيوية حتى الشرق الأقصى وتخوم الصين .

وكانت فى كل خطواتها تجرى استشاراتها مع وزراء الملك - الراحل - وأخصهم وأقربهم إلى قلبها الوزير الحكيم يثرب .

وأحاطت قمرية قراراتها الكبرى والمصيرية بالكثير من السرية والحرص ، حتى ولو

تطلب الأمر عقد اجتماعاتها داخل مخدع التبع الراحل ، وهى ممددة على فراشها .

ومما دفع بها إلى اللجوء إلى ذلك الأسلوب من السرية والتكتم ، حرصها الشديد على إتمام شهور حملها ، خاصة وأن بعض العناصر الحاقدة بدأت تظهر على المسرح والتي رفضت أن تحكم حمير امرأة .

وقد حاولت الرد على ادعاءاتهم لاجئة إلى محصلتها التاريخية التي اشتهرت عنها ، معيدة إلى الأذهان حكم شهيرات النساء لحمير ، من بلقيس بنت الهداد بن شرحبيل وحكمها المترامي لحمير وتوابعها . وانتهاء بالملكة « تدمر » ابنة التبع حسان بن أسعد ، الذى اغتاله ليلة عرسه الدامى - بالحيلة - كليب بن ربيعة ، وخطيبته الجليلة بنت مرة بقولها :

- وهى حرب البسوس الانتقامية التى نشبت بسبب ذلك الاغتيال ، تدور رحاها على مشارف الشام وفلسطين والبقاع .

بل هى كثيرا ماأشتهرت وصية التبع ذى اليزن ذاته ، التى يوصى فيها بأن تحكم «امراتى الأميرة قمرية حين أن تسلم الحكم مافى أحشائها» .

وكم من مرة أيضا أعادت إلى الأذهان حكم الملكة « سميراميس » لبابل وآشور معا ، أى فى وادى الرافدين . . وآسيا الصغرى بكاملها . وفى بعض الأحيان ، تصل بها ثورتها إلى حد المطالبة بإحلالها من وصية التبع الراحل ، لتصبح فى حل من كل هذا .

كانت تعرف - من طرف خفى - أن تلك الفتن والمكائد والمنغصات التى أصبحت تثار ضدها حتى داخل بلاطها الحاكم نفسه ، مصدرها أثيوبيا وملكها (سيف أرعد) ووزيره (سقرديون) ، لإجهاضها والإيقاع بها عن طريق استخدام مختلف الطرق والمصائد .

وكل ذلك يجرى لها وهى حامل فى أيام معاناتها الأخيرة ، دون رحمة ودون تفهم لإبعاد مايجاك ضد عاصمة التباعة الجديدة - أحمر - من مؤامرات . يستعر أوارها ليل نهار دون هوادة ، أو حتى خجل إزاء مايقع وينكشف أمره تباعا من خداع لقتلها

واغتيالها ، او إجهاض مافى داخل أحشائها بينما هى تحرص عليه حرصها على عينيها ذاتها لكى تسلم الأمانة كاملة غير منقوصة .

وكان الوزير يثرب أحرص الجميع على قمرية وسلامة حملها ، لذا أوصد عليها بنفسه دواوين القصر ، الواحد بعد الآخر ، عن طريق بث عيونه وأخلص جنده وأشجع فرسان حمير وقحطان فى الأماكن الحساسة لرصدها .

إلى أن جاء اليوم الموعود ، فتزايدت آلام قمرية بسبب محاولة المولود الخروج ورؤية النور ، ووضع حد لمعاناتها .

حتى إذا ماحل مساء اليوم التالى ، ومع انبلاج الفجر ، تجدد الطلق الشديد على قمرية ، لدرجة كادت أن تودى بحياتها ذاتها ، وهى محاطة بالوصيفات و« الدايات » من كل جانب فى حين ملأ صراخها جنبات القصر .

إلى أن علا صراخ المولود الذى غطى على صراخها فعلت الزغاريد طاغية من كل جانب إلا أن قمرية أشارت إلى حاجتها الشديدة إلى النوم .

واستسلمت من فورها إلى نوم عميق بعدما وضعت أمانتها .

وحين استيقظت فى ضحى اليوم التالى ، استدارت فى لهفة لترى وليدها للمرة الأولى ، ولكنها لم تجده .

صرخت :

- ابنى وحيدى . . سيف !



21

الحرب الضروس في القرن الأفريقي

اندلعت نيران الحرب الضارية المستعرة بين (سيف أرعد) وأرملة الملك التبع ذى اليزن « قمرية » .

وهى الحرب التى امتدت رحاها على طول أواسط أفريقيا وقرنها الموصل إلى اليمن والجنوب العربى .

كما أنها حرب كانت قد تأجلت طويلا ، نظرا إلى الظروف والملابسات الفاجعة التى مرجعها المرض المفاجئ للتع ذى اليزن ، عشية زواجه من قمرية التى كانت قد انشغلت بدورها بحملها المتعثر بابنه سيف - الذى دفعت به إلى الوجود يتيما بعد حدث موت ذى اليزن الفاجع فى غيبتها وهى تدفع فلول الأحباش الذين شارفت كتائبهم المتربصة المخربة أسوار « أحرا » ذاتها .

وهكذا نجحت قمرية فى إجهاض عدوان سيف أرعد المبيت بعد إشاعته - الكاذبة - لموت ذى اليزن ، متصورا هو ووزيره المتآمر المعادى للعرب « سقرديون » أن الطريق قد أصبح أمامهما مفتوحا لتقويض عاصمة التباعدة بوسط القارة السوداء التى نبتت كمثلى شوك ترمى إلى تعريب أفريقيا مبكرا .

إلا أن سيف أرعد ، لم تغفل عيناه عن مرمائه بتخريب - أحرا - ، والانتقام الأسود المبيت من جاريته - أو مملوكته - قمرية التى خانته قبل أن تحون الملك ذا اليزن ، حينما جاءته مغتالة ، فاستحالت إلى محبة أنهت مهمتها بالاقتران به :

ترنم أرعد في حقد :

- تلك الذئبة . . صحيح لأن أباك « ديب » .

حتى إذا ما استوثق سيف أرعد من مواراة التبع اليمنى - كما كان يدعوه - الثرى ، بذل المستحيل باتجاه إعادة تكوين نواة جيشه ، مشجعا وداعيا قومه إلى الإكثار من النسل والإنجاب ، ومستقدا بعض فلول كتائبه من البلاد التي كان يحدوه حلم أسلافه « أسود يهوذا » بتملكها بدلا من أن تسقط في أيدي العرب - الساميين - بدءا من مصر العليا ، والسودان وبلاد النوبة ، وانتهاء بالمغرب الكبير ، وبخاصة تلمسان التي كانت - شبه - خاضعة لسيطرته وتمدد نفوذه السرطاني .

في تلك الأثناء ، لم تخمد نيران مؤامراته المتكررة هو وزيره الشرير سقرديون ، لاختطاف أو قتل أو اغتيال سيف بن ذى يزن الطفل والرضيع ثم الشبل .

إلى أن تراءى لقومه ، أن الحكمة تقتضى رعايته وتربيته في الخفاء بعيدا عن العيون حتى أمه ذاتها ، منتقلا من موطن وكيان ، و قبيلة ومدينة إلى أخرى ، بمأمن عن أذرع سيف أرعد السرطانية الطويلة المتوغلة في تلك القارة السوداء الغارقة في سباتها . . أفريقيا .

وهي الأيدي التي تمددت كأخطبوط ، وكان على قمريه مواجهتها - إن لم يكن اليوم فغدا - لإعادة استئصالها ، وإلا لضاع كل شيء من ميراث التباعة ، سواء في أفريقيا ، أو في ربوع جزيرة العرب جنوبا وشمالا على السواء .

ومن هنا أهابت بجميع الأقوام التابعة ، ضرورة الصحو وجمع الشمل ونبذ الأحقاد ، مسافرة متقلبة محروضة بنفسها :

فزارت سبأ وحضر موت وصنعاء وعدن وعمان والبحرين ويثرب وإخميم - ومصر - وقرطاج - وتونس - وبلبك - ولبنان - محذرة من سيف أرعد وأطماعه ، جامعة فلول جيش التباعة والمبادرة بالحرب دون غفلة .

حتى إذا ما نشبت الحرب ، أبلت قمريه البلاء الحسن إلى حد الاستبسال الذي

أخرس كل الألسنة الطامعة في النيل منها كامرأة أنثى ، وهى الأقرب إلى أن تكون «أعجمية» ، منها إلى أن تكون عربية رغم اقترانها بالتبع الراحل وخلفها منه .

بالإضافة طبعاً إلى التصورات الغيبية التى ربطت بين دخولها على ملكهم الحكيم الحبيب ذى اليزن ، وبين - قضاء - التعجيل بمنيته ، تحت ثقل مرضه العضال . ومن هنا كان ولابد من مواجهه خطر الأحباش المعادين للعرب جنساً ولغة وحضارة - باعتبارهم ساميين طامعين في جيرانهم ومتآخمينهم الحاميين :

- « ذوى البشرة السوداء . أبناء اللعنة » !

ومن هنا حقق سيف أرعد نجاحاته في جمع شمل أقوامه الأفارقة ، مثيراً ومذرياً مشاكل وقضايا ، عنصرية وعرقية ، تتصل باللون واللغة وركام مخلفات العصور - الأسطورية والخرافية - القديمة المتأججة تحت الجلد منذ الأزل . وساعد ملك الأحباش أرعد ، في هذا وزيره - العنصرى - الحاقد سقرديون ، نظراً إلى ثقافته الهلينية اليونانية الدخيلة على العرب والأفارقة معاً .

كما أن هذا المدخل المستنفر للدعوات (العنصرية واللونية) قد ساعد بالفعل سيف أرعد في تدعيم حشوده ضد العرب والتعريب . وأضاف إلى هذا ادعاءاته لأقوامه وحلفائه أن هدف ذى اليزن واهتمامه بمصادر الماء مصدر الزرع والاختضرار وكل حياة ، من سدود ومجارى الماء و « كيميا » التربة وكيفية تخزين وتصريف المياه . مرجعها رغبته في السيطرة على شريان أفريقيا بأسرها وهو نهر النيل :

ومن هنا كان تستره - أى التبعية الراحل ذى اليزن - وراء بحثه وكتاباته - الخفية السرية عن :

- كتاب النيل .

ودعم سيف أرعد دعوته العدوانية هذه ، مرسياً قوائمها ، مستثيراً حمية الأقوام وقبائل أفريقيا السوداء وتجميعها تحت راياته في أثيوبيا ، مواصلاً حملاته على عاصمة التباعة ذاتها .

واستخدم أرعد في هذا كل وسائل الإسراع المعجل لتقويضها ، بالحرب وقطع

شرايين أنهارها وتخریب سدودها وإضرار النار في منشآتھا وحصونها التي كان قد عانى ذو اليزن في إيجادھا وتأمينھا حتى آخر لحظات عمره القصير . ومن هنا أيضا جاءت معاناة الملكة قمرية في الصمود والدفاع عن حصون العرب التباعة في وجه ملك الأحباش المدجج بكل وسائل القوة والخذاع والتآمر باللجوء إلى وسائل الحرب الخاطفة واختراق كل ثغرة تتيج للأحباش إحداث الخدوش الدامية - بأحمر - والفرار دون مواجهة . مما دفع بقمرية إلى وصف تلك الحرب المخادعة بأنها :

- شبحية :

ورغم ذلك نجحت قمرية في تغيير أساليب حربها بدورها ، وردع أعدائها بقدرة فائقة لم تكن تخلو من خداع - أنثوى - ماهر ، كثيرا مادفع بسيف أرعد إلى الغليان ، إلى حد الهذيان وملزمة الفراش واستدعاء حكماؤه ومطبيهه دون انقطاع ، صارخا في وجوه الجميع ، حتى وزيره سقرديون :

- أنا لست مريضاً . . أنا فقط مسقوم من حية أحمر . . الرقطاء ، التي ربيتها ورعيتها هنا بنفسى في أثيوبيا . . فاستدارت اليوم مغيرة جلدها ، لتلدغنى أنا في المقتل :

يا السموها المستشرية

كانت قمرية تعرف كيف تلدغه في المقتل ، وأينما يوجع ، كلما عَنَّ لَهُ الهجوم الغادر - واقعة بواقعة .

وكثيرا ما كان - ابنها - سيف اليزن ، يضطلع هو بنفسه بإطباق الفك الثانى للكباشة القاتلة على سيف أرعد ، من داخل بلاد الحبشة ذاتها ، وكأنه إنها يستكمل لأمه قمرية - دون أن يعرفها - إحكام وإطباق خططها دون علم منه أو منها ومن دون أية اتصالات جارية بينهما سوى أن كلا منهما ، إنها يسدد سهامه وخططه في جسد - ومقتل - عدو واحد .

فكان كلما أقدم الملك سيف أرعد على استخدام سلاح قطع مياه النيل عن أحمر

وتوابعها ، كلما أجهض - سيف اليزن - من الداخل محاولاته ، سواء بإعادة تلك المياه إلى مجاريها ، أو بإغراق بعض مناطق الحبشة ذاتها .

وهو ما ضاعف من جنون أرعد وتوجسسه أكثر فأكثر ، عقب كل واقعة تحدث :

- يالللخيانة المستشرية . يا للدناءة !

كما أن كليهما - أى سيف وأمه قمرية كانا على دراية ومعرفة أكثر بالنيل ومناابعه ومناطق فيضيه وشحه وانقطاعاته ، نتيجة لاطلاعهما معا على مشاغل وأبحاث الملك التبع الراحل ذى اليزن ، التى استغرقت السنين الطوال منكبا بالأبحاث والقراءات والأسفار الطويلة والمخاطر الهائلة للوقوف على أدق أسرار ذلك الشريان العظيم :

- النيل . . بدءا من منابعه فى الحبشة وأواسط أفريقيا وحتى منتهاه ومصبه على ساحل « فاروس » ومناراتها التى أصبحت الاسكندرية فيما بعد .

كانت قمرية تحفظ للملك الراحل ذى اليزن وصاياه بالحرص على مدونات وكتابات التى سبق أن أفنى فيها عمره وخيرة سنوات شبابه .

وذلك منذ أن تربى ذو اليزن - بدوره يتيماً فى ربوع سبأ ومأرب وسدودهما التى كانت أعجوبة العالم القديم ، وحققت لليمن حضارتها التى أوصلتها إلى ربوع آسيا وما بين الرافدين وحتى مجاهل الشرق البعيد أو الأقصى .

وكان يحلو لقمرية . خاصة عقب الموت المعجل الذى أودى بحياة ذى اليزن ، استخراج كتاباته ورسوماته التخطيطية الملونة على خرائط من جلود الأيائل البرية ، والمنقوشة على العاج ورقائق الذهب ، لتعاود فك طلاسمها وملغزاتها قارئة فى استغراق وتلهف .

كما كان يحلو لها أن تنقل معارفها هذه موصلة بين الأب وابنه الوحيد - سيف - عندما كان لا يزال فى كنفها قبل منفاه .

بل وكثيرا ما اقتادت سيف - الطفل - الى حيث مخازن وكنوز وخزائن الملك التبع التى كانت تخفيها عن العيون فى أعماق أعماق قلاعه السرية ، حيث أودع ومنذ أن داهمه المرض :

- كتاب النيل :

فتروح قمرية تلاعب ابنها - سيف - بقلائده وسواراته الذهبية وأحجار والده القيمة التي جمعها أسلافه وأضاف إليها هو الكثير ، خاصة حجره القاتم الزرقة الذى اشتهر باسمه فى التاريخ « لابس لازلى » وهو حجر ذى اليزن الذى قد يفوق الياقوت والزمرد قيمة .

- إلى أن تجذب قمرية اهتمام ابنها سيف - وقبل أن تدفع به إلى المنفى - إلى كتابات الملك وخرائطه ومدوناته عن الماء والتربة . . ونهر النيل .

وكان سيف الطفل بدوره يبدو سعيدا فرحا متوقدا الذكاء منفتحاً على المعرفة والاستزادة ، بل وكثيرا ما طالب هو أمه الانسلال معا ، وبعد أن ينام كل من فى القصر والمدينة وحتى أقرب المقربين إليهما ، الى حيث يحفظ كتاب النيل .

فكانت قمرية تحرص بالذات على مخطوطات ذى اليزن ، حول النيل ومكوناته وأسواره حرصها على حذقتى عينيها هى ، فلم تطلع أحدا على خزائنها حتى وزيرها الأول « يثرب » حفاظا على وصية الملك بإيصالها إلى ما فى بطنها حسب أمنيته :

- هيكل . . سيف . . ولدى .

حتى إذا ماشب الغلام - سيف - وأصبح قادرا على القراءة ، بدأت قراءتها معه لدونات والده الخطية ، وهى تصب الكلام فى أذنيه صبا ليحفظه ميسرا عن ظهر قلب .

كانت فى كل حالاتها تتحسب لذلك اليوم المرتقب الذى سيتزعج الطفل فيها من بين أحضان صدرها ، ليربى فى الخفاء بعيدا عن بطش سيف أرعد وأذرع الطولى على طول غابات أفريقيا ومنافيا .

وكان كثيرا ما يستبد بها الشوق والحنين إلى رؤية وليدها التى حرمت منه منذ طفولته وصباه ، كآى أم بسيطة :

- سيف . . وحيدى .

وكان يشتد بها ذلك الحنين الطاغى ، خاصة فى أيام الشدة والضيق بسبب عدوان

- ملك الأحباش ، وذلك التحدى الكبير الذى فرضه عليها فرضا ، بسبب الانتقام -
الشخصى - منها :
- حية أحمر الرقطاء :
وفى مثل تلك اللحظات العصبية ، لم تكن قمرية تجد مخرجها سوى بإعادة السؤال
- لوزيرها - يثرب - عن ولدها ومصيره وأخباره المنقطعة عنها منذ سنين :
- سيف - . أمازال حيا يرزق .
- هنا يقارنها يثرب بهدوئه وماعرف عنه من حكمة ويعد نظر قائلا :
- اهدئ أيتها الملكة . . اهدئ فالأمير سيف يحيا فى أحسن حال .
- أين ؟
هنا يستبد الصمت بالوزير الحكيم فلا يقدر على الإفصاح حتى لها هى . . أمه
بمكانه ومخبئه :
- أين ؟ !





22

هروب النيل

كان ملك الأجباش سيف أرعد ، قد وصل به التوجس مما أصبح يحدث له في معاركه المستمرة مع قمرية إلى حد الجنون بعينه ، فما يكاد يشدد ساعده وساعد أبنائه الكثيرين من زيجاته - السياسية - المتعددة داخل مختلف أقطار القارة السوداء ، حتى يصبح على باب قوسين أو أدنى من وضع يده على أصل الداء ، بتقويض - أحمر - وإعادة مليكتها أسيرته .

هنا تداهم الأحداث الخطرة غير المتوقعة ، حتى من داخل حدود بلاده ذاتها الحبشة وتخومها ، التي لا يعرف لها مصدرا .

والغريب أنها أحداث قد تصل بخطورتها إلى حد إغراق عاصمته ذاتها « أثيوبيا » وتكشف لكل ذى عينين وبصيرة عن مدى تفوق أعدائه من داخل الحبشة ذاتها ، وكيفية قدرتهم المتعاضمة على الإلمام والمعرفة بأسرار النيل ودقائق قنواته وشرائبه .

هنا لا يملك سوى الإسراع بالتراجع المشبع بالهلع والهوس ، مما يحصل دون أدنى توقع مما يحدث من خلف ظهره ، فيتزايد تساؤله وصراخه مما يسمع ويتسبب في إشاعة الرعب بين رجاله :

- هكذا . . إن للحرباء أكثر من جلد ولون ووجه وكان يقصد بالحرباء - طبعا - الملكة قمرية وابنها - الغامض - سيف .

وبالطبع لم يخطيء سيف أرعد في ذلك كثيرا ، ذلك أنه كان لسيف بن ذى يزن أكثر من وجه وجلد ولون . إذ كان يملك قدرات متعددة ، منها قدرته على تغيير مواقعه داخل حدود الحبشة ذاتها وما يجاورها من بلدان وأقوام بأسرع من هبوب رياح الخماسين الشيطانية .

كما أنه كان متملكا لقدرات إخفاء نفسه وتغيير لونه ، والتخفى تحت مختلف الأشكال والهيئات والسحن والوجوه ، مضافا إلى هذا قدرته على النطق باللهاجات المختلفة ، بل وتغيير إيقاعه بكامله متحركا مواصلا طوافه داخل مختلف الأقوام والقبائل الأفريقية ، مبشرا بالأمن والعدل ، أينما حل ، هو وأتباعه الكثيرون الخارجون على سلطان سيف أرعد وبطشه وظلمه .

فزار مصر العليا والسودان مرارا ، وزار الشمال الأفريقى ، وزار موطنه ذاته في اليمن وجزيرة العرب ، مواصلا تجميعه لقواته ومؤنه وقلاعه ومصادر قوته التى تمكنه من إحباط كل محاولات ملك الأحباش المتوعد بتقويض عاصمة التباعة العرب داخل أفريقية .

ومن هنا لم تسه عينه الساهرة لحظة واحدة عن - أحمر - وما أصبحت تعانيه ملكتها من جهد مضن خارق للصمود في وجه سيف أرعد ، وأطماعه الداعية إلى تقويض وإحراق وإغراق تلك العاصمة العربية ، مهما كلف الثمن .

حتى إذا ما وضع ملك الأحباش خططه وزحفه بمساعدة وزيره سقرديون للوصول إلى أسوار أحمر وتطويقها التف هو - وجيشه - من جانبه بتطويق عاصمة الأحباش أثيوبيا ، لتصبح مجرد فريسة تعاني آخر أنفاسها عند قدميه .

هنا يمضى الملك أرعد يمزق جلد وجهه ألما مما يحدث ويسمع وينشر الفزع بين قادته وأبنائه وجنوده ، ولا يملك سوى التقهقر المزرى عائدا ، لإنقاذ مايمكن إنقاذه من غرق وحرائق ، متوعدا بالإمساك بأعدائه من الداخل دون طائل :

- التبع الجديد وأعوانه . . ولا أحد غيرهم .

وكان أقرب أولئك الأعوان بالطبع « ملك مدينة أفرح » الذى تربى فيها - سيف - وأمضى طفولته ومطلع صباه .

وكان وزير الملك المقرب « سقرديون » يضرم في كل مناسبة . . وعقب كل واقعة نيران حقد أرعد أكثر فأكثر على ملك أفراح وابنته العاشقة للتبع « شامة » إلى حد رفضها الزواج بيانا جهارا من ابن الملك سيف أرعد الأكبر ، الذى يحبها بدوره إلى حد الجنون .

وهنا توافق قرار الملك سيف أرعد مع وزيره سقرديون ، فى أهمية التانى فى تخريب عاصمة التباعة - أحمر - وأسر ملكتها قمرية ، إلى حين الانتهاء من تطهير بلاد الحبشة ذاتها من - الجيوب - المقوضة والمتآمرة ، والتى تحسن الطعن فى الظهور إلى حد القتل .

- خونة .

وأولهم هنا ملك أفراح وابنته التى قد تقودهما إلى موطن « التبغ الخفى » :

- سيف .

هنا سأل الملك ممروا وزيره سقرديون وهو ينهض ليواجه أمواج النيل المتلاطمة أمامه :

- وما العمل . . أنعاود من جديد قطع الماء عن أفراح . ؟

أجابه سقرديون فى حزم :

- ليعيده من جديد التبغ ويتزايد حب الناس فى تلك البلاد لمنقذهم من العطش والجفاف . . وبالتالي ستتزايد شعبيته أكثر فأكثر .

واجهه الملك منفعلا :

- إذن . . ماذا ترى ياسقرديون ؟

- أرى اقتطاع شامة ذاتها .

- كيف ؟

- اختطافها لمعرفة أسراره ومكمنه بكل الوسائل .

وكانت شامة ابنة ملك أفراح قد قللت في الأيام الأخيرة من اتصالاتها بسيف بن ذى
يزن ، كما اعتادت في السابق ، وذلك استجابة لطلب وخاوف أبيها الذى تضاعفت
عليه مؤامرات سقرديون وملك الأحباش ، خاصة عقب رفضها الزواج من ابن (سيف
أرعد) ووريثه .

ووصل بها الغضب إلى حد إعلانها الانضمام إلى سيف ورجاله عيانا جهارا . إذ لم
يكف والدها عن مطالبتها بالرضوخ والزواج الأقرب إلى الأسر من ابن ملك الأحباش .
عما قد يدفع بها أيضا إلى حرق نفسها :

- فسياط النيران ستكون أكثر رحمة على بدنى وروحي من ذلك الزوج المدلل
. . الفاجر .

وإزاء هذا التهديد الذى يعرفه الأب عن ابنته - شامة - كما يعرف قدرتها على
تنفيذه ، لم يملك سوى التراجع ، وإبلاغ سقرديون برفضها .

ولما كانت شامة مدركة لأبعاد ومخاطر رفضها لمثل هذا الزواج ، ومدى ماسيجليه
تعتها هذا من أحداث انتقامية بشعة ستحط بكاملها على كاهل والدها المثل . بل
المدينة جميعها عن بكرة أبيها ، فقد حطت عليها الأحزان الثقيلة السوداء ، وهى التى
تنتظر دون طائل أو حتى بصيص أمل الزواج يوما بمن يهفو إليه قلبها ، منذ أن تفتحت
عينها عليه :

- سيف اليزن

إلا أن عين سيف بن ذى يزن ، لم تغفل يوما عن إحاطة شامة بكل حماية ورعاية .
فلم تنقطع عنها رسله ورسائله إليها ، يخبرها بمكامنه وخبايته المتغيرة الجديدة أولا
بأول ، وبحنينه الجارف إليها :

« فمن أجل عينيك يا شامة ، أحارب الشر » .

مجددا على الدوام عهده لها بالزواج منها قائلا :

- « عقب خلاصنا من أرعد وعدوانه معا » .

وكانت شامة في وحدتها الجديدة التى فرضتها على نفسها ، تحلم طويلا باليوم الذى يحقق فيه حبسها - سيف - انتصاره على ذلك الكابوس الشرير الظالم سيف أرعد ، لكي يصبح حبسها مكان في هذا العالم الواسع :

« فكيف لأزهار الحب ووروده أن تنبت وتينع في مستنقع سيف أرعد وإذلاله وظلمه »

تساءلت ممددة على فراشها تعاني آلامها وحسرتها عما يحدث ويجرى :

- حقا . . كيف لأى نبت أن يزهر مع ناشر الجوع والعطش ذاك . إلا أن « شامة » سرعان ماكانت تعاود تفاؤلها واستبشارها ، كلما وصلتها أخبار الانتصارات المتواترة التى أصبح يحرزها سيف بن ذى يزن ضد سيف أرعد ووزيره العجوز المتآمر سقرديون .

وكانت تشارك جماهير مدينتها السرية من أرعد ورعونته وجنونه الذى يصل به إلى حد ضرب وزيره « بالنعال » ، كلما تفوق عليه سيف ورجاله من داخل حدود الحبشة ذاتها ، وهو ما أحاله إلى معجزة ومنارة أمل أصبح ينشدها الجميع في كل مكان وموطن .

فكانت شامة ترأسله ناقلة إليه مدى حب واستبشار الناس - بسيف وأتباعه - رافعة من معنوياته مشددة من ساعده الضارب ، متشوقة لرؤياه .

هنا كان يبعث إليها سيف ، بكتيبة من رجاله ، تنقلها إليه إلى أقرب مخابئه من مدينة أفراس ، ليلتقى بها مسرعا ، فيمضيان معا ، لحظات خاطفة تعود هى بعدها منشدة لنفسها :

« يامظنى الشوق انا قلبى صبح عن الدم أدى سنه حول ، وانا الى عيشتى على الدم ، جانى طبيى وسمعى الكلام ع الدم وإن أذن الله ، طابت منى أنا الجروح حا البس ثياب الهنا تشع منه الروح ، وإن جا عزولى أقوللو : من هنا قوم روح فتحت لجروح وكانت كاتمة ع الدم » .

وتنشد لنفسها :

حببت جميل زين وسبونى العوازل فيه وكثروا من الفتن لجل أتركه وأنفيه .

وكيف أنا أتركه وأنفيه وأنا عقلى وروحي فيه . شيع حبيبي وقاللى :
انا عبدك وسيد غيرك .

عينك على الكرم إذا خطرنا العوازل فيه
وتغنى وكما لو كانت فى لوعتها تبعد عنها حسادها والعزول
يجازيك (يالايم) عليه فى الغرام يجازيك
إياك تلومنى فيه

دا الحب له نار والعه
فى المهجة وشاعلة فيه
يا زارع السنط هيا ودادى فيه
دا السنط كله منافع
أما الأردن نرمله
والمركب الى انخرق
إياك تعدى فيه .

إلا أن عين سقرديون المشعة بالشر دوما لم تغفل عن تدبير الانتقام الدامى من ملك
أفراح وابنته شامة ، التى سبق أن تجاسرت على رفض ابن الملك أرعد ووريثه فى اعتلاء
عرش « ليوث يهوذا » .

فتوعد ابن الملك بتحقيق آماله من شامة ، فقط حين يحين موعد أعياد :
« وفاء النيل » .

حتى إذا ما حان أوان موسم العيد ، أوعز لمساعديه وكهنته بإيقاع « قرعتهم » لهذا
العام على أميرة أفراح « شامة » مردفا :

- وهى رغبة الملك سيف أرعد ، كما تعلمون ، قبل أن تكون رغبتي .

حتى إذا ما وقع الاختيار على « شامة » ، واستعدت مدن الحبشة وأفراح وتوابعها
لذلك الاحتفال - الشعائري - الذي كان يجري حدوثه في وقت واحد من كل عام ، في
كل موقع وكيان يواصل نهر النيل عبرهما جريانه كالحبشة وأوغندا والسودان وبلاد النوبة
ومصر .

وتجمعت الجماهير من كل صوب احتفالا بعيد ذلك العام ، متجهة مشرّبة صاعدة
إلى تلك القلعة المهجورة فوق أعلى جبال المدينة التي ازدانت بالزينات والأعلام وفرق
الموسيقى والطرب والألعاب الشعبية ونحر الذبائح .

ووصلت مع الغروب كوكبة من فرسان الملك سيف أرعد مدججة بالسلاح ، يعقبها
وفد الكهنة والمنجمين إلى قصر ملك أفراح ، وهم يسوقون إليه - بشارتهم - بوقوع
اختيار « القرعة » ثلاث مرات متتالية على أميرة البلاد الجميلة :
- صاحبة الصون . . أفراح .

هنا سقط الوالد من طوله مغشيا عليه ، بينما سعدت كتيبة الجند لاثلوى على
شيء ، إلى حيث جناح « شامة » فأحاطوا بها من كل جانب وهي تقاوم وتبصق في
وجوههم :

- ابعدوا يا قتلة . . يا لصوص الظلام والخرافة .

وعم الصمت جماهير المدينة عن آخرهم وهم يشهدون مشدوهين كيفية أسر
أميرتهم ، وهم يصعدون بها الجبل الشاهق المشرف على النهر ، إلى أن اختفوا بها وهي
صارخة مقاومة :

- قتله . . لصوص . . عصابات .

حتى إذا ما ألقوا بها مقيدة عند قدمي ابن ملك الحبشة سيف أرعد العاشق لها
والذي سبق لها رقصه ، خلع من فوره قناعه - هائل الحجم - عن وجهه ضاحكا من
أعماقه مقهقهها :

- شامة . . حبي !

هنا هوت ذراع ضاربة على أعلى عنقه ، ففصلت رأسه عن ذلك الجسد « الخرافي »
المتهتك .

23

سيف أرعد يصرخ : ولدى جثة بلا رأس

لم تكن اليد التى هوت فجأة على عنق - مقلقل - ابن ملك الاحباش سيف أرعد بحسامها ، لحظة احتضانه « لعروس النيل » - شامة - التى وقع عليها الاختيار سوى يد سيف بن ذى يزن الضاربة :

- شامة .. هس .

استدارت شامة فى أقصى فزعها مماحدث فجأة وبشكل خاطف ، فى اللحظة ذاتها التى رفع فيها سيف قناعه عن وجهه ملقيا به ، ثم جذبها إليه ، وانسلا خارجين عبر ردهات ومسالك وأطلال تلك القلعة المهجورة الخلفية مسرعين لايلىوان على شىء .

بينما دوت أصوات الغناء والموسيقى والاحتفالات الماجنة - السنوية أو الموسمية - بعروس النيل عالية صاخبة من حولها تصم الأذان .

نزعت - العروس - شامة غطاء رأسها الحريرى الملون على شكل تاج هائل الحجم أعاقها عن الحركة والجري بأقصى سرعة ، مسلمة ذراعها لسيف ، وهما يقفزان ويدوران حول السرايب المظلمة باحثين عن منفذ للإفلات عبره .

إلى أن اعترضتهما فجأة شلة من حرس ابن ملك الأحباش - مقلقل - وعندما أحاطت بهما كتيبة الجند من كل جانب ، دون دراية أو إدراك منهم لما حدث ، أعمل - سيف اليزن - حسامه فى رقابهم الواحد بعد الآخر ، ملقيا ببعضهم من فوق أسوار القلعة - الخربة .

حتى اذا ما انتهى سيف بن ذى يزن منهم وكانوا قرابة سبعة جنود ، مدججين بالسيف والحراب ، أعاد من جديد اجتذاب حبيته - شامة - من يدها مواصلين عدوها ، باتجاه السرايب الخلفية للقلعة التى كان - سيف - قد درس مسالكها المتعددة ، بهدف تضليل كتيبة الجند الرابضة فوق أبراج الحصن الواقعة فى أعلى أسوارها .

إلا أنه توقف مستديرا مسرعا حيث اعترضته كتيبة أخرى من الجند محيطة بها هذه المرة من كل جانب مشددة حصارها ، قواصل قتاله لهم الواحد بعد الآخر ، إلى أن تمكن بحسامه من ثلاثة منهم ، وفر الباقون عدوا عبر البرارى والهول .

وسرعان ما اختطفت شامة بدورها خنجر سيف من غمده ، وكلما قاربها أحدهم محاولا إعادة اختطافها ، أردته بخنجرها صريعا .

وما أن نزلا عدوا الدرجات الحجرية للقلعة ، حتى توقف سيف من فوره مستخرجا رقعة صغيرة من الجلد متأملا فى لهفة ، بينما شامة تمسح عنه عرقه وجبينه بأناملها الحانية وهى تشرئب ببصرها إليه دون صوت ، حتى أعاد جذبا من معصمها :

- من هنا . . يمينا يمينا . . هيا أسرعى .

وما أن انسلا خارجين من سرداب القلعة الموصول إلى أسوارها الجنوبية حتى تنفس سيف اليزن بعمق وهو يواصل عدوه إلى حيث تقف كوكبة من جنده وحراسه بعيدا بانتظارهما وسريعا ما ألقوا إليهما بحبل ساعدهما على تسلق أسوار القلعة الجنوبية فى نفس اللحظة ذاتها التى وصل إلى أسماعهما جلبة صادرة عن مجموعة أخرى من حراس ابن ملك الاحباش - القتيل - وبأيديهم المشاعل الضخمة والسيف اللامعة المشهورة ، وهم يحاولون اللحاق بهما دائرين من فوق أسطح القلعة للإمساك بهما :

- هاهم . . يمينا . . يمينا .

لحظتها كان سيف اليزن قد أنزل شامة التى ألقت بنفسها بين أحضانها ، وامتنى الجميع ظهور خيولهم ، وغابوا عدوا وسط أشجار الغابات الكثيفة العملاقة ، إلى أن شارقوا مرقاً « جانبا » على النيل ، قادهما الحراس إليه ، فنزل سيف اليزن عن حصانه ،

متجها إلى شامة فحملها بين ذراعيه ، إلى أن دلفا إلى مركب صغير مختبئ بين الأحرش
بينما واصل حرسه الركض باتجاه حرس ابن ملك الأحباش لإعاقتهم عن اللحاق بهما .

ودارت معركة حامية بين الجانبين حيث التحم وسط الغابات والأحرش ، أعطت
المزيد من الوقت الكافي لتحرك مركبتهما - سيف وشامة - وسط مياه النيل الفضفية إلى
أن اختفيا في الأفق البعيد :

- أخيرا . . عبرنا النيل العظيم ياشامة .

امتطيا ظهري جوادين عربيين كانا بانتظارهما بصحبة مجموعة أخرى من الحرس ،
وتسلقا بضع تلال باتجاه إحدى القرى ، وسيف اليزن ما يزال يداعبها بقوله

- اتقبليني خطييا بدلا منه ؟

تساءلت بصوت عال :

- من ؟

- النيل !

ضحكا طويلا وهما يواصلان عدوهما في مرج أبدل من تعبهما وما بذلاه من جهد
خارق للإفلات من تلك المكيدة التي كادت أن تودي بحياة شامة هذه الليلة .

- عروس النيل . . أم عروس ذلك « الفحل » الأبله - مقلقل - ابن أرعد .

قالت :

- النيل . . أرحم !

وضاحكما سيف وهما يتوقفان في الخلاء الفسيح المحيط بهما لحظة كافية « لتغيير
ريقهما » بتناول التمر واللبن قائلا :

- هل يمكن تصور ماحدث ياشامة .

واصل :

- أن نتجح معا في تخلص ربوع هذه البلاد من وريث سيف أرعد .

ألقت برأسها بين أحضانها مسبلة عينيها كمن تحلم طويلا :

- متى نخلص من أرعد ذاته . . متى ؟

واستبدت بها المخاوف من ذلك المصير المظلم الذى سيتتظر والدها الشيخ من انتقامات ملك الأحباش لمصرع ولده ووريثه . . مقلقل . . ذلك « الفحل » المتهتك .

وطمأنها سيف بن ذى يزن قائلا بأنه قد وضع لكل شىء حسابه والمهم الآن هو أمنهما معا من ذلك الجنون الذى سيستبد بالأحباش وملكهم ، على طول أفريقيا مشرقا ومغربا :

- المهم هو مواصلة الطريق ، حتى المرفأ الآمن . المهم هو اليقظة . . هيا .

- واصلا عدوهما من جديد ، باتجاه مدينة ضخمة غاصة بالأضواء والفرح ، تسد الأفق البعيد ، إلى أن وصلها مع الغسق ، فدوت الأبواق معلنة قدومهما وانفتحت البوابات. على اتساعها واحتوتها وفي أعقابها جوقة الحرس داخلية . حتى إذا ما أصبح سيف بن ذى يزن وسط أفسح ساحاتها . شهر من فوره رأس ابن سيف أرعد :

- رأس مقلقل .

هنا دوت المدينة بالفرح والتكبير والدعاء والتهنئات للملك التبع المنتصر من كل جانب :

- سيف اليزن . . سيف اليزن !

أما ملك الحبشة سيف أرعد ، فقد غابت الدنيا على اتساعها أمام عينيها ، حين حملت إليه الاخبار مصرع ابنه ووريثه داخل تلك القلعة الحصينة التى جرى فيها احتفال هذا العام ، بعروس النيل :

- بأيدي خارج أثيم . . مجهول .

صرخ سيف أرعد من أعماقه ، وهو يدق عمدان قصره :

- مجهول . . أتقولون مجهول؟؟

اتجه من فوره كالمخبول ممسكا بخناق وزيره المرتعد ، كمن يحاول إزهاق روحه عن
.. مده :

- وأنت أيضا ياسقرديون اللعين . . أتقول مجهول ؟

أردف سقرديون شاحب الوجه :

- بل معلوم . . معلوم . . لا أحد سواه !

ألقى به الملك على أريكة جانبية في أقصى حالات هياجه ، وهو يدق كفا بكف
قائلا :

- أجل معلوم . إنه التبع الجديد سيف بن ذى يزن . . ياسقرديون . . وليس غيره .
استدار من جديد إلى وزيره المأخوذ المرتعد :

- تلك مشورتك الجديدة . إذن فلم يعد سوى . لتراهن عليه . . أليس كذلك ؟
جرى كالمجنون صاعدا درجات سلام عرشه المصاغ من الذهب الخالص صارخا
وهو يتأمله مبهورا :

- ليتتهى كل شيء . ليقضى العرب اليمانية على كل شيء . . حتى عرش يهوذا
هذا . . هذا .

انحط جالسا في حسرة على كرسى عرشه مطوقا رأسه بذراعيه :

- أليس كذلك ياسقرديون . . يا صاحب المشورة ؟

حتى إذا ماتدافعت مجموعة من الحراس مرتدين ثياب الحداد ، محاطين بجوقات
النساء والنادبات ، وهم يحملون الجثمان المسجى لولده مقلقل ، هب أرعد عن عرشه
مذعورا باكيا :

- ولدى . . ورثى . . لحمى وما أن تقدم بخطا بطيئة من التابوت الذهبي المطعم
المحلي بالرسوم ، كاشفا غطاءه ، حتى جرى مذعورا من هول مارأى :

- ولدى .. جثة بلا رأس !

اندفع صاخبا هائجا عبر ساحات قصره وهو يصرخ بالثأر والانتقام والدمار

- رأس ابني .. جثة بلا رأس ، ابن سيف أرعد .. هكذا على هذا النحو جثة بلا
أس .. منين نعرف لها أساس .

أهاب باكيا بقومه وقبائله وأمرائه وأبنائه الكثيرين ناديا محرضا :

- تعالوا .. تعالوا اشهدوا جميعا ابني مقلقل جثة نزعنت عنها رأسها .

تدافعت الوفود والأقوام وشيوخ القبائل والأمراء ومن خلفهم جوقات النساء
النادبات النائحات في السواد ، وقد لطخن وجوههن بالنيلة الزرقاء « يصرخون
ويتوعدون »

- جثة بلا رأس : منين نعرف لها « أساس »

والملك يصرخ ويرعد ويمزق ثيابه ويتتزع شعيرات ذقنه في جنون :

- ابني وريثي .. أسد يهوذا .. تعالوا قربوا .. اشهدوا .

وخلال كل ذلك الجو الملبد بالحزن وبكائيات النادبات وعويل النساء ، انسل
لوزير سقرديون متخاذلا متزويا عن العيون المتطلعة المشيرة إليه بكل اتهام ، فهو وحده
صاحب ومدبر المكيدة الأخيرة ، نكاية بملك «أفراح» وابنته - شامة - التي رفضت
الزواج من الإبن القليل ، بما يشير ويعنى وقوفها في صف العرب الطامعين الغزاة ، ولو
لم يجهرنا علنا بوقفهما ذاك .

بل إن انزواء سقرديون ومحاولة اختفائه من هول مشهد ما يحدث ، تضاعف أكثر
حيرة ، ووقعت عيناه بين الجموع ، على وزير - الميسرة - الحجازي « أبو الريف » الذي
تقدم في ثيابه فافسح له الجميع طريقه إلى حيث التابوت الملكي المغطى برقائق
الذهب ، فأعاد غلق غطاءه ، مانعا في هدوء الوفود المتدافعة كالهدير من حول
التابوت :

- لتهدأ روح الميت في مثواه الأخير .

صرخ الملك سيف أرعد :

- لن تهدأ . . إلا بالثار .

وعلى الفور تعالت دقات طبول الحرب العاتية من داخل القصر وخارجه ، مترددة من كيان إلى آخر ، ومن مدينة إلى ما يجاورها ، بإيقاع رتيب ، تهيب بالكتائب ووحدات الجنود والمحاربين التجمع والتأهب للحرب .

وانسل سقرديون منسحباً إلى حيث الساحة الخارجية للقصر مصدراً تعليماته لقادة الوحدات والكتائب في محاولة للتغلب على ذلك الإحباط الذى لم يخل من إحساس دفين بالذنب مما حدث ، وهو يوحى للجميع بأن الخطر كل الخطر من العرب - اليبانية - وعاصمتهم :

- الموت والدمار لأحمر .

وسريعا ما دوت الهتافات من كل جانب ، مطالبة بالتوجه - الآن وليس غدا - لمدينة التبغ ذى اليزن ، والمطالبة برأس ابنه : سيف اليزن . . ولا أحد غيره .

وهكذا وجدها سقرديون فرصته سانحة لإلهاب المشاعر ، وتجميع كل الجهود للتخلص من النفوذ العربى ، بحسب خطته السابقة التى لم يولها الملك سيف أرعد اعتباراً وهى تدمير أحمرأ أولاً وقبل كل شئ ولو استدعى الأمر التخلّى عن حاميات الحبشة فى الشمال الأفريقى . . فى تلمسان وصعيد مصر والسودان وبلاد النوبة الآن :

- وقبل إطفاء النيران المتوقدة بدفن الجثمان .

وهنا عارضه الوزير - الحكيم - أبو الريف فى إعطاء الأولوية لدفن جثمان ابن الملك ، وعدم التسرع قبل أخذ المشورة ، بدلا من الانفراد بالرأى الواحد الذى وكما تأكد للجميع :

- هو السبب الأول والأخير في تلك الكوارث التي أصبحت تحل بالبلاد .
- وكان الوزير أبو الريف ، يقصد من وراء ذلك كسر جماع الرغبات المستعرة بالشر من جانب زميله سقرديون .
- ولما كان سقرديون ، أضعف حالا هذه الجولة من فرض تصوره - السياسى - بالحرب ، فقد آثر مهادنة الوزير أبو الريف مشيرا :
 - لكم ماترونه .
- حتى إذا ما انتهت الحبشة من دفن جثمان - ولى العهد - وهدأت طبول الحرب والعدوان إلى حين . أعاد سقرديون إذكاء لهيبها في أذنى سيف أرعد :
 - الحرب والدمار للعرب المعتدين .
- وعلى الفور انتظمت صفوف جيش الأحباش للانتقام والعدوان ، آخذة طريقها إلى حيث أسوار المدينة العربية - أحرا - وملكتها « قمرية » وابنها سيف بن ذى يزن :
 - التبع الغازى . . الجديد .



24

مكة التباعة

ما إن حقق سيف ين ذى يزن انتصاره بقتله لمقلقل بن سيف أرعد ملك الأحباش ، وإنقاذه لحبيته رفيقة طفولته وصباه « شامة » من بين برائته ، حتى عبر النيل باتجاه القرن الأفريقى ، مواصلا هروبه بها من جنود وحلفاء وعيون سيف أرعد .

وهو الذى جن جنونه مما حدث وانتهى بقطع رأس ابنه ووريثه فى حكم أفريقية . على ذلك النحو السافر من الغدر .

ثم هى الرأس التى شهرها سيف اليزن من فوره حين حط رحاله وشامة وسط الأقوام والقبائل الموالية للعرب والتباعة ، فأثارت الحمية بين الجميع ، من الذين عانوا الأمرين من عدوان وتجبر الأحباش وملكهم ، وبخاصة منذ أن وافت المنية - والد - الملك التباع ذى اليزن .

وهكذا تدفق من جديد الحماس للعرب فى أفريقيا وبخاصة غربها وشمالها المتناخم للجنوب العربى ، فتواترت أخبار ما حدث من كيان إلى آخر ، إلى أن وصلت ربوع اليمن ذاته ، بل جزيرة العرب بأسرها .

إلا أن إجماع المشورة بين الأقوام العربية وحليفاتها استقر على ضرورة وأهمية إسراع سيف اليزن بالزحف وخطيته وكتائبه القليلة العدد ، باتجاه اليمن والجنوب العربى ، هربا من عيون سيف أرعد وبطشه وأذرعه الطويلة التى لن تهدأ أو تهدأ فى حدث ، وبعد أن وصله جثمان ابنه المسجى . . بلا رأس :

- جثة بلا رأس .

- منين نعرف لها أساس .

لذا أثر سيف بن ذى يزن ، الامثال لإجماع المشورة العربية ، مواصلا زحفه السرى من نجبا إلى آخر ، إلى أن حط رحاله وبرفته خطيته شامة ابنه ملك أفرح في ربوع اليمن حيث دفء الأهل والعشائر .

مهد التباعة

وجرى استقباله بين قبائله وعشائره مجللا بالنصر والظفر اللذين حققهما عبر جهاده الطويل ، لتثبيت حكم التباعة في مجاهل القارة السوداء ، وهو الذى ولد وتربى يتيمًا عبر المنافي والمخابيء تحسبا من ذلك العدوان المبيت ضده من جانب الأحباش وملكهم سيف أردد ، الذى كان قد اختطفه بالفعل عن طريق الدايات - أو القابلات منذ اللحظة التى فارق فيها رحم أمه - قمرية .

وما هو سيف بن ذى يزن الآن وبطولاته التى أصبحت مضرب الأمثال ، تلهج بها الشفاه والجباه المتعطشة للنصر العربى ، الذى كان قد شحب وهجه بموت والده ذى اليزن الذى أودى به المرض العضال قبل الأوان ، وقبل أن تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد .

هيكل .. سيف

حتى إذا ما دخل قصر أبيه ذى اليزن وجده - عمرو بن مزيقيا - الذبيح بيد أخيه التبع حسان ، تدفقت مشاعره والتهبت من جديد بمواصلة الكفاح . وعلى الفور سرى وانتشر نبأ وصول ابن ذى يزن . المجلل بالنصر الذى اقتنصه اقتناصا ولو عن طريق الخداع فى مواجهة الحبشة وأطباعها فى عرش التباعة وأحلافهم ، سواء فى أفريقيا ، أو فيما بين الرافدين ، أو فى غرب آسيا .

وتدفقت وفود القبائل من أمراء وشيوخ قبائل من حمير وقحطان ، من كل صوب وقوم وكيان ، إلى سبأ للتهنئة بالنصر :

- سيف بن ذى يزن .. يالها من معجزة .. يالها من صحوة انتظرها الجميع طويلا .. طويلا .

وعلى هذا النحو وصل سيف بن ذى يزن ووطأت قدماه أرض أجداده محملاً برأس وريث « عرش يهوذا » ابن ملك الأحباش .

وسرى الحماس متدفقا بين الجميع إلى حد المطالبة بتنصيبه تبعا على عرش أجداده .
إلا أن سيف بن ذى يزن رفض المثل لهذا المطلب المتعجل ، إلى أن يحين أوانه ،
معطياً الأولوية لتجميع فلول جيش حمير معلياً من ذراعتها الضارب ، في مواجهة
العدوان والبطش الحبشى المتزايد ضد عاصمة التباعة في أفريقيا - أحمراسوهو العدوان
الذى لا بد وأن يصل الجميع هنا في اليمن وتوابعها .
إن لم يكن اليوم . . فغدا .

وهكذا استطاع - سيف - إعطاء الأولوية للتجمع والاستعداد للقتال منذ لحظة أن
وطأت أقدامه عاصمة التباعة ، دون تردد أو إبطاء :

- فسيف أرعد . . يطرق الآن كل الأبواب ، ولن يهدأ له جفن إلى أن يحيط برحاله على
حصون التباعة ليدكها دكا .

ودعم سيف اليزن دعواه ، مشهرا من فوره محصلة الأخبار والمعلومات التى وصلته
حول ضخامة ذلك الجيش المدجج الجرار الذى استدعى الملك أرعد فيالقه وكتائبه من
السودان ومصر العليا وتلمسان وبلاد النوبة ، وحشده في أثيوبيا تمهيدا للمسير
والعدوان مواصلا تساؤلاته .

- لمن ؟ . . لصدورنا هنا . . في أحمر العربية ، ولا أحد غيرنا .

وهكذا نجح سيف باستخدام مهارته الخطابية والسياسية في إلهاب المشاعر العربية
وتجميع طاقاتها التى كانت قد تبددت طويلا .

وهو ما دفع بشامة إلى أقصى حالات اندهاشها وانبهارها معا . من سرعة وصول
الإمدادات والفيالق العربية ، من الشباب المتطوعين ، بخيولهم وسيوفهم المشهورة ، وتدفق
ذلك الحماس العربى من كل صوب وكيان ، حول سيف بن ذى يزن ، إلى درجة دفعت

بشامة ، إلى تناسى هواجسها ومخاوفها من ذلك الخطر المحقق الذى لن يفلت منه والدها - ملك أفراح - وقومها . وذلك من جراء قيام حبيبها سيف بقتل ابن أرعد ليلة اختطافها من قبله لإجراء طقوس سفك دمائها دون أدنى شعور بالذنب أو الحياء .

ومن هنا جاءت استجابتها لدعوى سيف اليزن بأن الحل والخلاص لن يتحقق إلا بالجهاد للقضاء على أصل الداء ، وقبل استشرائه فى أفريقيا وما يتأخها من أقوام .

ومن هنا توارت أحزانها ومخاوفها ، وهى تشهد بعينها تشكيل نواة ذلك الجيش العربى ، الذى تعالت قرعة سلاحه وتدريباته اليومية على طول عاصمة التباعة وبقية المدن والمعالء العربية ، التى تنقلت فيها وزارتها شامة بصحبة - التبع المنتظر - سيف بن ذى يزن .

فزارت برفقته ، حضرموت ، وصعدة ، وذى رعين ، وعدن ، وإرم - ذات العمار - وصنعاء ، والبحرين ، وصرواح ، ومأرب ، ومدائن صالح ويثرب واليمامة محروسة إلى جانبه على ضرورة التأهب والصحو للقتال الذى حان أو اندلاعه إن لم يكن قد تأخر كثيرا على حد تعبيرها .

إلى أن تحقق حدسها الذى كانت قد تناسته فى غمرة تجميع الجهود والطاقات العربية .

وذلك حين وصلتها الأخبار يوما بما حل بوالدها - ملك أفراح - الذى بدأ سيف أرعد انتقامه منه باقتحام عاصمة بلاده ومحاصرة قصره مطالبا بتسليمها هى - شامة - حية أو ميتة .

إلى أن تحقق من فرارها مع قاتل ابنه ووريثه ولم يشف غليله إلا بسياق والدها أسيرا عارى القدمين مقيدا عبر شوارع وميادين أثيوبيا ، على مشهد من الجميع ، وصلبه على بواباتها :

- ذلك الأرعن شراب الدم !

صرخت شامة من أعماقها ، ودون أن تذرف دمعة واحدة على عادة النساء ، في مواجهة سيف اليزن ، الذى تضاعف حبه وإكباره لها ، وهو يضمها إلى صدره ، عاقدا من فوره قرانه عليها في اجتئع بسيط هادىء ودون عرس أو صخب قائلا :

- في القريب العاجل سيحل عرسنا الحقيقى يا شامة . . يا حبيبتى .

وكان يقصد بهذا . . يوم انتصاره على ملك الأحباش سيف أرعد :

- حين يحين اليوم المنشود !

ولم تترك الأخبار الدامية لسيف بن ذى يزن وعروسه شامة ، متسعا من الوقت للارتواء من نهر جبهما القديم وزواجهما ، بل سرعان ما تواترت أنباء توجه حشود جيش الأحباش ، وعلى رأسه أرعد بنفسه ووزيره سقرديون ، باتجاه العاصمة العربية - أحمر - للانقضاض عليها وحصارها لحين استسلام ملكتها قمرية .

هنا زفرت شامة من أعماقها لسيف اليزن ، وهما يتأهبان بدورهما إلى المسير والعودة إلى أفريقيا قائلة في غل :

- وقبل أن تستسلم تلك الملكة قمرية ليسوقها أسيرة عارية القدمين والرأس في سلاسله وقيوده عبر شوارع أثيوبيا بنفس ما فعله مع أبى .

عندئذ رمقها سيف اليزن بنظرة غائرة الأعماق والأبعاد ، محاولا تفهم غرضها الأخير ، فلم يكن قد سبق له أن حدثها قط عن ملكة أحمر قمرية .

بل إن توالى الأحداث وصخبها استعدادا للحظة تجمع قرار المسير بنواة جيش حديث التكوين ، دفعهم للزحف سريعا باتجاه شرق أفريقيا وأواسطها ، ومواجهة جيش الحبشة وملكها :

- وريث عرش يهوذا .

وهو قرار كان سيف بن ذى اليزن قد عقد الرأى على تأخيره كثيرا ، وهو الأقدر بالطبع على معرفة مدى قوة الحبشة ورسوخها في مجاهل أفريقيا ، مضافا إليه أيضا الدور العنصرى - الدعائى - ضد العرب الساميين لونا وجنسا بل وحضارة من جانب أرعد .

واصفاء إياهم بالبدو الغزاة .

وبدأت الأخبار المتوالية الوصول تطرق كل الأسباع حول حصار أحمر وملكتها قمرية، وهو ما أقلق مضاجع سيف إلى حد الفزع، وأفضى به في النهاية إلى اتخاذ قرار المسير عبورا من أقصر الطرق باتجاه الحبشة ذاتها ثم أحمر .

وخلال المسير الذي استغرق بضعة أسابيع طويلة واصل فيها سيف اليزن سيره المؤرق ليل نهار .

وفشلت كل جهود شامة في التخفيف من أعبائه إلى أن اقترحت عليه اتخاذ بلادها وموطنها منطلقا للجيش العربى نظرا إلى قربها محقة بذلك هدفها الدفين الذى أصبح يشدد في عضدها . وهو الانتقام لوالدها الطيب الذى اقتاده الأحباش أسير مقيدا بذيول خيولهم عارى الرأس والقدمين إلى أن تم صلبه مقلوبا رأسا على عقب على بوابات أثيوبيا .

مما دفع بسيف إلى التعديل من خطته ، مقسما جيشه إلى فيلقين .

أولهما اتخذ اتجاهه إلى شرق بلاد الحبشة ذاتها ، بقيادته مستخدما حيله الماهرة التى عرفت عنه في «حرب النيل » بينما سار الفيلق الثانى باتجاه «أحمر» وما يتبعها من أقوام أفريقية .

حتى إذا ما حانت لحظة الافتراق بفيالقه مسرعا عن شامة لتنفيذ تهديداته الخلفية لجيش الحبشة والانتهاء منها بأقصى سرعة يمكن تحقيقها ، اتخذ طريقه على الفور للحاق بالفيالق المتجهة إلى نجدة المدينة العربية وملكتها المحاصرة «قمرية» .

ولكم صعبت لحظة الافتراق هذه على شامة عندما ودعت سيف ذلك الغرام الطاغى الذى تملكها أكثر وتضاعف لهيبه منذ تولى ما مر بها من أحداث جسام .

فتذكرت حين أنقذها من ذلك الموت العاهر بين برائن - مقلقل - ابن سيف أرعد ، ثم إفلاتهما معا عبر وهج المعارك والمخاطرات للخلاص من الشر .

وهكذا سرعان ما اندلعت سريعا المعارك ، حين غير سيف بن ذى اليزن هيئته كلية

بدءًا من شعر رأسه «الأكرت» الجعد وانتهاء بلون وجهه ويديه ويدنه بكامله ، ثم دخل الحبشة ، وهو على دراية كبرى بمسالكها ، منقضا على مقتلها باستخدام نقيضين لا غيرهما :

- الغرق .. والعطش .

فحقق انتصاره ، وأحدث الذعر الجارف في ربوع البلاد المترامية ، التي ما إن وصلت أنباؤها إلى اسماع ملكها سيف أرعد ، وهو على مشارف تحقيق نصره وحلمه الطامح ، باقتحام أسوار عاصمة «بدو المشرق» والإمساك برأس الأفعى :

قمرية ..

حتى تهدم كل شيء كمثل معبد قديم تهاوى على رأسه الكبيرة :

- جنون .. الخيانة .. الخيانة !

وقبل أن يفيق سيف أرعد من هول ما حملته إليه الأنباء محاولا إعادة السيطرة على جيشه وفيالقه ، كان ابن ذى اليزن يأخذ طريقه للحاق ببقية جيشه والإطباق من الخلف على سيف أرعد ذاته ، مما خفف الحمل الجسيم عن «أحمرا» ودفع بقمرية من جانبها إلى التشدد والمواجهة ، وكأنها بهذا إنما تحكم إطباق فكى الكباش على جيش الحبشة بقيادة سيف أرعد .

واشتدت وطأة القتال الذى امتد إلى داخل أحمرا ذاتها ، خاصة حين دخلها سيف اليزن بجنوده . مواصلا خداعه وتكره ، فى محاولة للحاق والإمساك بسيف أرعد ذاته .

إلى أن أصبح وجهها لوجه مع أمه قمرية التى كانت قد استبعدت مجيء ابنها لمناصرتها فى هذا الحصار والهجوم المباغت من جانب الأحباش .

إلى أن أطبقت عليه بفيالقها فى محاولة لتصديه وقطع رأسه ، بعدما فر سيف من أمامها .

فما كان من سيف اليزن أن خلع زيه وتكره كحشى - أسود - على مشهد من أمه قمرية المتوثبة لقتله ، ما سحاه حتى لونه معلنا :

- أنا سيف اليزن .. هيكلك يا أمه !

25

سيف بن ذى يزن تبع حمير المنتظر

تلك هى المرة الأولى ، التى وعى فيها سيف بن ذى يزن على نفسه بعدما مادت أرض القلعة الرخامية من تحته ، فسقط فى ذلك الفخ - الملمم - المفتوح الفاه عن آخره .
وذلك لحظة إطباق ملكة أحمر - قمرية - عليه على رأس جنودها من كل جانب ،
كمثل نمر مفترس هائج ، مشهرة سيوفها وقواطعها وحرايبها ، لتهوى بها على رأسه :
- أقتلوه !

كانت تلك هى المرة الأولى ، التى فتح فيها سيف عينيه عن آخرهما وهو مجندل مقيد بالحديد «الكلابات» والجنائز فزعا صارخا فى وجه أمه الملكة المحاربة قمرية وهى على ظهر الشهباء فرس ذى اليزن متقلدة عدة حربه شاهرة حسامها استعدادا لكى تهوى به على رأسه فصرخ فى وجهها :
- هذا .. أنا سيف .. هيكل .. ابنك .

هنا عجزت الذراع المشهرة الضاربة فتراجعت كمن شلت للحظة عن كل حركة ، ونزلت قمرية من فورها مسرعة فزعة عن حصانها متفرسة فى وجهه ، وبالتحديد على شامة التباعدة الخضراء على جبينه ، بينما خلع هو أقنعة تنكره وأزال الأصباغ عن وجهه وصدره العارى مسرعا :
- هو .. سيف !

وللحظة سريعة كمثل برق خاطف اقتنصت نظرات - الأم قمرية - المدققة ملامح
ذى اليزن - والده - السمحة الفائقة النبل ، منكبة عليه محتضنة إياه فى حنو :
- هيكل . . سيف . . ولدى .

استدارت كمن تعلن لحرسها فى انبهار لا يصدق أبعاد وحقيقة ما حدث :
- سيف بن ذى يزن . . حذار .

وقبل أن تمتديد لتخلصه من فخاخه كان هو قد اندفع نافضاً عنه قيوده قائماً منتصباً
على قدميه فى حيوية مصافحاً أمه ، متطلعا فى وجوه فرسانها وكأنها يحبى بابتسامته
الصافية أصدقاء أعزاء قدامى :

- عدنا . . مرحباً . . أمى الحبيبة . استدار مستطلعا من فوره سير المارك
الطاحنة الضارية الدائرة على طوال الساحات الواسعة فى شوارع - أحمر - المتقاطعة
والجانبية عبر شرفات القصر الشاهق المرتفع البنيان ، بما يسمح بجلاء ووضوح رؤية
كل شىء على طول السهول والوديان ، وعلى طول النهر الفضى العريض المتدفق
جارياً إلى الشمال .

وبدا واضحاً للعيان هدف الأحباش وحلفائهم المستهدف لقصر ذى اليزن ذاته
حيث الملكة :
أفعى أحمر .

إلى درجة دفعت بقمرية إلى التخلي عن ابنها - سيف - مشيرة صارخة :
- انتبهوا . . غرباً . . غرباً .

إلا أن تراخى - ابنها - منفلتاً من بين أحضانها مستبشراً ضاحكاً ، أعاد إليها من
جديد تنهداً مشيرة للخطر المرتقب :
- تقدموا

لحظتها تزايدت أكثر ضحكات - سيف وهو ينفض عنه غبار معاركه مقهقها فى

عنف ، وهو يقارب - قمرية - مجددا محاولا إعادة إنزالها من فوق صهوة جوادها ، مما ضاعف من سحقها عليه ، إلى أن قال سيف بن ذى يزن موضحا :

-إنهم جنودى .. جنودك أيتها الملكة الأم .. المنتصرة .. (ضاحكها) انتبهى .

تردد بصر قمرية بين حشود الجند المسرعة العدو باتجاه المدخل الغربى لقصر - القلعة ، وبين ضحكات سيف واستبشساره ممطيا من فوره ظهر حصانه مشيرا لفيالق الجنود المقتربة ، مهللة بالنصر ، محيطة به من كل جانب فى تعال :

-المجد لتبع حير المنتظر .

هنا بدا المشهد فى عين الملكة الأم قمرية ، أقرب إلى الحسد المحمل بكل زهو وإكبار:

-تبع حير المنتظر . ولدى !

فاتسعت ابتسامتها وهى تشهد ما يحدث بين ابنها - العائد - سيف وبين فيالقه وكتائبه ، بلباسهم المزين بالألوان التى يخالط فيها الاخضر الزمردى القانى ، والأحمر الصارخ وقد شهروا سيوفهم :

هكذا يدخل سيف بن ذى يزن مدائنه وقصر أبيه .

وبهر جنود أحمر بدورهم مما يشهدونه غير مصدقين : إنهم يشهدون الآن وعبر أجيح المعارك المستعرة الضارية التى امتدت شهورا ، تبعهم المنتظر :

- سيف بن ذى يزن تحت أعلام التباعة .

كان الفرسان يدورون بخيولهم من حوله - أى سيف - خالعين عنهم شارات التمويه والتستر بالأزياء الحبشية ، رافعين رايات وبيارق التباعة ، وقد علت أناشيدهم المدوية احتفالا بالانتصار ، فى مشهد مثير صاحب بعث فى جسد قمرية الذى أوهنته المعارك رعدة لم تكن تعرفها من قبل فى كل ما سبق لها أن واجهته وتصدت له ، عبر حياتها الجسورة التى عاشتها :

-ولدى العائد سيف .

- تبع حمير العائد .

مضت قمرية تشهد عن بعد ما يحدث ، من توافد فيالق وكتائب ابنها سيف بن ذى يزن ، من كل جهة وصوب ، نازعة عنها هي الأخرى شارات تنكرها تحت أزياء الأحباش وحلفائهم ، ليحكموا خطة الكباش المطبقة - من الخلف والأمام - على ملك الأحباش ، منذ حط بجنوده داخل أحرا ذاتها ، فكان أن عجلوا بالنصر ، غمغمت قمرية لنفسها :

- بل هم اقتنصوه .

حطت ببصرها عليه وهو يدور وسط حلقات فيالقة وكتائبه وجنوده ، مشاركا في أغاني انتصاراتهم ، مجللا من كل جانب بأعلام التباعة وبيارقهم . إلى أن عم خبر عودة التبّع العائد الذى فك حصار مملكة أحرا ، وأوقع بالأحباش الهزيمة فتوافدت الجموع من كل جانب غير مصدقة ، وتزايدت أغاني النصر وأفراحه متفجرة في كل مكان .

مما دفع بسيف إلى الاندفاع باتجاه أمه مطالبا إياها بالخروج لتحية جنوده وفرسانه والجميع ، والمشاركة فى احتفالات النصر فى هذا اليوم الكبير معاودا إصدار تعليماته هنا وهناك ، لمواصلة تصفية آخر قلاع وجيوب الأحباش ، بل ومطاردتهم باتجاه الجنوب تمهيدا لأن يلحق بهم - أى بجنوده - قبل مطلع صباح اليوم التالى .

وانتهى سيف بن ذى يزن من متابعة مطاردة جيش سيف أرعد إلى داخل تخوم وحدود بلاده ذاتها ، عبر معارك استخدم فيها الجانبان أقصى طاقات المقاومة ، خاصة من جانب الأحباش الذين أفجعهم خداع سيف بن ذى يزن لهم بتكره ، وادعائه مخالفتهم على ذلك النحو الصارم .

أما فاجعة ملك الأحباش سيف أرعد ووزيره سقرديون اللذين وصل بهما الغضب والحقد على التبّع اليمنى الحديد وغدره المتواصل بهما ، إلى حد دفع بهما الى خوض المهالك دون رحمة أو مهادنة فى محاولات للايقاع به أينما كان وقبل استشرائه خطره أكثر فأكثر عقب عودته عيانا جهازا لمنازلة الحبشة ، وتحالفه مع أمه قمرية :

— ستصبح الأذية . . أذيتين على رؤوس الأحباش وكل الأفريقيين .

وهو ما تحقق بوصول إمدادات قمرية لمساندة ابنها في نقل المعارك إلى داخل بلاد الحبشة بدلاً من أحرا .

مما اضطر سيف أُرعد إلى الإسراع مطالباً بالهدنة ووقف القتال ، الذي رفضه بحدّة سيف بن ذى يزن ، بينما تقبلته ملكة أحرا ، مما أوعز الخلاف بينهما أو بين قراريهما المتضاربين .

وهذا ما سمح لسقرديون بتعميق ذلك الخلاف بين - الأم وابنها - إلى حد تزايد القطيعة التي جمدت مسار الحرب المستعرة وأوهنت من روح سيف المقاومة ، ثم تقبله في النهاية لقرار والدته بوقف الحرب ، والعودة إلى أحرا .

حتى إذا ما عاد سيف بن ذى يزن إلى عاصمة التباعة التي فتحت ذراعيها عن آخرهما لاستقباله بعد نفى وغياب طويل كانت قمرية قد اتخذت سلفاً قرارها الذي عانت منه طويلاً وحدها ، في تنفيذ وصية الوالد الراحل « ذى اليزن » بتسليمه سلطاته ليعتلى عرش التباعة .

وتم الاحتفال بتنصيبه ، بما يليق من تكريم ، حين تخلت - قمرية - عن عرش ذى اليزن الباهر ، نازلة درجاته على مشهد من أمراء حمير ووزرائها ، وشيوخ القبائل والعشائر والجموع التي جاءت لتشهد اعتلاء سيف بن ذى يزن لعرش أجداده المتوارث منذ سبأ وحضرموت .

وجئى هو على ركبته أمامها وهى تضع تاج ذى اليزن على رأسه مقبلة :

— لعل التبع الراحل شهد تلك اللحظة من مثواه . وفي اليوم التالى لتنصيبه اقتادته أمه إلى حيث كنوز ذى اليزن وعدة حربه ومخطوطاته ودراساته عن :

— كتاب النيل .

— سأحفظه فى قلبى .

— كما تحفظ حدقتى عينيك .

وكما لو أن سيف بن ذى يزن ، قد وقع على بغيته حين انشغل بتصفّح صفحات الكتاب فى حرص ، مستغرقا فى تأمل رسوماته التوضيحية ومدوناته وخرائطه الملونة :

- استغرق عمره بكامله فيه .

- أعرف يا أماه . . أبى !

وهكذا استحوذت كتابات ومدونات التبع الراحل على ابنه : بعد تسلّم سلطاته فانكب بكامله ، وقبل كل شىء ، على قراءتها وحل رموز وطلاسم - كتاب النيل - الذى يعرف أعداء العرب قبل غيرهم أن من يمتلكه يتحكم فى النيل بكامله ويجراه وإخصابه ومجاعاته .

حتى اذا ما حاول سيف بن ذى يزن إجراء تطبيقاته ، ولو من باب إرهاب الأقباش الأعداء ، منعت أمه متغاضية عما انتهت إليه الأحداث باعتزالها لسلطاتها ، وبعدما ارتضى الجميع وأولهم هى - قمرية - ذلك وهو ما انتهى بتنصيب التبع الجديد .

وعمق من أغوار الصراع الخفى بين الملكة المتنازلة عن العرش وابنها ما تلقاه الملك التبع سيف بن ذى يزن من رسائل بعث بها اليه وزير والده الاول المقرب « يثرب » حين أرسل له مهتئا وشاكيا من عدم قدرته على المجيء من يثرب إلى أحمر لحضور مراسيم تنصيبه التى كان ينتظر يومها المنشود ، تخوفا من أمه قمرية التى تسببت فى رحيله إلى - مدينته - يثرب - أى المدينة المنورة فيما بعد - منشدا له أجزاء من معلقة الشهيرة :

فمن يثرب قد صرنا بعد عمرها
إلى بعلبك ابن عمى بها عبدا
وسرنا إلى أرض الجبوش بجيشنا
نزلنا بواد عمه الماء والزهر
مليكننا ذو اليزن عمر أحمر
حصنها بالأسوار وأجرى الأنهر
أبراجها من حولها وقلاعها
بها شيدت والناس من حولها زمرا

ولم يشأ - سيف - أن يستوضح من أمه عن جذور خلافها مع وزير والده ، وموضع سره - يثرب - تخرجاً من جرح مشاعرها ، كما أنه لم يشأ أن يستأثر بقرار مصيرى ، يتصل بالحرب والسلم ومهادنة سيف أرعد لا ترضى عنه والدته قمرية ، مهما عز عليه :
- فهي أُمى . . من جلت بى .

ذلك على الرغم من تيقنه الدفين من خطورة قرارته في هذا الشأن ، خاصة وأن الأخبار التى يرصدها عياروه وبصاصوه ، تحيئه بالكثير حول الحشود التى يسعى إليها الملك سيف أرعد في الخفاء ، والمبيتة كلها ضده وضد عاصمة التباعة ، مستخدماً في ذلك كل النعرات العنصرية ضد العرب الساميين «ذوى البشرة البيضاء» وأطاعهم في أفريقيا الزنجية .

ودعم من صدق وتحقق هذه المعلومات المتسمة بكل خطر ، ما بعثت إليه به مؤكدة حبيته وزوجته «شامة» ملكة أفراح .

حتى إذا ما تراكمت مكاتباتها ومراسلاتها له من خطية وشفهية ، حول جنون سيف أرعد وتحالفاته الخفية التى اتسع مداها حتى شملت وغطت غرب أفريقيا وجنوبها ، بدأ سيف التفكير في معارك الحرب .

وهكذا وجد سيف بن ذى يزن نفسه محاصراً غير قادر على الحركة برغم تملكه لسلطاته كتعب لحمير وعرش اليمن ، وهو الذى لم يعتد من قبل على حياة القصور الوادعة الرخوة ، كمثّل دمية في يد أمه قمرية التى استأثرت بقرار الحرب والسلم ، مؤثرة احترام صكوك الهدنة مع الأحباش :

- وأين هى الهدنة مع سيف أرعد وأطاعه التى لا يجدها حد .

إلى أن تواترت الأخبار ، حول عبث - الأحباش - السرى من جديد في النيل ومقاييسه ، وخاصة ضد مصر وأفراح وأعلى السودان .

بل وضاعف من خطورة الأمر ، استقدام سيف لبعض حامياته في بلاد النوبة والمغرب الكبير :

.. لماذا !

وهو السؤال الذى طرحه على والدته قمرية مرارا دون أن تتزحزح ولو قيد أنملة عن قرارها مؤثرة السلم على الحروب وأهوالها .

إلى أن روع الملك سيف بن ذى يزن ، برسل زوجته شامة المحملين بتجدد الحرب بين الأحباش ومملكة أفرح ، وتلك الحشود الهائلة التى اجتاحت البلاد باتجاه العاصمة، وتصميم سيف أرعد على التخلص أولا ، وكما يقول ويذكر مستخفا : «التبلغ أولا ببلاد شامة أى أفرح » . وهو يعلم أنها زوجته .

هنا نفذ صبر الملك التبع سيف بن ذى يزن ، مقررًا كسر قرار والدته - قمرية - والخروج من جديد للملاقاة الأحباش . حتى إذا ما أعادت والدته معارضتها احتدم الخلاف بينهما ، وانتهى بانقسام الجيش العربى ، وخروجه وحده بفيالقه غير المتكافئة مع جيش الحبشة ، لفك حصار أفرح والإفراج عن حييته وزوجته شامة التى لم تقدر له الاحداث المتوالية معاشرتها كبقية خلق الله ، إلى أن وقعت فى أسر سيف أرعد

- شامة . . حبى :



26

سيف ينفك حصار مدينة أفرح

اضطر سيف بن ذى يزن إلى مناوأة أمه قمرية والضرب بقرارها المستسلم ضد الأحباش والخروج عليه ، كما اضطر إلى إحداث ذلك الصدع أو الانقسام في صفوف «جيش التباعة» .

حيث أثرت فيالق الملكة الأم البقاء في أحمر ، امتثالا لقرارها بعدم إعلان الحرب ، مما أجبره على الخروج وحده بجيشه القليل العدد والعدة ، تجاه مملكة أفرح لتخليص أسر محاربتها التي عانت طويلا ، وهى زوجته وزميلة كفاحه وطفولته وصباه :
- شامة .

وهى - شامة - التى تفتحت عيناه عليها يلعبان ويلهوان ويدرسان معا ، حتى إذا ما شبا عن طوقها . . على كراهية سيف أرعد ملك الحبشة لكل ما هو عربى وعبوديته للآخرين ، توقدحبهما على وهج المعارك المستعرة التى خاضها ضده مما اضطر شامة ، وهى الفتاة أن تخرج على إرادة والدها ملك أفرح بالسير فى طريقه ، بل والانتفاء بكاملها إليه إلى حد هروبها مع سيف إلى اليمن وجزيرة العرب ، ليعقد قرانه عليها رسميا بين الأهل والعشائر :- وها هى شامة ترزح وحدها فى قيود وأسر أرعد ، كان سيف بن ذى يزن ، يعتلى رأس جنده وألويته غاضبا عاقدا العزم منذ أن لفظته بوابات أحمر على التوجه هو وجنوده إلى المشرق الأفريقى ، وهو لا يزال يلقي باللوم على نفسه لتردده

الطويل أمام رغبات أمه قمرية - التى عارضت الإسرع بالخروج لاستكمال المعارك السابقة الموءودة أو المجهضة ، عشية وضع الملكة - خاتم ملك التباعة على اتفاقات الهند - الملفقة الأخيرة مع ملك الأحباش سيف أرعد قاتلة :

- تكفى أرض هذه البلاد ما رشفته من دماء عربية ، لم يحف تقيحها بعد .

اندفع التبع الشاب ، ينهب الأرض بجبالها وأخاديدها وشلالاتها وبواديها وغاباتها المأهولة بقطعان الحيوانات والطيور وزواحف الأرض ما بين الأيائل البرية والضباع وأبناء آوى التى تعارف العرب على تسمية الواحد منها بأبى الحصين .

وكانت قطعان الحمير الوحشية والسنجاب والقردة بأشكالها وفصائلها وممارستها عبر البرارى ، بأحجامها المختلفة المنتصبة على قوائمها ، والتى تلفت النظر بأشكالها الغريبة وتصرفاتها العجيبة وهى تقعات من غريب الشجر والثمر والزهور البرية التى لا يجدها البصر ، بألوانها وتكويناتها من صفراء وحمراء وقرمزية وخضراء وسوداء وعسجدية . كشعر شامة المسترسل الأحمر .

وكان أكثر ما يثير مخيلة جنوده ، فيتندرون به عبر زحفهم ورؤيهم لمجتمعات القردة العملاقة التى يسمونها «بالغيلان» وكيف أنها كانت تشعل النار وتضرمها بالنفط فى حروبها وغاراتها الوحشية ، إلى درجة دفعت بسيف أرعد إلى ترويضها ومحالفها وتدريبها والدفع بها ككائب إثر كئيب ضد العرب كمحاربين مرتزقة بلا هوية ، قد أضناها الجوع لتنهشهم وتأكلهم أكلا .

- شامة . . كيف لى أن أتخلى عنك .

واصل سيف اليزن زحفه متشحا أردية وبيارق التباعة وتاجهم المتوارث - علنا - وعلى طول البلدان الأفريقية ، حتى تلك الموالية منها لمملكة - ويمكن القول امبراطورية - الحبشة وملكها المتسلط الذى أعماه التعصب ضد العرب سيف أرعد .

حتى إذا ما تسلل داخلا إلى أراضى أفراح الشاهقة واصل زحفه بجيشه باتجاه عاصمتها لفك الحصار عن شامة :

- لكم عانت طويلا معه عبر رحلة نضالهما التي لم تترك لهما متنفسا . . للعيش ولولفتره قصيرة لزوجين بعدما عاشا مرحلة الطفولة ووهج الشباب معا كصديقين متلازمين .

وشق سيف بن ذى يزن طريقه بحد السيف موقعا بقيادة وأبطال الأحباش ، ميمنة وميسرة إلى حيث قصر شامة الشامخ المتعالى المحاط من جهاته الأربع بغابات الأشجار العملاقة المشتعلة كجهنم ذاتها من حوله وخلفه ومشرقه ومغربه التي كان يطلقها جيش الأحباش والغيلان .

فك حصار القصر في ذات اللحظة التي حرك فيها - أنصاره - حرب الأنهار التي يجيدها منذ الصغر . . فخفتت الحرائق لحظة عبوره كالبرق الخاطف إلى قصر شامة ، المفضى بدوره إلى السراذيب والمخابيء المتناهية الصعود والهبوط والالتفاف . واستطاع بعد جهد الوصول إلى شامة التي اخذته بالأحضان وهى تصرخ بسرور :
- تأخرت . . سيف .

أشارت من فورها إلى الخارج عبر كوات السراذيب المحكمة التحصين قائلة بتوتر :
أنظر جهنم .

وهاها في التو ما يحدث ، فلول الأحباش وهى تلقى أسلحتها فارة ومذعورة إثر قياداتها التي كانت تولى الأدبار بدورها عبر الأفق البعيد ، لتنجو بجلدها - الأسود - وقبل أى شىء من مجرد مقدم سيف بن ذى يزن ورجاله .

وشاع خبر وصوله مع رجاله على أفواه ومسامع الجميع فى نواتر جاء إيقاعه بمختلف اللغات واللهجات والنبرات :

- التبع المتظر . . سيف

- تبع حمير الجديد العائد . . هيكل . . سيف

وفرحت شامة واحمرت وجنتاها فى براءة وتراحم الجميع على الشرفات التى انتزعت «ستائرهما وكل ساتر» لمشاهدة ذلك المشهد الذى - تذكر سيف أنه - تكرر مرة أمام عيني - أمه قمرية - ومع ذلك لم تهيه ثقته بعد .

- الملكة لاتعرفنى .

- أمى . . من جيلت بى .

غمغم سيف بن ذى يزن لنفسه غائبا عن نفسه ذاتها ، وهو يشارك شامة وبقية
حاميتها ما يحدث من دعر وشتات لجيش الأحباش على طول البرارى ومتعرجات
السهول الممتدة على مدى النظر ، وهى تنهب بأقدامها العارية الأرض نهباً صارخة فى
فزع جماعى :

- التبع المائى .

ضاحكته شامة فرحة وهى تراقبه من تحت أهدابها متنفسة أخيراً الصعداء :

- نأخذ نفسنا . . لحظة الليلة !

- أحقا يا شامة . . أعذرينى يا حبيبتى . . فلعل فى سمعته الكفاية .

وكان يعنى بهذا خلافه مع والدته . إلا أن شامة أخرجته من هواجسه جاذبة :

- ليس هناك أعذب من هذا .

اندفعت مشيرة بكل ذراعها المغطى بالدروع المصاغة من الذهب الإبريزى القانى
الاحمرار:

- النصر .

- رد العدوان . . الظلم .

ولعل مساء ذلك اليوم المتأخر شهد حبهما نهايته السعيدة .

- الحرية .

وفى تلك الليلة حملت شامة من سيف بن ذى يزن . بالوريث الجديد لعرش التباعة
الذى لقب فيها بعد باسم اجداده السالفين :

- دمر . . أى المدمر لأعدائه ومؤنث الاسم هو «تدمر» وهى الملكة تدمر السابقة
على بلقيس ملكة سبأ .

ولم يسترح سيف بن ذى يزن فى أحضان ودفء زوجته المحبة - شامة - طويلا، سرعان ما استجمع طاقات محاربيه، باتجاه سد الطرق والمنافذ على جيش الأحباش وقبل أن تستطلع فلولهم أثيوبيا عائدة مندحرة .

إلا ان سيف أرعد وجدها - باستشارة وزيره سقرديون - فرصة سائحة للعودة باتجاه عاصمة التباعة ذاتها « أحمر » خاصة وسيف اليزن بعيد عنها ، والمملكة قمرية والدته قد أصبحت فى سنواتها الأخيرة منهكة إثر الحروب وأعمال الحصار التى نفذها سيف أرعد بها .

حتى إذا ما نفذ ملك الأحباش غايته ، وأوقع الحصار والخسائر بأحمر مضرما نيرانه فى مدنها ومضاربها وقراها جن جنون الملكة فخرجت للملاقاته متعثرة . . بعدما شق عليها الاستنجاد بابنها - هيك - خاصة بعدما تخلت عنه فى المرة السابقة ، بحجة أن الأحباش الذين « سعوا وحفوا وراء عقد الهدنة طويلا . . لن يخرقوها بسهولة هذه المرة » .

لكنها ندمت بعد فوات الأوان ، وبعدها استباح جيش الأحباش المدينة بخدعة هدفها مباغتة الملكة وتدميرها حرقا وغرقا وحربا من كل صوب وفى آن واحد . ورغم صمود قمرية بعد ما أعماها الغضب وأخرجها عن كل طور إلا أنها عانت الكثير فى حصارها المباغت ذاك .

ووصل بها الغضب والرغبة الدامية فى الانتقام إلى حد تحمل أقصى الويلات فوق كاهلها دون أن تجرؤ على الإرسال برسلها طالبة العون والمساندة من ابنها فلذة كبدها :
- لن يحدث . . لن أنحنى .

إلا أن سيف بن ذى يزن لم يطق صبرا عندما علم وتيقن بما حدث ، فاستجمع قواته مقرر التخلي عن شامة التى تحولت بهجتها إلى أسى وحرارة لافتقاد سيف زوجها من جديد ، من يدري ما تحبته الأيام والليالى الحبلى بكل عنف وانتقام بسبب ويلات عدوان الأحباش وحلفائهم التى لا تعرف مراعاة لهدنة أو اتفاق .

لذا قررت شامة مصاحبته بجهودها رغم أنها كانت تعاني من آلام الحمل الثقيلة التى آثرت إخفاءها عن زوجها .

هنا رفض سيف بإصرار مصاحبتها وكان يترقب على أحر من الجمر ما فى بطنها :
- دمر .

بل أصر على بقاء حاميتهم وبقايا فلول جيش أفرح ، الذى كان سيف أاعد قد أتى على معظمه ولم يبق من قاداته البواسل ، سوى « الميمون » وهو أمير أفريقى أثبت عبر منازلاته وحربه ضد الأحباش بطولات أصبحت توقع الرعب بين صفوفهم ، وخاصة فى قلب سيف أاعد ملكهم ذاته الذى كان قد اصطحب معه فى حربه هذه ضد عاصمة التباعة - أحمر - قائدين كبيرين بفيالقها المحاربة أولهما ويدعى « ميهوب » واشتهر بلقب « سياس الثلاثى » ذلك لأنه كان يقطع رقاب ثلاثة من أعدائه بضربة واحدة من سيفه والقائد الثانى ويدعى « دمنهور الوحشى » .

لذا استعصى القتال طويلا على سيف بن ذى يزن ، واستمر حصار المدينة مطولا، مما أفرج والدته قمرية ، وأخرجها عن طورها مرارا ، مواصلة تنازلاتها لسيف أاعد والأحباش مما دفع بسيف بن ذى يزن إلى المبادرة بمكاتبتها مطالبا إياها مراعاته ومراعاة تواجده - تحت راياتها - وعدم التسرع فى اتخاذ قراراتها :
- المفردة . . المتسرعة .

أما شامة فقد أزعجها بدورها ما انتهى إليه سير المعارك وضراوتها فى أحمر ، فأرسلت إليه بقائدها « الميمون » وفيالقه .

فما كان من سيف بن ذى يزن سوى التشدد فى مواجهة الأحباش وتحدى أبطالها منشداً :

أخوض بحر المنايا وهو معتكر
وأرمى قلوب العدا بالرعب والجزع
أعشق فى الشتاء سوق المنايا
كذلك فى الربيع وفى الصيف
ألا فاخبروا عنى الملوك لأننى

إذا ازدحموا في الحرب يوم هياحها

فأثبت اليوم يا أمير الحربى

إن تكن جاهلا بضرب سهام .

وهكذا تحدى سيف بن ذى يزن القائد حلفاء الأحباش « سياس الثلاثى » ونازله بضعة أيام متتالية إلى أن اضعف ساعده ، وبدلا من أن يقطع رأسه حين تمكن منه ، أبقى عليه وأخذته أسيرا بفيالقه .

مما ضاعف من مخاوف الأحباش وملكهم أرعد فتشددوا عليه من كل جانب بينما هو - أى سيف - يواصل تحديه قائلا بأعلى صوت وهو يصول ويحول من فوق رؤوس الجبال :

- من عرفنى فقد اكتفى .

إلا أن سنحت له فرصة منازلة كبير قواد جيش الأحباش « دمنهور الوحشى » وفعل به كما فعل بالسابق . حين استحوذ عليه - وجنده - أسيرا بدلا من سفك دمه . .

ثم كر سيف بن ذى يزن عائدا منتصرا إلى أقوامه مجللا ومخضبا بالنصر ، كمثله أرجوان أحمر قان .

بينما جن جنون سيف أرعد ووزيره الشرير سقرديون ، . وهما يشهدان سير المعارك من حول أحمر ، ومدى ما أصبح يحرز ذلك التبغ الجديد من إضعاف لصفوفهم باستحواذه على حلفائهم - أى حلفاء الأحباش - ، حتى بدا الأمر أقرب إلى انفرط عقاله .

وهنا لم يجد ملك الأحباش سيف - أرعد - مخرجا سوى التراجع بجنوده منسحبا باتجاه الحبشة ، تخوفا من أحابيل سيف اليزن المباغته بالالتفاف من خلفه وسبقه بجيوشه إلى أثيوبيا .

إلا أن سيف بن ذى يزن بوغت بالأخبار التى حملها إليه تابعه « عيروض » عن ذلك المرض العضال الذى حط فجأة على كاهل أمه - قمرية - وألزمها الفراش طيلة الشهور

الأخيرة التي شهدت معاركه الطاحنة ، والذي آثر الجميع وعلى رأسهم الملكة ذاتها إخفاءه عنه .

ومن فوره هرع سيف بن ذى يزن فزعا متسللا سرا لزيارة أمه .
حتى إذا ما قارب فراشها منحنيا لاثما جبينها هاله ما وصلت إليه حالتها من تدهور شديد .

فتحت عينيها في تناقل محتضنة رأس ابنها مغممة :
- سيف . . ولدى . لم أفرح بك لحظة منذ مولدك .
كل أم . . هيكل .
اندفع هو منكبا لاثما وجهها وراحة يديها في تلهف .
- أمى الحبيبة . . سندخل أثيوبيا جنبا إلى جنب قريبا ، لتعتلى أنت عرشها .
ابتسمت في وهن ، وأسبلت عينيها كطفلة . . وغابت في سباتها العميق لاقطة آخر أنفاسها على أصداء ذلك الحلم :
- متى . . ولدى سيف هيكل ؟!



27

سوت قمرية

حطت الأحزان الثقيلة على سيف بن ذى يزن عقب موت أمه - قمرية - الذى جاءه نبؤها صادما مفاجئا ، وهو الذى لم تمكنه الأحداث والمعارك والعمليات العدائية - الحبشية - المتوالية بلا رحمة أو توقف من النشوء والعيش فى أحضانها واكتسب حنانها ومعرفتها عن قرب .

تملكته الأحزان العميقة ، إلى درجة لم تسمح له بتذوق عذوبة نصره الأخير على الأبحاش وملكهم سيف أرعد الذين عادوا مهزومين منسحقين لمجرد إشاعته - أى سيف اليزن - لنبا غير صحيح ، وهو أنه سيفاجئهم بين لحظة وأخرى بدخوله وجيشه أثيوبيا ذاتها .

وجرت مراسيم دفن الملكة الأم قمرية فى عجلة نظرا إلى ظروف الحرب إلى جانب زوجها التابع الراحل ذى اليزن حسب وصيتها هى - أى قمرية - :

- ادفنوني عند موضع قدميه

إلا أن تدفق الحياة بمرها وحلوها ، سرعان ما أعاد البهجة إلى قلب التابع الشاب ، حين وصلته مكاتبات زوجته الحبيبة شامة ، وكان قد تخلى عنها - مجبرا - وهى حامل فى شهرها الثالث لكى يخوض معارك «عاصمة التباعة» .

- دمر . . بكرى .

جاءته أخبار شامة مستبشرة ذات صباح مشرق تحمل إليه وضعها للمولودها الأول :

- دمر .

فقرر من فوره القيام بزيارة - سرية - خاطفة للملكة أفراح ، لرؤية مولوده الجديد ، وشامة التى اشتاق إليها سيف بن ذى يزن زوجته - ملكة أفراح - شامة ، حين اندفع إليها منكبا مقبلا حاملا من فوره ابنه مستطلع اشامة - أو حسنة - التباعة التى تعلو جبينه وأسر إليها قائلا :

- مرحبا بالتبع المتظر . . دمر ولدى .

وضحكت شامة من شغاف قلبها وهى تنفض عنها أغطيتها ، هاشة لاستقباله :

- حرب . . حرب . أما من لحظة راحة . . حب .

مضيا يتأملان الغلام الوليد فى حب على ضوء الشموع العملاقة إلى أن أمسكت شامة بساعدى سيف وهى تهمس له بحنان قائلة :

- كنت سأجىء . كنت أحلم بلحظة لقائى بوالدتنا الراحلة - قمرية - لكن . .

- أعرف . . أعرف يا شامة يا حبيبتى .

واستقر سيف بن ذى يزن لفترة فى بلاد زوجته شامة ، معطيا بعض وقته لمولوده الجديد ، الذى دفع دفئا متدفق الحماس فيه ، وهو الذى تربى فى ربوع ومنافى هذه البلاد يتتيا معوزا .

إلا عين سيف اليزن لم تغفل لحظة عن عاصمة التباعة « أحرا » ولا عن ربوع اليمن والجزيرة والقرن الأفريقى وبعض بلدان المغرب الكبير وديار مصر - العليا - التى كانت موالية للعرب والبيت اليمنى الحاكم آنذاك .

فكان دائم الترحال ما بين أفراح وأحرا ، بعدما تمكن من تأمين الطريق بين العاصمتين ، فلم يعد بمقدور الأجاش قطع مسالكه وفرض نفوذهم كما كان فى السابق .

بل ورغم ذلك لم يتوان سيف بن ذى يزن عن استكمال توحيد قباليق وكثائب وألوية جيشه الجديد خاصة بعدما وافق المنية أمه ، تمهيدا للوثوب المباحث على أثيوبيا ذاتها .
- وحتى يهدأ البال . . باستئصال أصل الداء ومنبته . . أثيوبيا .

وهو ما أصبح على يقين منه ملك الحبشة سيف أرعد ذاته ، وبالتحديد عقب سماعه لموت قمرية ، وتفرد ابنها - سيف بالقرار ، فضلا عن عامل اللاتقة والمخاوف السائدة بينهما ، أى بين سيف أرعد وسيف اليزن ، فكيف للذئب إذن أن يصفو للغنم ، وهو فى نظر سيف أرعد :

- الإبن البكر . . لقمرية . . الأذية !

فلعل فرصة التبع الجديد سيف اليزن الآن أكثر اتساعا وبراحا من أى وقت وظرف مضيا .

غمغم سيف أرعد لنفسه وهو يراقب مياه البحر المتلاطمة فى الأفق أمام عينيه الخائبتين :

- لدخول تبع حمير أثيوبيا . . ليقطع رأسى .

وكما لو أن ملك الأحباش يستشف مستقبلا جليا واضح الرؤيا بقوله ذاك .

ذلك أن الطريق أصبح مفتوحا بالفعل أمام سيف بن ذى يزن لاقتحام عرش يهوذا .
والانتقام من أرعد وريث ذلك العرش المعادى للعرب على الدوام .

ذلك أن وفدا من أهل مصر تصدرته أميرة مصرية باهرة الجمال تدعى «منية النفوس» زار التبع سيف بن ذى يزن ، وهم يشكون له من معاملة ملك الحبشة لهم وعدم الإنصاف لمطلبهم فى حصه ماء النيل الذى منعه عنهم سيف أرعد ، تنكيلا وانتقاما منه لعدم مناصرته فى حربه ضد التباعة .

وكانوا قد لجأوا إلى سيف اليزن ، لإنصافهم ومساندتهم ، خاصة وقد عمت شهرته الآفاق حول معرفته الواسعة وتحكمه فى مياه النيل ومجراه بدءا بمنابعه وحتى مصبه .

فما كان من سيف اليزن ، إلا أن قطع على نفسه أمامهم عهداً بالقضاء على أصل الداء وتخليص الجميع من سيف أرعد وشروره ، وإعادة المياه لهم ولجيرانهم السودانين الذين كانوا قد جاءوه أيضا بخصوص هذا الشأن المحزن المؤلم الذي يستهدف نشر المجاعة والعطش :

- حياة الناس .

وهكذا أعد سيف اليزن عدته وجيشه الموحد ، وسار يطلب بلاد الحبشة إلى أن دخل أثيوبيا ، وأسر سيف أرعد وعزله منصبا بدلا منه ابنه «مقلقل» الأصغر على عرش يهوذا .

وما أن استقر حكم التباعة في الحبشة حتى عاد الملك سيف إلى أحرا التي خرجت وفودها لاستقباله وقد زينت المدينة كمثل عروس تلهج بالثناء والدعاء له .

وشارك وفد مصر باحتفالات انتصار التبع سيف بن ذي يزن على سيف أرعد وأسرهم ، كما شاركت «منية النفوس» الملك سيف حفلات نصره منبهة إلى أقصى حد .

وكانت قد راققت في عينيه ، فآثر الزواج - السياسي - منها ، ليخلف منها ولده الذي أسماه تيمنا «مصر»

- فكانت أولى واجبات سيف بن ذي يزن ، إعادة تدفق ماء النيل شريان أفريقيا آمنا حتى مصبه الأخير بمصر العدية . مما أوصل شعبيته وحب الناس له والتفاهم حوله وتحت راياته إلى أقصى مداه .

وهكذا دخل الملك سيف مصر زائرا بصحبة زوجته الأميرة المصرية «منية النفوس» وابنتها «مصر» فاستقبل استقبال الفاتحين ، مما حدا به إلى الاستقرار في ربوعها وبين أهاليها طويلا :

فزار إخميم وأسوان - وسدها الكبير - كما زار إسنا وأسيوط ومنفلوط وملوى ، وأقام طويلا بمدينة مصر الوسطى ، فزار أهناسيا المدينة ، وحلوان والجيزة وقلعة الجبل والروضة وبولاق ، وحتى القرى الصغيرة والحوارى - مثل حارة بيت الوطايط - التي لم تخل من ذاكرته .

وزار بلاد الشام التى رحبت به بدورها فاتحة له ذراعيها فنصب ابنه «دمر» من زوجته الأولى - شامة - على حكم الشام وفلسطين ، واتخذ - دمر - عاصمة حكمه بسورية العليا ، فى مدينة بانياس المتاخمة للاذقية .

وكان سيف بن ذى يزن ، كأييه محبا للعزلة ، والانكباب على القراءة والعلم والكتابة ، خاصة فى مواضيع «الماء والتربة» وما يتبعها من مشاريع عمرانية وزراعية من سدود ومصارف وخزانات هدفها الاخضرار والنمو .

كما كان الملك سيف كثير الأسفار والتنقلات التى يجريها فى سرية ، حيث كان يتنكر بأزياء الناس العاديين من فلاحين ونوتية وطلبة وعلماء وشعراء جوالين ، وساسة الخيول العربية ، وأطباء القرى وشيوخ القبائل والطهارة والمغريين والمشعوذين ، ليتعرف أحوال الناس .

وكان يتقن تقمص شخصيات هذه المهن عن دراية ، بما يحقق له الوقوف على نبض الناس وقضاياهم ومشاكلهم ، والإسهام فيما بعد فى حلها عبر حكمه المتناهى على امتداد ربوع الجزيرة العربية والشام ومصر والسودان وعاصمة التباعة أحرا ، والعديد من البلاد الأفريقية ، إن لم تكن أفريقيا بكاملها ، عقب وضع يده على الحبشة ، وما كان يتبعها من الأقوام والكيانات والقبائل .

إلا أن كل هذه المهام وغيرها كانت تدفع به على الدوام إلى تحسس الأخطار وأعمال العدوان المبيتة ضده ، كتعب أو رمز عربى ، يستهدف أول ما يستهدف :
- العدل وخير الناس .

وكان الأخطار تحيىء هذه المرة من الأناضول وآسيا الصغرى ومسيوتاميا أو ما بين الرافدين . ومن بلاد الفرس .

لذا ادعى الملك سيف عقب استيابه فى حكم مصر والشام للمحيطين به بأنه يعد العدة للعودة إلى اليمن وفلسطين :

- للبحث عن كنوز «الملك سليمان» .

وجدتنا « بلقيس ملكة سبأ » .

حتى إذا ما انقطعت أخباره ، في آسيا والهند وبلاد الفرس التي دخلها سرا لاستطلاع النوايا المبيتة ضد مصر والعرب ، واصل غوصه في متاهات الحياة الشعبية لبسطاء الناس .

ومن فوره لم يتوان عن الإرسال برسله إلى ولديه « دمر » بالشام و « مصر » بديار مصر - الذي ولى حكم مصر في غيبته - أمرا إياهما بتجهيز حملة كبيرة طابعها الأعم « أن تكون بحرية » وحين عاد إلى مصر التي كان قد اتخذ منها عاصمة للملكة المتزامي ، اصطحب جيشه ليحارب في الهند وبلاد الفرس :

- إلى أن تمكن من قتل « الكسرى » الملقب « بصارخ البهلوان » مجهضا عدوانه المبيت ضد مصر والعرب من جانب الفرس وأكاسرتهم .

خاصة وقد سبق للفرس دخولها أي مصر - عن طريق واحة سيوة بالخفداع والمناورة وبقوا بها ردحا طويلا من الزمن .

وعاد سيف بن ذي يزن إلى مصر مظفرا فاستقبل استقبال الفاتحين من جانب فئات المصريين الذين قدموا من كل صوب للمشاركة في احتفالات النصر على العدوان المبيت ضدهم من جانب الفرس .

ففى مصر العدية ارتفعت شعبية الملك سيف بن ذي يزن ، وهو الذى سبق أن أنقذهم من عدوهم المتجبر ملك الأحباش سيف أرعد ، قاطع ماء النيل وها هو يتصدى للغزاة الجدد من الفرس فيرحل إليهم بجيشه الكبير لينقل المعارك الطاحنة إلى ديارهم وحصونهم ويعود مظفرا بالنصر .

- أبو الأمصار .

حتى إذا ما انتهى سيف بن ذي يزن من تهيئته للعدوان - الفارسي - المبيت ، عاوده صفاؤه فانكب على كتاب النيل ، مجريا أنهاره وسدوده وخزاناته في كل أنحاء البلاد ، في الدلتا والصعيد ومصر الوسطى . فعم الرخاء البلاد ، بعدما تزايد ارتفاع منسوب ماء النيل .

وتم التحكم في تخزين وتصريف المياه بما يحقق الاخضرار والنمو .

ورغم ذلك لم يتوان سيف بن ذى يزن عن تقديم كل رعاية لجيشه الموحد ، الذى انتظم المصريون تحت لوائه جنبا إلى جنب مع عرب الجزيرة العربية ، والأفارقة والمغاربة ، ومن هنا فقد أطلق عليه المصريون لقب :

-أبو الجيوش .

فكان يجرى تدريباته بجبل المقطم الذى عرف جزؤه الأعلى بجبل الجيوش نسبة لى الملك سيف وذلك تحسبا لأى عدوان قد يحى يوما من جانب الأحباش ، أو من جانب : الفرس خاصة الذين كانوا طوال حياته لا يأمن جانبهم وأطباعهم رغم انتصاره الأخير عليهم وقتله الكسرى الملقب بالبهلولان ، وتعيينه واليا عربيا على خراسان .

فكان الملك التبع سيف بن ذى يزن ، أول من فرض على المصريين نظام التجنيد الإجبارى ، وإعداد العدة لبناء جيش لا يقوم فى معظمه على المرتزقة بل على المصريين أنفسهم ، جنبا إلى جنب مع جيشه هو أى سيف - الذى أبقى على بعضه فى عاصمة التباعة أحمر - بأفريقيا .

وكان يحضر بنفسه تدريبات جيشه محاطا بكبار قاداته ومستشاريه ، وأخصصهم الأمير الأفريقى الذى أصبح مقربا منه - الميمون - ، والذى كان قد بعثت به زوجته - شامة - ليعضد من ساعده فى حروبه ضد الأحباش ، فيما بعد بالكثير من المهام الجسيمة ، ومنها حربه الأخيرة فى خراسان ، حتى إن سيف بن ذى يزن امتدحه قائلا :

- الميمون هو ساعدى الضارب :

إلا أن الميمون عاد من تلك الحملة ضد الفرس جريحا ينزف من أثر إصابته البليغة من جراء منازلاته ومعاركه ضد « صارخ البهلوان » الفارسى ، مما أوغر صدر الملك سيف ضده إلى حد منازلته هو بنفسه فى خراسان - وقتله وفرض الجزية على قومه .

واستقدم الملك سيف لقائده المسجى - الميمون - أشهر حكماء وأطباء عصره من الشام والهند ومصر للإشراف على علاجه ، وكان لا يكف عن زيارته له رغم مهامه

الكثيرة ، خاصة بالنسبة إلى تلك الأحداث المستجدة التى اندلعت فى كثير من مناطق «موطن التباعة» فى اليمن والجنوب العربى ، مطالبة بضرورة عودة تبع حمير للإقامة الدائمة باليمن ، وليس فى مصر أو أفريقيا .

وهى الفتنة التى لجأ إليها الفرس ، وأضرموها ليهيها على طول مناطق اليمن والجنوب ، فى عدن وحضرموت و صنعاء وسبأ ، وذى رعين ، وحتى يثرب شمالا ، وذلك لكى يرغموا التبع على التخلّى عن حكم مصر واتخاذها عاصمة جديدة للتباعة ، بما يسهل عليهم - أعادة - حكمها .

مما دفع بسيف بن ذى يزن ، إلى إجراء أكثر من زيارة - سرية - إلى جزيرة العرب ، مبصرا بأخطار الفتنة الجديدة ذاكرا ومشيرا إلى :

- الخطر على العرب وبلدانهم وأقوامهم واحد . . ولا مهرب منه .

وأمنى زيارته للجزيرة العربية ، واعدة بعدم التخلّى عن موطن التباعة .

إلا أنه ما إن عاد إلى مصر ، حتى صدمته الأخبار الجديدة بانقضاء أجل قائده المقرب «الميمون» فى غيبته ، فبكاه طويلا .

ومن فوره أرسل برسله ليخبر زوجته ورفيقة صباه «شامة» بالنبأ الفادح ، خاصة وهو يعرف مدى تعلقها وتبجيلها لذلك القائد الأفريقى نصير العرب :

- الميمون . . الطيب الذكر ●



28

الرحيل إلى مصر العدية

جاء موت القائد الأفريقى «الميمون» القريب من الملك سيف فاجعا له عقب زيارته لليمن والجنوب العربى لإخماد لهيب الفتنة التى نشرها الفرس فى ربوع جزيرة العرب مطالبين بتخلى التبغ عن مصر والعودة - لعاصمته - موطن التباعة فى اليمن ، بما يسر لهم - أى الفرس المجوس - إعادة اجتياحها .

وكان أول ما تبادر إلى ذهن الملك سيف هو زوجته ورفيقة صباه وكفاحه «شامة» ومدى فداحة وثقل الخبر عليها حين تصلها مكاتيبه ورسله وهى التى كانت قد اتخذت من الميمون أباً وكبيراً لقادة جيشها ، عقب افتقادها لوالدها الذى صلبه «سيف أرعد» معلقاً على أعلى أشجار أثيوبيا لتنهشه جوارح الطير وهو ما تحقق بالنسبة إلى شامة حين وصلها النبأ ، فشقت ثيابها حسرة ، واتشحت بأردية الحزن السوداء ، وتقبلت العزاء فى أميرها «الميمون» بقصرها ، وهى تعد العدة للسفر إلى ديار مصر العدية ، بعدما غلبها التشوق الجارف لرؤية الملك سيف والسؤال عن ابنهما البكر «دمر» وعزاء ورعاية أسرة «الميمون» .

حتى إذا ما حان صباح يوم الرحيل إلى مصر حسب رغبة الملك التبغ سيف ، أرسل من فوره بسفينة البحرية الملأى بأخلص حرسه إلى أقرب موانئ بلاد الحبشة لتقلع منها - بشامة - إلى مصر العليا .

حتى إذا ما وصلت شامة بركبها - البرى - من بلدها الى ذلك الميناء الحيشى وجدت

فى استقبالها «مقلقل» الأصغر ملك الأحباش الجديد الذى عينه الملك سيف اليزن عقب دخوله أثيوبيا ليخلف والده سيف أرعد الذى سبق أن قطع سيف بن ذى يزن عنقه يمينته .

واستقبلته شامة ، وهو يجيئها جاثيا محملا بثمين هدايا «عرش يهودا» من ذهب وجواهر ومال لها ولزوجها :

- ملكنا الحكيم الملك التبع . . أبوا لأمصا .

وتقبلت شامة هدايا ملك الحبشة - مقلقل الأصغر - شاردة مفكرة مسترجعة فى رأسها ومخيلتها أحداث تلك الرحلة السابقة الخطرة الطويلة ، بين بلادها - الموالية للعرب ، وبين الحبشة وملكها السابق - سيف أرعد - وكيف شاركت هى فى ذبح ابنة - مع سيف - داخل قلعة الجبل ليلة الاحتفال بعروس النيل التى كان مقدرا فيها ليلتها الاعتداء عليها وإغراقها فى مياه النيل حية لحيتانه البحرية وتماسيحه وأفراس مائه .

تذكرت شامة كل ذلك طيلة رحلتها النيلية وهى شاردة ساهمة تتطلع عبر كوة سفيتها ، وهى تشهد وتنصت لطرقات مجاديف النوتية تضرب صفحة الماء الرصاصى اللون المطعمة بسياط فضية مبعثها ضوء القمر النصف المكمّل ، منغمة على أصواتهم وغنائهم الشجى الجماعى المشبع بالأحزان .

تذكرت أحداث ومتعرجات رحلتها مع سيف بن ذى يزن ، منذ أن تعودت على الاجتماع به مع مطلع شمس كل صباح بـ «الكتاب الملكى» يتيا وحيدامطاردا ، يعيش حياته حذرا متوقدا يقظا لكل شاردة وواردة قد ترد من جانب الأحباش الممتلكين لهذه البلاد .

فياله من خطر محقق لامهرب من أظافره المشهرة أن تترى وتنمو ويشد ساعدك على أرض الأعداء :

-وعيونهم الراصدة ورماحهم المشهرة -

على حد تعبير سيف الذى كان شبلا أيامها . وهكذا تذكرت شامة وهى تغادر

حدود وأطلال بلاد الحبشة التى دخلتها منذ فترة حاكمة ، كزوجة لسيف بن ذى يزن وأم
بكره :

- دمر . -

حاكم سوريا العليا - أو بلاد آشوريا - من قبل الملك سيف الذى غلبها الحنين لرؤيتهما
معا كما فى السابق ، حيث كانت تطفى ضحكاتها معا الصافية المبددة لمعاناة رحلة
حبهما وكفاحهما ، وكذا المصائد التى وقعا فيها معا ، منذ آثرا الكفاح لتخليص بلادهما
من عبودية سيف أرعد :

- مبتكر حروب العطش والجاعة :

- كانت أيام !

زفرت شامة وهى تشرف - بذهيبتها - المحاطة بزوارق ومركبات الجند ، على أهرامات
مصر وهى تسد الأفق :

- أرض مصر .

ياله من حلم كثيرا ما استغرقها - مع سيف أياما وليالى وهما يحلمان معا بأن يتخذ -
يوما - من أرض مصر العدية موطنا وموطنا لحكم بقية الأمصار « - ياله من حلم ساخر .
انتبهت شامة فجأة مستطلعة :

- ها هى أشرعة سفن الملك التبع سيف بن ذى يزن ، تشق فضاء النيل .

وكان تقدم أسطول الملك يثير رهبة محببة تسرى عدواها فى كيان شامة كله كلما اقترب
موكب الملك النهري أكثر فأكثر .

كان التبع قد أقبل فى موكبه النيل لا استقبال حبه ومطلع صباه :

- شامة . . حبي . . هنا فى ربوع مصر .

عانتها طويلا وهو يغفو مستريحا على كتفها كمثل مخلوق بشرى يعانى إرهاقا
يؤججه الجلدُ ثقيلُ الاعباء .

- اشتقت اليك طويلا طويلا يا شامة .

أشار اليها بذراعه محتضنا مسرا :

- هاهى مصر العديّة تهفو لاستقبالك .

هاهى حلمنا القديم معا .

تطلعت منبهرة من ضخامة المباني والمنشآت المحيطة بالنيل الذى تحف به الزهور
البرية النضرة وسط ذلك الإشراق الكبير الذى يطبع قطاعات الحياة فى موطن الأسلاف
الفرعنة :

- أطال الله بقاءك وأعجاذك . . فأنت زوجى وأبى بعد الأمير الميمون .

وحين رست سفيتها على مريض أحد القصور المشرفة المتعالية البنيان والروعة ، أنزلها
الملك سيف آخذا بيدها على مشهد من أمراء مصر وشيوخها وكبرائها الذين قدموا من
كل صوب لاستقبال الملكة محملين بالزهور وسنابل القمح وثمانين الهدايا والفنون الباهرة
التي اشتهرت وعرفت بها مصر فى العالمين .

خاطبها الملك سيف قائلًا مرحبا :

- أهلا بك فى بلدك وقصرك يا شامة .

حتى اذا ما انتهت مراسيم واحتفالات الاستقبال والتعارف التى أقيمت لها ،
تذكرت من فورها خطتها التى جاءت بها ، والتى لازمتها كحلم عذب طوال الفترة
السابقة . وهو أن - تستفرد - بالملك سيف عبر رحلة إلى بلاد الشام لزيارة ابنهما . .
فعاجلته :

- ألم يملكك الحنين لرؤية ولدنا دمر بعد طوال غياب ؟

هنا زفر الملك ، وكأنه يتخفف من أعبائه :

- أجل يا شامة . . قريبا سنشد الرحال معا إلى بانياس لنعرج بعدها معا إلى زيارة

«البيت الحرام» ويثرب .

ضاحكها وهما يتحدثان متسامرين في آخر الليل :

- أقصد صفى أبى العج ز . . يثرب .

وبالفعل عجل الملك سيف بإنهاء واجباته بمصر ، وأهمها بالطبع مواصلة تدريباته لجيشه بجبله - الذى يحمل اسمه إلى اليوم - «الجوشى» ، وكان قد ترامت إليه الأخبار عن الحملة الانتقامية التى يقوم الفرس بإعدادها لغزو مصر من جديد .

لذا آثر الملك سيف إجراء مراسيم زيارته لسورية العليا وبانياس سرا ودون أن تصل تفاصيلها إلى أقرب مقريه .

إلا أن خطته لم يقدر لها النجاح هذه المرة ، فما أن انتهت على عجل زيارته مع شامة - لبكريهما - دمر ، وعرجا إلى مكة المكرمة ويثرب ، حتى نزلت عليه الأخبار نزول الصواعق :

- ملك الفرس ينزل على الأهرام بجيشه الجرار فى غيبة عن التبع سيف بن ذى يزن .
وهكذا أسرع الملك سيف عائدا إلى عاصمته إلا أنه وقع فى أسر أحد أمراء الفرس واسمه «بلامه» . ولقبه «الهدهاد» .

هنا حلت الكوارث الثقيلة من جديد على ديار مصر والشام معا .

إلا أن بصيص الأمل جاء هذه المرة من جانب «شامة» التى استطاعت الإفلات من كمين «بلامه» الفارسى «خلعت من فورها لباس الملكة الأم . مرتدية عدة حربها ، مجمعة مع ابنها دمر نواة جيش استقدمت معظمه من بلادها ومن جيش دمر - السورى ونجحت فى اقتحام نخب الملك سيف وفك أسره ، وهو على شفا الصلب المحقق على أيدى الفرس فقتل الملك سيف بلامه الفارسى ، وواصل تجميع جيشه من اليمن ويثرب وأفريقيا متخذاً طريقه الى مصر لفرض الحصار على الفرس الغزاه عابرا النيل ، مواصلا تقدمه إلى أن واجههم موقعا الذعر فى صفوفهم حتى واحة سيوة وبرزخ السويس .

وكان الإرهاق الواضح القسامات قد استبد بجسد الملك سيف ، عشية تنفسه

الصعداء بعد الانتهاء من مطاردة آخر فلول الفرس عن مصر ، نتيجة لما عاناه حين وقوعه في أسرهم الغادر ولضراوة المعارك التي خاضها ضدهم على طول مصر الوسطى والدلتا ، رغم عدم التكافؤ بين نواة جيشه الذى جمعه على عجل ، وبين جيشه الحقيقى بجبل الجيوشى .

حتى إذا ما عاد إلى حصونه تدافعت فيالق وكتائب زوجته «شامة» التى استطاعت استجلابها من بلدها وبقيّة البلدان والأقوام الموالية في أفريقيا . . واليمن .

مما عضد من ساعد الملك سيف ، الذى كر راجعا باتجاه «مسيوتاميا» أو «بلاد الرافدين» مطاردا وموقعا الهزائم في صفوف الفرس إلى أن دخل «المدائن» أو «السبع مدائن» بعدما طال حصاره لها فترة من الزمن .

وبعث من فوره برسله لإحضار زوجته شامة وابنه دمر من بانياس ، اللذين شاركاه احتفالات النصر التى عمت المدائن عقب صك الملك سيف ، لشروط الصلح التى تتيج له حكم تلك المدن الفارسية «السبع» وما يتبعها .

ومرة أخرى وصل الانبهار بشامة لحظة مشاركة الملك اعتلاء عرش الأكاسرة الفرس على مشهد الجموع المتلاطمة التى قدمت من كل صوب لتقديم فروض الطاعة للملك التبع سيف بن ذى يزن .

هى لحظة لن تغيب أصداؤها عن مخيلة شامة ما حبيت .

- أجل ما حبيت في هذا الجسد .

إلا أن الملك سيف وكما لو كان يقرأ أعماقها حين استطلع ذلك البريق الخاطف في عينيها السوداوين الباهرتين ، «فبادرها مسرا مكرما مقدار مساعدتها له وفك أسره ومواصلة الحرب» :

- إنه نصرك أنت يا شامة . فلولا دأبك وجسارتك . . لكنت الآن -

انتفضت شامة في وقفها إلى جانبه على مشهد من الجموع ، وقد أدركت غرضه الأخير . . أى بانقاذها له من أسره ، ثم مؤازرته بكتائب جندها ، التى شددت من ساعده في تعقب فيالق الفرس الفارين الغزاة حتى هنا :

- للقضاء على منبت الداء .

وطال حكم الملك سيف للمدائن ، حتى بعد عودة شامة إلى بلادها ، وابنتها - دمر إلى موطنه بسورية العليا «بانياس» فقاد سلسلة من الحروب - الوقائية - في كثير من عواصم «الشعوب الفارسية» والهند ، متوغلا باتجاه أواسط آسيا على عادة أسلافه التباعدة .

وكان كلما استغرقة الحنين الجارف إلى رفيقة صباه ووجه وموضع سره ومكنونه «شامة» بعث في طلبها ، لتشاركه انتصاراته الجديدة ، ولتشاركه أيضا المشورة فيما يستخدم من أمور ، سواء في مصر أو الحبشة أو السودان أو اليمن أو سورية العليا .

أما شامة فكانت على دراية بأهداف الملك التبع ، الذي لا يفي حربا وتملكا ، بقدر ما يرغب في صد العدوان إثر العدوان ، خاصة دسائس الفرس الطامعين وأساليب غدرهم التي تعتمد أول ما تعتمد على عنصر المباغثة ، كما حدث في تلك الحملة الأخيرة التي باغتها معا إثر زيارتهما السرية لولدهما في بانياس والعروج بعدها إلى يثرب .

من هنا استبد التوجس بالملك سيف إلى حد دفع به إلى التوغل حتى أصفهان كمن يدفع عن بنيه وقومه شرا وعدونا ميّتا ، سرعان ما باغته من جديد ، حين حملت له الأخبار التي جمعها عيونهم وبصاصوه وصول ملك فارسي آخر يدعى «جهينة» ويلقب أيضا بـ «الهدهاد» إلى نيل مصر ، في غيبتة ، للقضاء أولا وقبل كل شيء على جيشه وعتاده بجبل الجيوشى كما حدث في الحملة السابقة .

ووقع الخبر ثقيلا منهكا على الملك سيف حتى إذا ما استشار فيه زوجته شامة ، أشارت من فورها بالعودة إلى أرض مصر للتخلص من ذلك الشر المبيت من جانب الفرس .

سألها شامدا غائبا عن كل ما يحيط بها :

- كيف ؟ ثم استفاض شارحا الموقف لشامة :

- والطريق البحرى إلى مصر ، أصبح مقطوعا بعدما نجح الفرس في التسلل من خلف ظهرنا ، ضاربين بشروط الهدنة الأخيرة عرض الحائط .

قاربتة شامة فى حنوها مهدئة :

- التسلل . . لعله المنفذ الوحيد الآن .

غمغم ذو اليزن :

- أجل . .

أردف معدا العدة للرحيل والعودة - سرا - إلى مصر :

- مكاننا هناك مع الناس . . الأهل !



29

سيف يتوغل في أصفهان

هكذا وقع خبر اجتياح أحد ملوك أو أمراء الفرس ويدعي «جهينة» ولقبه «المدهاد» لمصر ، على الملك التبع سيف بن ذى يزن ، صادما مفاجئا له ، بعد ما توغل في أصفهان بجيشه العربى .

وفى مثل هذه الأمور والمعضلات المصيرية ، لم يكن التبع سيف اليزن يجد معينا وناصحا له ، سوى زوجته «شامة» التى أشارت عليه بالعودة بحراً إلى مصر عبر ساحل الشام مروراً ببانياس وذلك لمعاونة ابنها - دمر - فى صد العدوان الفارسى .

حتى إذا مارست سفنهم ومراكبهم بميناء اللاذقية ، استولت على الملك سيف من فوره أنباء المعارك الضارية التى يجريها الفرس فى الشام ولبنان وفلسطين وحتى دلتا مصر ، بعدما سنحت لهم الفرصة فى غيبته لدخول معظم «هذه الأمصار» . وتزايد تقديره لإحدى الأميرات العربيات التى أوقعت خسائر جسمية ملفتة بحملة الفرس الغزاة الطامعين ، واسمها «سعيدة بنت الملك الأحمر» فى محاولة منها لعرقلة تقدمهم فى غيبته .

حتى إذا ما أرسل الملك سيف برسله إلى بانياس للوقوف على أخبار ابنه دمر، وعادت الرسل بلا جواب شاف ، مما ازعج - أمه - شامة ، التى تملكها التساؤل المفزع عن مصير ولدها وما حل به ، صرخت فى فزع :

-ابنى .. وحيدى .. دمر .

إلا ان الأخبار المتضاربة التي وصلتها من أفواه رسلها أجمعت على انقطاع أخبار الأمير دمر ، منذ خروجه بحملته وكتائبه مطارداً الجيش الفارسي الغازي . فلم يعد يعلم أحد شيئاً عنه ، وما إذا كان لا يزال حياً يرزق ، أم أنه وقع أسيراً بأيدي الفرس ، بما يرجح قتله استناداً إلى بعض المصادر .

هنا وقعت شامة - الأم - فريسة لمخاوفها وأحزانها على ابنها الوحيد ، وما انتهى إليه مصيره الغامض وسط لهيب الحرب الهمجية المستعرة التي أرادها الفرس هذه المرة أن تكون حاسمة محققة لأغراضهم في إعادة التسلط على جميع هذه البلاد والأقوام ، توغلا حتى داخل أفريقيا ذاتها . ولقد حاول الملك سيف تهدئة شامة وتبصيرها بالخطر المحقق بالجميع من جانب الفرس وعدوانهم قائلاً :

- فدمر مثله مثل كل أبنائي القتل في الشام واليمن ومصر .

وهنا اقتادت المخاوف شامة إلى حد التشكك في مقولة الملك ذاته مرددة لنفسها :

- كل أبنائي . . القتل . . إذن فهو قد قتل والملك يخفى عني مصيره !

ولم تهدأ مشاعر - الأم - شامة الا عندما استحضر الملك سيف في حضرتها أخلص رسله ويصاصيه وأرسل بهم إلى كل البقع والأماكن التي يجري على أرضها قتال ضد الفرس ، لمعرفة - وقبل أي شيء - مصير الأمير دمر ، والعودة بالخبر اليقين في أسرع وقت ممكن .

حتى إذا ما عادت وفود الرسل من جديد دون جواب أو معلومة عن مصيره ، اختنقت شامة بدموعها :

- ولدي . . لم أفرح بك كأي أم بوحيدها .

وما أن أشرفت سفن الملك سيف على ميناء دمياط وتسلسل جنده إلى أرض مصر، حتى استحال أحزان الأم شامة إلى بطولات لهجت بها الألسن ، وهي تطارد بفيالقها - الأفريقية - فلول الفرس الغزاة باتجاه الصحراء بينما تكفل الملك سيف بمنازلة ومطاردة جيش - الهدهاد - ذاته . إلى ان أوقع معظمه في أسر ، وفر الباقيون .

ودخل الملك سيف بجنده عاصمته - مصر - دخول الأبطال مخضبا بالدم الأحمر النازف . . كالأرجوان، ولحقت به زوجته - المحاربة - شامة . ومن جديد أقيمت الأفراح وعلقت الزينات وصدحت الموسيقى بأغاني النصر والتحرير للملك التبع العائد المنتصر .

أما شامة فما أن خلعت عنها عدة حربها ، حتى تجددت على الفور أحزانها حول مصير ابنها دمر وأخباره التي ظلت كما هي غامضة متضاربة ، وإن كان المرجح هو وقوعه - أى دمر - فى أسر ذلك الملك الفارسى - الهدهاد - الذى عاد به - مقيدا - إلى «ما وراء نهر بلخ» مما أوغر صدر الملك سيف ، وأبدل أفراح النصر إلى أحزان ، فلم يهدأ له بال ، إلا وهو يعد العدة من جديد للعودة إلى مدنه السبع - أو المدائن - ببلاد الفرس للانطلاق منها ومواصلة القتال لتحرير ولده الأسير ، واستئصال الداء من جذوره على حد كبير .

وطالت حروب الملك سيف بتلك البلاد أو الآفاق ، دون أن يشفى غليله بوضع يده على ابنه الأسير لبعث الطمأنينة فى أمه شامة ، التى أصيبت فى سنواتها الأخيرة واتسحت بأردية الحزن السوداء دون أن تكف لحظة عن مفارقة ملابس وممتلكات ولدها دمر ، تشمها وتحسها باكية مولولة الليل بطوله :

- يامين يعملنى - يادمر - فى قبرك سحلية .

أمسح جبينك يا ولدى فى كل صبحية .

حتى إذا ما شاهدها الملك فى أحزانها تلك جاشت من جديد أحزانه ورغبته فى الثأر والانتقام مطيلا أمد الحرب ، محاصرا المدن الفارسية . . لكن دون طائل .

وكان من عادات حرب الملك سيف ، حينما يقرر لجيوشه اجتياح مدينة أو حصن أن يبعث كتيبة من جنده لتحرير ما تكتظ به سجونها ومنافئها من أسرى ومسلحين وقطاع طرق وخارجين على القانون .

فكان الملك يجمعهم ويخطب فيهم ويعيد تأهيلهم وتدريبهم على طرق وأساليب

الحرب والقتال التي اشتهرت عنه ، ثم يغدق عليهم العطاء ويلحقهم بجنده . . قائلا :
 - أخلص أبنائي . . الأشقياء . أما شامة فكانت بدورها تروح تنفوس وجوه أولئك
 الأسرى - والأشقياء - فلعلها تستطلع وجه ولدها - البكرى - «دمر» بينهم . . دون
 طائل :

- ولدى . . وحيدى . . أين ؟!

إلى أن استسلمت في النهاية لعميق أحزانها فحلت عليها - السقوم - وضعف
 بصرها ، ورغم ذلك ظلت تقاوم رغبة الملك سيف في ترحيلها عن مصر إلى بلادها ولو
 للراحة والعلاج .

ذلك أنها أصبحت أيضا تكره الحرب وتولى أبناء المعارك وسيول الدم النازف الذي
 تربت وشبت عليه :

- دم . . دم . . ولا مهرب من أكوام الجثث العفنة والمدن المشتعلة بالنيران والحراب
 . . لامهرب أو مغيث في هذا العالم الوحشى المظلم .

حتى إذا ما حاول الملك التحايل عليها بإبعادها عن ساحات المعارك ، رفضت
 باكية معاودة نديها ونحيبها وبكائياتها الذاتية :

- وولدى . . أترك ولدى . . حذقة عيني !

متشبثة باكية بأطراف أردية الملك سيف ذاته الذي يروح من فوره يحنو عليها
 محتضنها ، محاولا تبصيرها بقوانين - تلك الغابة - التي لا مكان فيها لكائن وادع أو
 مستسلم فما أصدق التباعدة القائلين :

- أيها الرجال إنكم إن لم تحاربوا الناس حاربوكم . . وإن لم تسبوهم سبوكم .

كان يضغط على رأسها بين ساعديه معيدا إليها السكينة ، مسرا بصوته الهادى :

- ولعلك يا شامة ، شهدت بنفسك أحداث حريين عدوانيتين على بلادنا . . من
 جانب الأحباش مرة ، ومن جانب أولئك الفرس الطغاة الطامعين . . ثانية .

وكثيرا ما يصل الإجهاد بالملك سيف ذاته إلى حد تأمل كفى يديه في تساؤل كظيم -
ماذا أفعل . . دلونى !

عندئذ تتعرف شامة على ما يعتمل في أعماق الملك الذى كتب عليه القتال والمطاردة
منذ صباه . . بل طفولته اليتيمة في بلادها .

فتبادره مواصلة تصميمها :

- أبدا . . لن أتخلى عنك هنا . .

إلا أن المهام الجسيمة التى تطلبتها الحرب داخل بلاد الفرس وفيما وراء نهر بلخ،
دفعت بالملك سيف إلى التخلي عن شامة موكلا حراستها والسهر على راحتها لأقرب
مستشاريه وحراسه .

وكانت كلما تشعبت معارك وحروب الملك التبع سيف بن ذى يزن ، كلما تدهورت
أكثر فأكثر حالة شامة الصحية والعقلية معا ، مما كان يضاعف من أحزان الملك ومخاوفه
عليها ، وهو بعيد عنها منشغل بكامله في حروبه في بلاد الفرس التى كثيرا ما تبدت له
عاتية لأول لها ولا نهاية .

- كمثل قدر أسود .

لذا رأى الملك أنه من الأسلم ترحيل شامة والعودة بها إلى ديار مصر، طالما أن الفرقة
بينه وبينها أصبحت واقعا ماثلا لا مهرب منه إلى حد استحالة التخلي عن مهامه
والعودة إلى زيارتها ولو سرا وبشكل سريع خاطف ،

حتى إذا ما شارفت جيوشه ذات مساء حدود أصفهان قرر تجميد حصاره والتسلل
سرا إلى حيث توجد شامة - بالمدائن - فزارها ليلا ، وهى في فراشها مريضة تلهج باسم
ابنها ومصيره الغامض .

- دمر . . ولدى . . قتلوه . . أعلم لا تخفوا عنى شيئا . . ولدى !

وهكذا لم يجد الملك سيف مفرا من ضرورة ترحيلها والعودة بها إلى مصر للراحة
والعلاج .

فرتب بنفسه رحلة عودتها - البحرية - إلى مصر مشددا على أقصى درجات الأمن المرافق لها ، تخوفا من اختطافها وهي على تلك الحال من الإعياء والهذيان والمرض . حتى إذا ما تحرك ركبها ودعها الملك سيف متذكرا ما سبق أن أسدته تلك السيدة من بطولات أصبحت في عداد الخوارق ، حفاظا عليه من كل كبوة وواقعة ، مغامرة ومضحية بأبيها ومملكتها وكل طاقتها من أجله ، زافرا وهو يودعها في أسى :

- حقا فمثلك نادريين النساء يا شامة . . تصحبك السلامة يا حبيبة القلب مدى الحياة .

وعاد متسائلا إلى جبهة قتاله الضارى على تخوم أسوار أصفهان :

- ترى متى نلتقى ثانية ؟

وجدت أحداث مغامرة من جانب ابن ملك أصفهان - بهرام - بعدما تشدد الملك سيف في حصار بلاده ، فأرسل إليه الأول طالبا الصلح والهدنة على ألا يعود - عماله - المعينون من قبله على أقاليم وكيانات بلاد الفرس إلى مهاجمة مصر مرة أخرى ، ومهما تعددت الأسباب .

وطالت المراسلات والمفاوضات بين الملك سيف وابن الملك بهرام إلى أن تقبل الملك سيف شروط الهدنة . وعلى رأسها إطلاق سراح ابنه - دمر الأسير .

حتى إذا ما تحقق اللقاء بينه وبين ابن ملك - ملوك - الفرس بهرام ، أقسم له الأخير بشرفه ولحيته بعدم معرفته بمصير ابنه وما إذا كان مختطفاً أو مقتولا ، وأنه فعل المستحيل في هذا الصدد دون طائل .

ودخل الملك سيف بن ذى يزن ، عاصمة بلاد الفرس - أصفهان - في ذلك الوقت ، وكانت عروس مدن الشرق التى هبت عن بكرة أبيها لاستقباله فسبقته شهرته التى عمت الآفاق .

وأقام بهرام حفلة كبيرة لتكريم بن ذى اليزن ، قدم له فيها ابنته - مهردكار - وكانت بادرة الجمال متوقدة الذكاء ، فلم يجد الملك سيف مهربا من تقبلها كزوجة وفقاً للظروف

والشروط التي كانت تملى الزواج السياسى ، والذى كان من أهدافه . بناء جسور الثقة بين المتحاربين .

وجرت احتفالات الزواج ، والمملك سيف نها لخواطره وأحزانه حول مصير ابنه دمر ، وتلك الأمراض التي حلت بزوجه ورفيقة صباه وجهاده « شامة » نتيجة أحزانها الجارفة وما انتهى إليه أمرها .

أما زوجته الجديدة - مهردكار - ابنة بهرام . فقد حاولت جاهدة منذ انتقالها إلى قصر الملك سيف ، التقرب منه وملاطفته لإخراجه من أحزانه وهواجسه ، دون أن تحقق ظفرا يذكر برغم جمالها المتوقد الطاغى ، وبرغم معرفتها الواسعة بتاريخ التباعة ، بل وبلغة العرب القدماء وأشعارهم ومآثرهم .

وكانت ثقافتها هذه نتيجة لدراسها - المنظمة - العليا للعربية وآدابها ولهجاتها ، وخاصة اللغة السبئية ، لغة حضرموت التي نشرها الملوك اليمينيون - المعروفون بالملوك السكاسك في الحبشة وغرب أفريقيا . وهي بذاتها اللغة أو اللهجة التي يمارسها نطقا وكتابة الملك سيف .

فكانت مهردكار تبعث إليه بين وقت وآخر ببضعة أبيات من أشعارها أو كتاباتها وخواطرها مدونة باللغة السبئية ومزينة بالرسوم والأشكال والزخارف الفارسية - المنتورة - لعل الملك يلاحظ ما بها من تأجج إليه .

إلا أن أحزان الملك سيف التي أغرقته من كل جانب نتيجة لما حل بابنه دمر من حبيبة صباه المبكر شامة ، وما انتهى إليه أمرها ، من تدهور سريع لصحتها الجسدية والعقلية ، أنسته كل شيء . خاصة ما وصل إلى سمعه عن آخر أخبارها وهي تنتقل ما بين مصر وبلادها - أفراح - المتاخمة لحدود الحبشة . ثم بانياس ، دون أن تغفل لحظة عن البحث عن ابنها المفقود - دمر - ومصيره ذاك المبهم الغامض :

أين . . . ولدى . . . أين ؟

ولقد حاولت مهردكار بنفسها في أكثر من مساء مفاتحة الملك عن أحزانه تلك ، في محاولة منها لاستشفاف مكنون أمره وأغواره الدفينة ، وهل هذا الحزن الثقيل بسبب

افتقاده لابنه ، أم بسبب تدهور حالة زوجته - شامة - وما أصابها من خبل يصل إلى حد الجنون المطلق .

إلا أن الملك التبع سيف كان يرمقها عبر صمته العميق وجرحه البليغ ، مكتفياً بالتحديق طويلاً في عينيها الباهرتين المشعيتين بذكاء الشباب ونزقه وتوقده ، دون الإفصاح عن جواب شاف لتساؤلاتها وهي أرفع نساء الفرس شأناً .

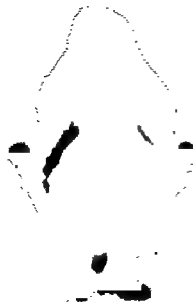
مما دفع بأبيها ذاته الذي أصبح فيما بعد - الكسرى بهرام - إلى استدعائها مساء للزيارة وفاتها في الأمر :

- ألم يعرك بعلك . . ثم التبع اهتماماً يذكر . . بعد يا مهر دكار ؟

أشار إليها والدها بهرام ، فتقدمت جاثية عند مخدعه . . ثم أطبق يديه الاثنتين على عنقها صارخاً : ما أنت سوى وصيفة

ثم استطرد مهدداً متوعداً :

- سألقى بهذا العنق الأرقط إلى النيران . . إلى النيران . . هل تسمعين !؟



30

اغتتيال الملك سيف بأهراش الدلتا

ما إن عادت الأميرة مهردكار ، من تلك الزيارة العاصفة ، التى قلبت كيائها كله رأساً على عقب ، لقصر والدها الملك بهرام ، حين استدعاها ذات مساء ليسألها عن احوالها وما انتهت اليه أمورها بعد زواجها من الملك التبع سيف بن ذى يزن ، حتى فوجئت مهردكار بعاصفة أشد تأججا داخل قصر زوجها الملك سيف .

- الملك سيف قرر العودة إلى ديار مصر .

توقفت مهردكار وهى تصعد سلالم القصر - التاريخي - أو القلعة الرخامية التى اتخذها الملك سيف مقرا لحكمة والتى فرشت بفاخر الطنافس الفارسية .

مضت متطلعة فى رهبة لما يجرى على طول ساحات القصر الذى استحال إلى خلية نحل هائلة نتيجة لحركة الحراس وجند التبع والحجاب والوزراء والوصيفات ، وهدير المركبات المحملة بنفيس الكنوز والعروش التى سبهاها الملك سيف .

وكان يقطع كل هذا صهيل قطعان الجياد ونداءات «الناضورجية» والبحارة على ظهر السفن والمراكب .

تطلعت ببصرها باتجاه شرفات جناحها الملاصق لجناح الملك إلى أن طالعها وجهه المشع حضورا . وكان يمعن النظر فى عينيها الذابلتين المنكسرتين بعد لقاءها بأبيها بهرام وما جرى من حديث قاس .

وتمنت حين احتوتها غرفتها ، وبعدها ألقت بنفسها دامعة العينين على مخدعها
البديع المخملى القانى الاحرار، لو أنها لم تذهب للملاقة والدها - بهرام - الليلة ومدى
المذلة التى عاملها بها :

- ما أنت سوى وصيفة فى ركب التبع .

ثم تهديده لها بالحرق .

استدرات مهردكار فجأة جالسة متطلعة وهى فى منتصف فراشها ، على صوت
دخول الملك سيف استعدادا للرقاد . ثم بادرها قائلا وعلى ثغره ابتسامة عريضة :

- نرحل غداً يا مهردكار . . إلى ديار مصر .

احتضنته فرحة من كل قلبها :

- أحقا . . مصر . . حلمى القديم .

أجلسته إلى جانبها وهى تلاطفه .

- هل سأخر عباب النيل إلى جانبك يوماً . . يا مليكى الجميل ؟

ولما كان الملك سيف لا يزال يعانى من أحزانه بسبب اختفاء ابنه وخبل زوجته
شامة ، فقد أثر الاستئذان من مهردكار عائدا من حيث أتى بحجة استكمال مستلزمات
الرحيل وما يتطلبه من أعباء نقل المهام وتجهيز السفن والاجتماع بعماله المعينين من قبله
ثم مسار تلك الرحلة المضنية من إيران إلى ديار مصر العديدة .

كان الملك سيف - ذاته - لا يزال يضرب أخاسا بأسداس حول مصير ابنه المفقود -
دمر على ذلك النحو الغامض الأليم :

- فليته قتل وانتهى أمره مثل من قتلوا من أشجع الرجال والأشبال . . من أولادى .

غمغم لنفسه من كوة قصره العليا مطلا على حركة الاستعداد الواسعة التى شملت
منطقة أصفهان بأكملها تمهيدا للرحيل والعودة :

- العودة . أين .

وعرج بنفسه على ميناء بانياس بسوريا الشمالية بأكملها مفتشا مرة أخرى عن ولده -
دمر وتحرق حقيقة ما حدث له ، ومعرفة مصيره المؤلم هذا خاصة بعد الذى أصاب أمه
شامة وانهارها على هذا النحو المفجع .

حتى إذا ما انتهت مسيرة البحث إلى حيث نقطة بدئها جاءت الإجابة من كل فم
وصوب :

-لأنعلم !

اتخذ الملك التبع طريقه إلى مصر عبر الساحل الفلسطيني ، وكان كلما اقتربت أيام
وساعات الوصول ، يغلبه أكثر التفكير في زوجته شامة :

-كيف ستلتقى بمهردكار ؟

تساءل :

-كيف؟

وحين أشرف ركب الملك سيف على ميناء «فاروس»

الذى أصبح الاسكندرية فيما بعد ، طالعه المدينة بفناراتها وحصونها
وأسوارها، عتيدة باهرة .

وجرت طقوس استقبالات الملك سيف وجنده العائد المظفر بالنصر ، كما لم تجر
الملك أو فاتح من قبل :

-مرحبا بعودة ابن ذى وزن .

مرحبا بعودة أبو الأمصار .

ووصل انبهار مهردكار من حرارة استقبالات الملك سيف على طول ديار مصر ونيها
على الضفتين إلى حد لم يصدق عقلها :

-يا للروعة .

إلا أن رعبا خفيا كان يسري في بدنها وبخاصة ارتعاش ركبتيها ، حتى لتكاد تسقط

أرضاً ، لولا ذراع الملك سيف الحانية التى سارعت إليها تحفظ لها توازنها فى مواجهة
الجموع المحبة له وهو العائد بأكاليل النصر . إذ كان يتحرك وسط الناس على هذا
النحو الواضح من التواضع وطيبة الخلق والمعاشرة!
- أبو الأمصار .

حتى إذا ما حان موعد لقاء الملك سيف بزوجه شامة هبت لاستقباله وهى مهيضة
الجناح طريحة الفراش .

- شامة حبيبى . . لم تعد هناك أحزان سننعم بالسلم معاً .
بادوته ملقية بخدها الأحمر على كف يده كمثلى حمامة وديعة .
- دمر . . ولدى . . أين ؟

أطرق الملك سيف مجيباً :
- قطعت الشام بأسرها يا شامة بحثاً عنه قبل وصولى إليك .
- ماذا ؟

- لا أحد يعلم .
امتقع وجه شامة ، مبتلعة صمتها ذاته وتوارت بأفكارها بسرعة عن الملك
العائد ، نهبا لهواجسها .
وبعد برهة من الزمن قضتها شامة بصحبة الملك ، تملصت رافضة مقابلة - الزوجة
الجديدة :

- مهردكار !
- ما أنا سوى مريضة . . تهذى يا سيف
ثم قفلت شامة عائدة إلى بلادها - أفراح - واكتفت بمراسلة الملك سيف عن بعد .
أما مهردكار فقد واصلت التقرب من الملك سيف ، بعد أن خلا لها الجو «لتييض
وتفرخ وحدها» ، وكان الملك يعمل جاهداً على تكريمها ، فهى الآن وحيدة ، وأكثر

عزلة . (وهو الذى أكبر فيها مدى ترحيبها بمصاحبتة إلى أرض مصر ، فقدمها على الجميع واصطحبها فى حفلاته واستقبلاته بل فى زيارته لجبله المفضل الذى سمى باسمه - الجيوشى - فهو :

- أبو الجيوش .

وعانت مهردكار طويلا من إقدامها على مهمتها التى كان قد ألقاها على كاهلها والدها الملك بهرام :

- إما أن تسميه .. وإما أن أجعلك أنت تتجرعين السم يا مهردكار أينما كنت ، بعد ثمانية أشهر بتامها منذ اليوم .

حتى إذا ما حل الأسبوع الأخير المحدد لمهمتها الدامية ، وحاولت مهردكار تجرع سمومها ، انفتح باب مخدعها على مصراعيه ودخل الملك سيف .
بادرته من فورها محتضنة :

- الليلة موعد مشوارنا البحرى فى ليل النيل الهادىء .

أشارت بذراعها كله إلى حيث يتلوى النهر العميق الأسرار تحت شرفاتها :
- تأمل .

- حقا يا مهردكار .. هلمى بنا دون تفكير .. هيا .. لنهرب معاً ساعة من الزمن .

حتى إذا ما احتوتها مقصورتها داخل «ذهبية» الملك سيف ، التى انزلت على صفحة النيل الملساء وعبر أدغاله وزهوره البرية العطرة الحانية ، أشارت مهردكار إلى دغل محدد قريب ، وأوماً لها كبير ربابة سفينة الملك إلى حيث المرسى المتفق عليه قائلاً :

- ياللهدوء . العشاء جاهز

وحين أبدى الملك عدم رغبته فى تناول شىء من عشاءه وهو يفيق من إغفاءة واهنة داعبت أجفانه :

- ليس بى رغبة للطعام . . الليلة .

- فقط تلك الكعكة التى تحبها . . أعددتها لك بنفسى .

ضاحكته مقاربة وهى تفرد كفى يديها فى براءة ملقية بشئ ثقيل فى الماء من جانب السفينة لم يتبينه الملك سيف :

- بكلتا يدي هاتين .

ابتسم الملك سيف فى وهن وهى تقدم له طبق الحلوى «المسمومة» أكلا من يدها مستريحا كمن يقاوم نعاسا يسبقه خدر النوم :

- استرح . . يامليكى الجميل .

حتى إذا ما استسلم الملك سيف لخطر نعاسه بين يدي مهردكار ، انسلت فى نعومة طاغية هاربة عبر باب جانبي فى غفلة عن البحارة الثلاثة ، واختفت دون أثر فى ظلام ذلك الدغل «الكمين» إلى أن حاوطتها شلة من فرسانها الفرس التابعين لها الذين كمنوا بانتظار تلك اللحظة التى اهتز لها العالمان .

- مات الملك سيف بن ذى يزن يا للخيانة !



روعت ديار مصر على خبر غدر «تلك الجارية الفارسية» بملكهم المحبوب سيف ابن ذى يزن ، وكثرت الأقاويل والآراء والشائعات التى سرت من فم إلى فم على طوال البلاد وعرضها .

- تلك الفارسية القاتلة .

- أوصول الغدر إلى هذا الحد . وبعدكل ماقدمه الملك سيف لتلك الحية الرقطاء؟

وذهب البعض إلى أن ما حدث للملك سيف الليلة أمر قديم التدبير منذ قبول الفرس وعلى رأسهم والدها للهدنة الأخيرة .

كما ذهب البعض الآخر ، إلى أنها مجرد مكيدة نسائية ، برغم هرب الفارسية القاتلة

ووصولها إلى حراسها الكامنين بالأدغال القريبة لشط النيل الذى شهد أبعادًا وخبيا
تلك المأساة التى قضى فيها أقرب أقربائه - أى النيل - سيف بن ذى يزن .

وهكذا روع الجميع فى مصر والشام واليمن وبلاد الشرق وعبادة ، لذلك المصير
الفاجع الذى أنهى حياة ذلك الملك المناضل المحب للناس والأحياء سيف اليزن دون
أن يتمكن أحد من الإيقاع بالقتلة .

- « الخونة . . للعيش والملح » .

ولم يطل الأمر كثيرا بمصر والشام ، حول معرفة حقيقة أبعاد ذلك المخطط إلا عندما
حملت الأخبار المتواترة ، عودة مهردكار وحراسها التى عمت بلاد أصفهان ثم أخبار
الاحتفالات التى عمت بلاد الفرس ابتهاجا بنجاح المهمة التى نفذتها تلك المرأة الأفعى
- بينما فشلت فى تحقيقها أعنى جيوشهم فى ساحات القتال والمجاهة :

- ياللغدر . . ياللذئاة .

بل إن المخطط الفارسى لم يطل مداه إذ سرعان ما تكشف عن نواياه المبيتة ، بعودة
جحافل الفرس الغزاة إلى ربوع مصر وبلاد العرب .

حتى إذا ما انتهت مراسم دفن جثمان الملك سيف بمدفنه المقام بجبله الذى شهد
تدريبات جيشه والذى دعى باسمه « جبل الجيوشى » المتاخم للمقطم تعاهد فرسانه
وكبار قاداته على العمل بوصيته فى التصدى للفرس وأطاعهم مهما طال الأمد .

فما أن ضرب أربعة من ملوك الفرس وأمراءه المتحالفين حصارهم على ديار مصر حتى
تصدى لهم أمير دمياط ، والقائد الوحيد الذى كان مقربا من الملك سيف والمدعو
« دمنهور الوحشى » .

إلا أن سطوة الفرس وعتادهم هذه المرة بعد غياب الملك سيف حقق لهم الانتصار
بدخول مصر وتخريب حصونها وتشتيت بقايا فلول جيش الملك سيف .

إلى أن هرع لنجدتهم « أسيوط ملك إيليا وفلسطين فشد من ساعد المقاومة الشعبية
التي نمت ضد الفرس ، خاصة عقب محاولة نهب مدفن ملكها الراحل سيف ذى يزن
بجبل الجيوشى .

هنا استشاطت مصر غضبا من مدى الحقد المبيت للملك التبع حتى بعدما نفذوا
فيه مكيدتهم الغادرة التي اضطلعت بها تلك الفارسية الشريرة :
-مهردكار .

إلى أن فجر ذلك الغضب الشعبى ثورته ضد أولئك الفرس . . ناهشى جثث الموتى
قبل الأحياء على طول مصر ، التي أصبحت نهبا لمطامعهم ، بينما كانت تعاني بلاد
الشام وفلسطين بدورها أبعاد تلك الحرب الانتقامية القبائلية التي عرفت بحرب
البسوس التي قادها ذلك الشاعر المحارب الزير سالم والتي استمرت ٤١ عاما ●



الفهرس



● مقدمة الجزء الأول

٧	الملوك التباعة	الفصل الأول
١٥	حروب التبع أسعد اليماني في الصين	الفصل الثاني
٢٣	وصية كاهنة الجبل	الفصل الثالث
٤١	التبع حسان يفنى قوم زرقاء اليمامة	الفصل الرابع
٥١	الهجوم الليلي والتخفى بأغصان الأشجار	الفصل الخامس
٥٩	حصار الشام وفلسطين	الفصل السادس
٦٧	تحقق نبوءة زرقاء اليمامة	الفصل السابع
٧٥	خدعة التبع المتجبر	

الفصل الثامن

٨٥ العرش الدامي

الفصل التاسع

٩٥ اغتيال الصحصاح ابن التبع حسان

الفصل العاشر

١٠٣ انتقام البسوس

الفصل الحادى عشر

١١٣ التبع ذو اليزن يحكم حمير

الفصل الثانى عشر

١٢١ البحث عن كتاب النيل ومنابعه

الفصل الثالث عشر

١٢٩ ملك بعلبك يجمع مستشاريه

● مقدمة الجزء الثانى

١٣٧ آخر التباعة . . الملك سيف بن ذى يزن

الفصل الرابع عشر

١٤٥ التعريب داخل أفريقيا

الفصل الخامس عشر

١٥١ مؤامرة ملك الحبشة لقتل ذى اليزن

الفصل السادس عشر

١٥٩ زواج ذى اليزن من قمرية

الفصل السابع عشر

١٦٧ جنون ملك الحبشة

الفصل الثامن عشر

١٧٧ مراسم عرس التبع

الفصل التاسع عشر

١٨٥ قمرية تأخذ مكان ذى اليزن

الفصل العشرون

١٩٣ ذو اليزن التبع المحتضر

الفصل الواحد والعشرون

٢٠١ الحرب الضروس في القرن الأفريقى

الفصل الثانى والعشرون

٢٠٩ حروب النيل

الفصل الثالث والعشرون

٢١٧ سيف أرعد يصرخ : ولدى جثة بلا رأس

الفصل الرابع والعشرون

٢٢٥ مهد التباعة

الفصل الخامس والعشرون

٢٣٣ سيف بن ذى تبع حير المنتظر

الفصل السادس والعشرون

٢٤١ سيف يفك حصار مدينة أفرح

الفصل السابع والعشرون

٢٤٩ موت قمرية

الفصل الثامن والعشرون

٢٥٧ الرحيل إلى مصر العدية

الفصل التاسع والعشرون

٢٦٥ سيف يتوغل في أصفهان

الفصل الثلاثون

٢٧٣ اغتيال الملك سيف بأحراش الدلتا

سيرة الملوك التباينة

الاستاذ شوقي عبد الحكيم كاتب مسرحى وروائى وباحث فى حقل الفولكلور والإثنوجرافيا ولد فى هذا المجال مؤلفات شهيرة معروفة فى مصر وفى كافة أرجاء الوطن العربى . وكتب مجموعة كبيرة من الروايات الأدبية والمسرحيات وتضمن تكريم الاستاذ شوقي عبد الحكيم ككاتب مسرحى مرموق فى مهرجان المسرح التجريبى الذى عقد الخامس الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٣ .

ويتضمن هذا الكتاب الفريد تاريخ وحضارة قبائل جنوب الجزيرة العربية الذين عاشوا فى قديم الزمان فى اليمن ودول الخليج وعدن وحضرموت وسبأ وذى نصور . وقد أجمل المؤلف معالم ذلك التاريخ القديم وتلك الحضارة الغابرة فى مجموعة من سير « الملوك التباينة » الذين جابوا ربوع الشرق الأقصى وأواسط آسيا حتى وصلت جبالهم إلى تخوم الصين ، وهم الذين أوصلوا التعريب إلى مختلف مناحى قارة آسيا بما فى ذلك شبه القارة الهندية ، وأفغانستان ، وباكستان ، وتركستان ، وأذربيجان ، وبلوخستان ، وكافة الكيانات الإسلامية الأخرى التى تنتهى بها هو متعارف عليه الآن بكلمة « ستان » داخل دول وجمهوريات الاتحاد السوفيتى القديم . ومن أشهر من جاء ذكرهم فى هذا الكتاب من ملوك وملكات التباينة : « بلقيس » ملكة سبأ . . و « تدمر » ابنة حسان اليماني . . و « زانوبيا » التى قاومت الامبراطورية الرومانية . . و « الملك أسعد اليماني » . . وابنه « حسان اليماني » . . و « الملك ذو اليزن » . . وابنه « الملك سيف بن ذى يزن » اللذان لعبا الدور الأكبر فى التعريب داخل القارة الأفريقية بدءاً بالقرن الأفريقى وأثيوبيا والسودان ومصر وبقية ربوع القارة الأفريقية بشكل عام .

ويتميز هذا الكتاب بأسلوبه الدقيق واعتماده على الوثائق المخطوطة التى عثر عليها المؤلف فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن ، والتى تتضمن هذه السيرة الملحمية الكبرى للملوك التباينة ، التى تحكى تاريخ وأجداد وحضارة العرب القدماء .

« الناشر »



الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الحالى ثروت - تلفون : ٣٩٢٣٥٢٥

٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - ج ٢٠٢٢ - برقا دار شادو - القاهرة